فضيلة العلامة الإنساني الكبير

محمد أمين شيخو

قدّس الله سرّه

حقيقة

تيمورلنك العظيم

تظهر في القرن الواحد والعشرين

(الجزء الأول)

جمعه وحقّقه الباحث والمفكّر الأستاذ

عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

www.amin-sheikho.com



الحملة التأديبية الأولى سنة (١٣٧٠)م

ولاية هِرات

جوهرة الشرق

خراسان أيضاً

معركة لم يسبق لمسلم تتري القيام بها

زواج سياسي

مغول الهوردة الذهبية

((اتق شرّ من أحسنت إليه)) توكتاميش

حتى أجلسه على العرش

ولو بشيء قليل من الخجل!!

إساءة جزاء إحسان!!

عودة توكتاميش

المعركة الفاصلة

بعد انسحاب توكتاميش

أصعب مطاردة خطّها التاريخ

على من يا توكتاميش

تراجع الهوردة أشد خطراً

المفاجأة المذهلة

فجأة وضعت الحرب أوزارها

لبالغ الأسى تحالفَ المسلمون مع أهل الشرك الكفرة ضدّ المسلمين

نهر الترك المعركة النهائية

ثمار تخريب المدن المحصّنة

مقدِّمة:

ما آفة الأخبار إلا رواتها

ما تقول في رجل هيمن على صحبه بكلامهِ فتملَّكهم وسلبهم عقولهم وأفكارهم؟.

عرض عليهم أفعالاً وأقوالاً، ورتب عليهم ضرائب ورسوماً، وحرم الرجال ملاذهم من الحياة حتى منعهم لفترة من الزمن من الطعام، وفرض عليهم سلوك الأموات ونسيان أجسامهم.

حجز حرية النساء، وحبسهن في البيوت، وضرب عليهن الحجب، فلا تراهن في غير بيوتهن قابعات.

فرَّق الابن عن أبيه، والأخ عن أخيه، وكلاًّ عن الآخر، حتى فرَّق المرء عن عشيرته التي تؤويه، بل وصل به الأمر لسفك دماء من لا ينضوي تحت لوائه، فجعل من القوم قومين، ففرَّق شملهم وشتتهم، ورفع كل منهم السيف في وجه أقاربه دون نكوص ولا رجعة، وغريب أمر أصحابه من بعده، ساروا على نهجه لا يبغون عنه حولاً، يقتلون ويذبحون دون هوادة، مائة ألف ثم مائة ألف ثم مائة ألف، ألوفاً وآلافاً من الضحايا.

فما تقول في هذا الرجل؟!.

بالطبع ستقول: أنه مجرم ظلوم غشوم سفاك، كاهن ساحر...

إذن: ليكن رائدنا الأناة والصبر، مع التأمل، وتقصِّي وجه الحقيقة من بحور الدس والكذب والإضلال، بحق أهل الإصلاح والخير والفضيلة المزدانة بالكمال. وعليه فمن يصدِّق الروايات من الأعداء، فقد تحمَّل قول الزور وتبنَّاه:

﴿ . .إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾[1]، فمن ينقل الأقوال دون فحص ولا مقارنة ولا تمحيص منطقي، فقد باء بالغضب لإشاعته الباطل، وتبعيَّته لأهل الباطل، لهدم الحقائق وتزويرها، مع أن ناقل الكفر ليس بكافر.

---

[1] سورة الإسراء: الآية (٣٦).

إذن ماذا فعل؟!.

إنه كمن نقل من قريش الطغاة، ووصف سيد أهل الكمال وصفوة خلق الله، سيدنا محمداً ﷺ بكل ذمٍّ وقدح وإجرام، بهتاناً وزوراً، فباء بغضب من الله حتى يهجر الضلال، ويعود للحق وأهله.

حقّاً لقد كان واحداً في زمرة الطابور الخامس دون شعور ولا وعي، بل بلا قصد ولا نية سوى الثرثرة، دون تفكير ولا تأمل ولا إمعان، فالرجوع للتفكير، خير من الإضلال بلا علم.

نقل أقوال قريش إذ كانوا قوماً في الجاهلية يعبدون الأصنام، ويأكلون الميتة، ويأتون الفواحش، ويئدون البنات، ويأكل القوي منهم الضعيف، حتى بعث الله لهم رسوله ﷺ:

﴿ . .يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ. . ﴾[1]، يعرفون نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، دعاهم إلى عبادة الله وحده، وخَلْع ما كان يعبد آباؤهم من دونه تعالى من الحجارة والأوثان، وأمرهم بصدق الحديث، وأداء الأمانة وحسن الجوار والكفِّ عن المحارم والدماء، ونهاهم عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وأمرهم بالصلاة والزكاة والصيام.

وأمر النساء بالحجاب والمكوث في بيوتهن، للقيام بواجباتهن المنزلية، تجاه أطفالهن وأُسَرهن، وما إلى ذلك من حشمة واحتشام.

فآمنت طائفة به رضي الله عنهم، فعدا عليهم قومهم فأخرجوهم من ديارهم بغير الحق، ليردوهم إلى عبادة الأوثان بدلاً من عبادة الله، أو أن يستحلُّوا ما كانوا يستحلون من الخبائث، فلما ظُلموا، أذن الله لهم أن يقاتلوا المعتدين من قومهم: آباءهم وأبناءهم ليردُّوهم عن طغيانهم وكفرهم، فكانت غزوة بدر ثم أُحد، وتتالت الصراعات واستمر الجهاد حتى فتحت مكة وأسلمت قريش، ومن ثم نهض الصحب الكرام بعد انتقاله ﷺ لهداية أمم الأرض.

وقد كانت الروم والفرس تتهيآن لخوض حرب عالمية ثالثة، للسيطرة على النصف الثاني من الكرة الأرضية، وقد زجُّوا كافة قواهم الحربية الفارسية بالعراق وقوات دول روما الاثنتي عشرة بالمواجهة المباشرة بسوريا وكلتا العراق وسوريا العربيَّتان مستعمرتان لهما آنذاك، ولكن خرج الصحب الكرام

[1] سورة البقرة: الىية (١٤٦).

بقيادة خالد بن الوليد لتحرير بلادهم العربية من الاستعمار ورد الطغيان، وصدموا الجيوش الزاحفة الكبرى المسربلة بالزرد والحديد، وهزموها واحدة تلو الأخرى، من معركة ذات السلاسل، إلى جحيم ولجة، إلى معركة النهر، إلى موقعة اليرموك، وهكذا.

أليس لو كتب النصر لكفار قريش، أو يهود المدينة على صحب رسول الله ﷺ "وحاشا لله"، أو عند الردة الأولى للأعراب ضد الإسلام، وكتبوا التاريخ بأيديهم ووصفوا لنا سيدنا محمداً ﷺ ترى ألا يكون الوصف كما سبق ذكره؟!.

ألا يكون حكمك على شخصية رسول الله ﷺ بما وصلك عنه حكماً خاطئاً فاحشاً.

إذن ليكن رائدنا الإنصاف وتقصِّي الحقائق (فما آفة الأخبار إلا رواتها).

فكيف نأمل أن نعرف الحقيقة وما إليها عند الأعداء الألدَّاء لشخصية عبد الله تيمور ((تيمورلنك))؟. وماذا يدرك الأطفال من المعلم الحازم، إلاَّ أنه غشوم ظالم؟!.

وماذا يدرك المجرم من الشرطي، غير أنه مقيِّد للحرية جلاَّد عدوٌّ؟!.

ستجد في طيات هذا الكتاب، أن كل ما يتحدث به المؤرخون عن عبد الله تيمور ((تيمورلنك)) إن هي إلا ألفاظ جوفاء، وتشدُّق سخيف لا حقيقة وراءه.

ولو أنصف كتبة التاريخ ومحاولو التقصي عن حقيقة عبد الله تيمور، لكفّوا عن هذه التناقضات التي ضاعت فيها الأصول الإسلامية لطول التَّرك، واختفى أثرها في وجدان الشعب، لِما لحقها من تشويه المعنى وعبث التأويل للأحداث، ما جعلها مطيَّة لبغي الطغاة وسحق الحريات..

والمطَّلعُ على التاريخ الإسلامي، لا يسعه إلا أن يقرِّر أن وزر هذا البلاء واقع على نفر من الخاصّة، استهانوا بالأصول التي دعا الإسلام إليها، من الصدق والأمانة وحرية التفكير، وعدم إهمال مواهب وملكات الإنسان التي وهبه الله إياها، فاستبدُّوا بالتاريخ لغاياتهم الهدَّامة، ولإرضاء أهداف ملوك وحكّام الزمان، ناسبين دسوسهم لأناس صلحاء هم منها براء، وهدموا بذلك مبدأ الاجتهاد والتفكير ومستلزماته، وفرضوا عبادة تقليدية بتبعيَّة عمياء، من طراز جديد مغاير لما ألفوا عليه آباءهم من أهل الصدق والإيمان.

ولكن لكل ثورة جامحة حدٌّ تقف عنده، ثم تعتدل وتتّزن، ولكل نزوة طائشة غاية ثم تثوب إلى رشدها، وتتراجع عن غلوِّها وإفراطها، خاسئة حسيرة على كثير مما فُرِّط فيها.

ولما كانت كتب العلاَّمة الكبير محمد أمين شيخو (قدِّس سره) مُيقِّظة للتفكير، محذرةً الإنسان من الغبن والاسترسال في التقليد الأعمى الأرعن، أو مِنْ قول:

﴿ ..نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا .. ﴾[1].

وإن كنا عن فحصهم وتحقيقهم لمهملين.

لذا حذونا في كتابنا هذا حذو الحق اليقين، بالمنطق والواقع السليم، كما أرشدنا إليه علاَّمتنا الكبير، بأمهات كتبه العالمية المفيدة.

وبهذا تكون دعوة الحق قد بلغتنا على وجهها الصحيح، دون تحريف ولا تشويه، بالإثبات والبراهين الموثقة عن الواقع، دون تحيّز أو انحراف.

وصلت إلينا، وقد أقيم عليها من الأدلة اليقينية إلى إدراك حقيقتها من بحرها الصافي السليم الذي لا ينضب، لأنه وفق أوامر كلام الله وحده.

وآلينا على أنفسنا ألا تبلغنا مشوهة، وتهيأ لنا سبيل النظر فيها، عن طريق مظهر الحق بالنظر فيها وبتناقضاتها، لكشف وجه الحق والحقيقة والدين اليقين.

لكن الذين لأدعياء الفتن أسلموا قيادهم، ولم ينصاعوا للدعوة المحمدية أصلاً، ولو ظل أحدهم ينظر طول حياته ابتغاء الوصول إلى الحقيقة، لا يصل طالما يظن بأدعياء الفتن الظن الحسن، فهم حُجُبُ الحق، ولا بدَّ من سلوك التفكير، ونبذ التبعية العمياء: لا بدَّ من حرية التفكير، لاجتلاء الحقيقة والحق اليقين.

تقديم المربي الأستاذ

عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

* * *

[1] سورة البقرة: الآية (١٧٠).

مطبَّات تاريخية

وهكذا.. كثيراً ما وقع المؤرخون والمتأولون للأحداث، وأئمة النقل الـــمُغالط الخاطئ، في الحكايات والوقائع، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل دون عقل ولا تمحيص، ولا فكر، ودون ردِّها إلى الأصول، وعرضها على القواعد، لاسيما في سيرة عظماء الدين، الذين وفدوا فغلبوا أعداء الحق طيلة محياهم، و لم يتمكن منهم الأعداء بوقعة واحدة.

لذا راحوا يشوهون في سيرة عظمائهم، ويتخبطون على غير هدى بعد انتقالهم.

فهل يؤخذ خبر من مغرض حاقد؟!. بالطبع سوف يسحب البساط إليه بكل ما أوتي من طاقة وملكات، فتراه يتوغل في الذات، حتى لتحسبه ألصق الناس مجلساً بتيمورلنك، ويتجاوز حدود العوائد، ليطاوع أهواء الحكام الجائرين، ومظانّهم الكاذبة، ومطاياهم الساخرة.

فكثيراً ما ترى تلك الأراجيف في طيات كتبهم المتناقضة، لسهولة التجاوز على اللسان، ووقوع الغفلة على المتعقب أو المنتقد، حتى لا يحاسب نفسه أو يحاسَب على خطأ، فلا يُكلِّف نفسه ولا يطالبها في الخبر بتوسطٍ ولا عدالة، ولا يرجعها إلى بحث وتفتيش وتمحيص، فيرسل عنانه.. ويُسلِّم في مراتع تلك الأكذوبات لسانه، ويتخذ أولئك السابقين الأوائل الأتقياء الأخفياء هُزواً في مجالسه، دون شعور منه ودون النظر إلى ما في أيدي العظماء، وما بنوا من أمجاد وبطولات للإسلام.

فقط يكتفي بصورة رسمها له المُغرضون، فيشتري بها لهو الحديث، فيلعن خيار هذه الأمة وحسبك بها صفقة خاسرة.

و إذا ما خلا الجبـــان بأرضٍ　　　طلـــب الطعن وحده والنزالَ

أي ليس هناك نُقَّاد يحصون عليه أو يحاسبونه، بل كلهم بالتقليد والنقل سواء (بلا تفكير).

ولكن:

أين الحقيقـــة لا حقيقـــــة　　　كـــلُّ مـــا زعمـــوا كـــلام

النـــاس غرقـــى في الهـــوى　　　لـــم ينـــجُ غـــرٌّ أو إمـــام

من الطبيعي أن بعض تصرفات عبد الله تيمور كانت مثاراً لنقمة الناس والمؤرخين في بعض الأقاليم، كالشام مثلاً، إذ حملت طابع التأديب للمجرمين وللعصاة، لاجتثاث الشر، ولكن بعد حلم كحلم الأنبياء، وصبر ورحمة وإحسان، حتى بلغ السيل الزُبى، ولم يبق سبيل سلمي، فكان بعض التأديب للردع، وبعض القصاص الاضطراري بالنهاية، ولا ذكر له تجاه ما تبعه من مبالغات وتهويل لا أصل لها، من المغرضين الضالين المضلين، ولكن السيرة الذاتية لعبد الله تيمور، تثبت أنه لا محل لما زعموا وأوردوا، بيد أن كثيراً من المؤرخين المنحرفين الضالين، سايروا روح العصر الذي عاشوا فيه، ولم يسايروا تبيان الحقيقة بنزاهة وحياد وإخلاص للحق المجرد.

بل إن التسرع بالحكم أحياناً، أدى إلى انحراف أناس صالحين، لأخذهم بظاهر الأسباب، دون التوغل، لتقصي وجه الحقيقة، أو الاكتفاء بالنظر من الاتجاه الذي يظنونه حقاً، دون تمحيص منطقي، لكنهم لبالغ الأسى، لا يرون الحق الأعظم الذي وراءه وهو الحق المبين، إذ لولا قَصْمُ تيمورلنك الشر وأهله واجتثاثه من أصوله في النفوس المنحرفة المضلَّة، وقضاؤه على الفساد، لاسيما بين قادة المسلمين والعوام، لما ساد الإسلام بعده بقوة على العالم بأسره ولعدة قرون إشراقية وضَّاءة على جبين الزمن، على يد العثمانيين، بعد تطهير تيمورلنك للبلاد والعباد من شرور أنفسهم، وسيئات أعمالهم، حتى هيّأ الجوّ المناسب لانتشار الإسلام، وحتى فتوح وإسلام دول البلقان.

الدس أوقع القارئ أو الباحث في دوّامة بحث لا يعرف أي الطرق يسلك، أو يتمكن من تكوين فكرة كاملة، عن شخصية تاريخية كبرى، كثر اللغط فيها أو حولها، لاسيما شخصية عبد الله تيمور "تيمورلنك"، الذي كان له الباع الأكبر بلمِّ شملِ المسلمين بعد تمزقهم، وإنهاء النزاعات والاختلافات على وجه البسيطة، وتأخير الفساد عن الأمة الإسلامية، بإشغال أرباب الحرف والمهرة من الصناع ببناء الجوامع، وتوجيه فنونهم وابتكاراتهم وتطوراتهم نحو بناء الآخرة، لتكون حقاً المساجد في القلوب، بعد أن انحرفت الأمة الإسلامية عن السلوك السليم القويم الذي ينشده رسول الله ﷺ، والإصلاح في الإيمان والإخاء، وفي زمن تيمورلنك عمرت المساجد والقلوب، وقبل ظهور "تيمورلنك ومعناها السلطان تيمور" كانت تعمّر المساجد وتخرب القلوب، وضاعت الحقيقة على الباحثين، فأخطؤوا الصواب، فبأيٍّ يأخذون وعلى أي نهج يسيرون، إن نظروا بأعينهم أفعالاً لتيمورلنك استنكروها وزوَّروها، وجعلوا من

(الحبّة قبَّة) تلفيقاً من عند أنفسهم، لبعدهم عن مرمى السياسة الرشيدة، فضاع الحق في زحمة الباطل العام، وقد أنصف الرَّصافي إذ قال:

فما كُتُب التاريخِ فيما أوردتْ — لقرائها إلا حديــث ملفّــق

نظرنا لأمر الحاضرين فرابنا — فكيف بأمر الغابرين نصدِّق!.

فطريقة البحث المجدي واتباع السبل الصحيحة في توخِّي الحقائق، يستلزم صبراً وعناءً قبل أن نلعن أول هذه الأمة، دون تحرٍ أو تدقيق، ويلزم على كل امرئٍ أن لا يقولَ كل ما يسمع:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[1]، فتوخي الصواب بشيء من الحساب والحصافة، خير من النقل دون علم ولا تيقّن، لاسيما في مرحلة هي من أشد المراحل الحاسمة التي مرَّت على البلاد الإسلامية في الصراع بين السلطان تيمور بيك والمماليك الجراكسة والعثمانيين..

تلك المرحلة التي بقيت غامضة ومضطربة، بسبب أخبار ابن عربشاه المتناقضة وأمثاله، والتي لم يتمكن أحد من توضيحها حتى الآن.

* * *

[1] سورة الحجرات: الآية (٦).

خالف ليعرف فأهلك

وقد يظهر لنا أن المؤرخ لا يملُّ من إعلان الحقائق المشوَّهة، ونشر الآراء الممسوخة، فإذا كان إجماع المؤرخين الذي بين أيدينا يقوم شاهد صدق على بطلان تلك الأقاويل، تجد المحققين لا يتحرَّجون عن الإتيان بتبريرات موهومة، لإحقاق المكذوبات الملفَّقة.

فقد أجمع المؤرخون على أن تيمور كان يكره المزاح واللهو والكذب.

وكان نقش خاتمه:(**راستي روستي**) أي: (**صدقت نجوت**).

وكانت له فراسة عجيبة، وسعد عظيم وحظ زائد في عينيه، وعزم ثابت وفهم دقيق. سريع الإدراك، متيقظ يفهم الرمز والإشارة، ولا يخفى عليه تلبيس. ولا يتراجع عن شيء أقدم عليه، ولا يأسى على ما فات، ولا يفرح بما هو آت. ولا يجري في مجلسه شيء من الكلام الفاحش، أو سفك الدماء، أو الغيبة والنميمة، يحب الشجعان والأبطال، أفكاره صائبة، وعزمه لا يلين، يفرق بين الحق والباطل بسرعة، وكان يبدأ كتاباته ((وهذه ولا شك صفات الصدِّيقين العارفين أهل القلوب وأهل التقوى المستنيرين بنور الله قدَّس الله أسرارهم)) بعبارة:

(مــن تنكــري قــولي تيمــور).

أي يقول: (من عبد الله تيمور) وهذه صفة التواضع لسلطان العالَم وقاهر ملوك الأرض، وهي عند الله كبيرة.

وكان يقرِّب العلماء على من سواهم. وكان يعجبه الصوت الحسن (لقراءة القرآن) وسماع القصص التاريخية والدينية ليل نهار، وكان لا يحسن القراءة والكتابة (ومن هنا يتضح أن ما دوَّنته المذكرات عن قراءته لكتب الحكمة لا أصل له)، ومن اللغات التي كان يجيدها: الفارسية والتركية والمغولية، ولم يكن يفقه من العربية إلاَّ ما يصلي به من القرآن الكريم.

وعلى كلٍّ، فعدم القراءة والكتابة، مع تفوقه على العالَم، حجَّةٌ له لا عليه، فهي تدل على أنه يتشرب علومه من ربِّه، لقوله تعالى:

﴿ . . وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ . . ﴾[1].

فمن كان معلِّمه الله، فهو المتفوق على من تعلَّم من سواه تعالى.

هذا وقد كان سيد الخلق ﷺ لا يقرأ ولا يكتب إذن لارتاب المبطلون.

إن تيمور ينتمي إلى فرع(**كركن**) "أي المليح أو الحسن الخُلُق" من بيت برلاس، وكان أبوه "**ترغاي**" شيخاً لقبيلة "**برلاس**" الذي نشَّأ ابنه تيمور على التمسك بسنن الإسلام القويمة، ونمَّى فيه مشاعره السياسية، التي كانت تهدف إلى تقويض أركان دولة المغول الكافرة، إذ أن "**قراجار**" الجد الرابع لتيمور كان أول من دان بالإسلام، ونبذ المجوسية في تلك الديار. أما جدُّه المباشر "**بركلي**" فقد كان يحمل رتبة عسكرية في دولة الجغطائيين، ثم آثر الانسحاب من منصبه واكتفى بإدارة أملاكه في "**كيش**" حتى آلت إليه زعامة قبيلة البرلاس، وما قيل عن تيمور بيك أنه مغولي سببه أن الفرس ظلوا طويلاً يعدُّون خانية جغتاي عند الجانب البعيد من جيحون جزءاً مكملاً للدولة المغولية، وهذا صحيح، ولكنهم أسلموا فتميزوا ولاستنتاج طبيعي بُنِيَ على غلبة رسوم المغول هناك، فضلاً عن استعمال القوم للأبجدية (الأويغورية) المغولية على الدوام في كتابة التركية إذ ذاك.

فنظروا إليهم على أنهم عبَّاد وثن وأصنام، رغم إيمانهم منذ أجيال، وكان (تيمورلنك) شاباً لبيباً قوياً هماماً حازماً جلداً أريباً، حمل نفسه على الإباء والرزانة بإزاء من حوله، وكان يمضي وقته في قراءة القرآن.

وهذا هو الرأي العام بالإجماع لصفات تيمور عند المؤرخين أعداءً وأنصاراً.

منهم من رأى فيه ملكاً صالحاً وولياً، يعمل بما يلهمه الله ليعيد الحق إلى نصابه. بل ومنهم من كان يصلي عليه كما يصلي على الأنبياء الكرام.

وحتى أن أشد أعدائه، المؤرخ الشرقي (ابن عربشاه)، تعرَّض لشخصية تيمور ممتدحاً صفاته المتميزة، في فصل خاص، قبل أن يختم كتابه، وإن كان قد صوَّر تيمور في معظم كتابه: طاغيةً فاجراً قاسياً،

[1] سورة البقرة: الآية (٢٨٢).

وسنفرد بحثاً خاصاً له، لما كان له من الباع الأكبر في تشويه سيرة تيمور لدى العرب ومؤرخيهم من بعده.

الواقع اليقيني يقطع بأن الذي شوَّه سيرة تيمور، هم أولئك المؤرخون التَبَعَة لابن عربشاه، ولسياسة حكام الدولة المملوكية الثانية، وللشائعات المغرضة من الفارِّين من وجه قصاص تيمورلنك الإسلامي المنصف، وما أعجز الإنسان الذي يجهل كل ما حوله، ثم هو يؤلف كتباً لا عداد لها، ثم يفتخر بها، ولو أنصف لخجل منها وحرق أكثرها.

والأعجب من ذلك أن يستولي على بعضهم الغرور، فيزعم أنه العالم النحرير، والفيلسوف الكبير، أو يزعم أن عقيدته التي اعتقدها حق لا باطل فيها، وعقيدة غيره باطلة لا حقَّ فيها، فيُعِيبَ عليه ليصُدَّ الناس عنه، وليس في أيديهم حق بحث، بل ولا يكلفون أنفسهم أدنى من ذلك، بالكف عن نقل الإفك، إن لم يكن أعظم، وما يعلمون إلا سراباً بقيعة، يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

إنما الضرر كل الضرر، أن نسبغ على المتكلم أو الراوي المصطنع، قدسيةَ وحصانة القرآن الكريم تلفيقاً، وأن نملِّكه صنوفاً من المزايا، تجعله يتحكم بغير حق في السامعين والقراء، فيفسد عليهم تفكيرهم، ويُعيق لهم حريتهم، فيتناول الكلام المزدان بالتشويه والتجريح، للصدق والصحيح، ويفرض عليهم فهماً مستبداً، أسبغه عليهم نَقَلَةٌ مغرضون، وأعداء خارجيون وداخليون، وهذا الفهم لا يمت للحقيقة بصلة.

والعجيب بمن لا يفكِّر، أنه يتناقض مع نفسه ورأيه، في وقتين مختلفين، وكل هؤلاء المقلِّدين، يتحاكمون إلى المنقول المصكوك في معرفة الحقيقة، وهو تحاكمٌ قائم على أساس غير ثابت ولا منضبط، ولا مأمون العاقبة، في طريق محفوفة بالمخاطر، من عداوات وحياكة دسائس ومؤامرات، واستخدام ألوان الحيل، لتحقيق النكوص على الأعقاب، والانصراف عن السعي الدؤوب المنتج، ما بين تشويه وتخذيل، وإرجاف وتهويل.

هذا الاختلاف بالرأي، يفرِّق الناس ويرمي بالفظائع، إذ تهجم فئة على أختها بالمطاعن، وبحكم الضرورة يلتجئ هؤلاء إلى الدفاع عن أنفسهم، فتثور الأحقاد وتستعر الحفائظ، ويتشبث كلٌّ برأيٍ، وتكون أكبر خدمة للأعداء والمستعمرين، وهم لا يوصدون باب المجادلات المذهبية، وما يثير الحفائظ والعصبية، وعجباً ترى المسلمين ينقادون إليها، وقد نسوا أنها إن لم تكن مُحرَّمة بنفسها، ومضرة بذاتها،

فهي من أعظم المحرَّمات في هذه الظروف التي أحاط بنا فيها الأعداء، أعداء الإسلام، من كل جانب ومكان، حتى من مُدَّعي الإسلام، العدو الداخلي الذي ضرره أعظم من العدو الخارجي، إذ أنه أعلم بالمضرَّة، فهو أداة بيد العدو، في سبيل مصلحته الخاصة، ولو أدت للضرر العام.

ولا سبيل إلى الاستقرار في هذا العالم الإسلامي، وسلامته من أثر الآراء المستجرة، إلا بالرجوع إلى أساس ثابت منضبط معصوم، صادر عن عليم بطيَّات النفوس ونزعات البشرية، يبصرهم ذلك الأساس بالخير والفضيلة التي ارتسمت في لوح الوجود الحق، الذي لا يكتنهه إلا خالق الوجود ومدبر الكون، على ما يعلم فيه من سنن وشؤون، وليس ذلك المبصِّر، إلا وحي العليم الحكيم:

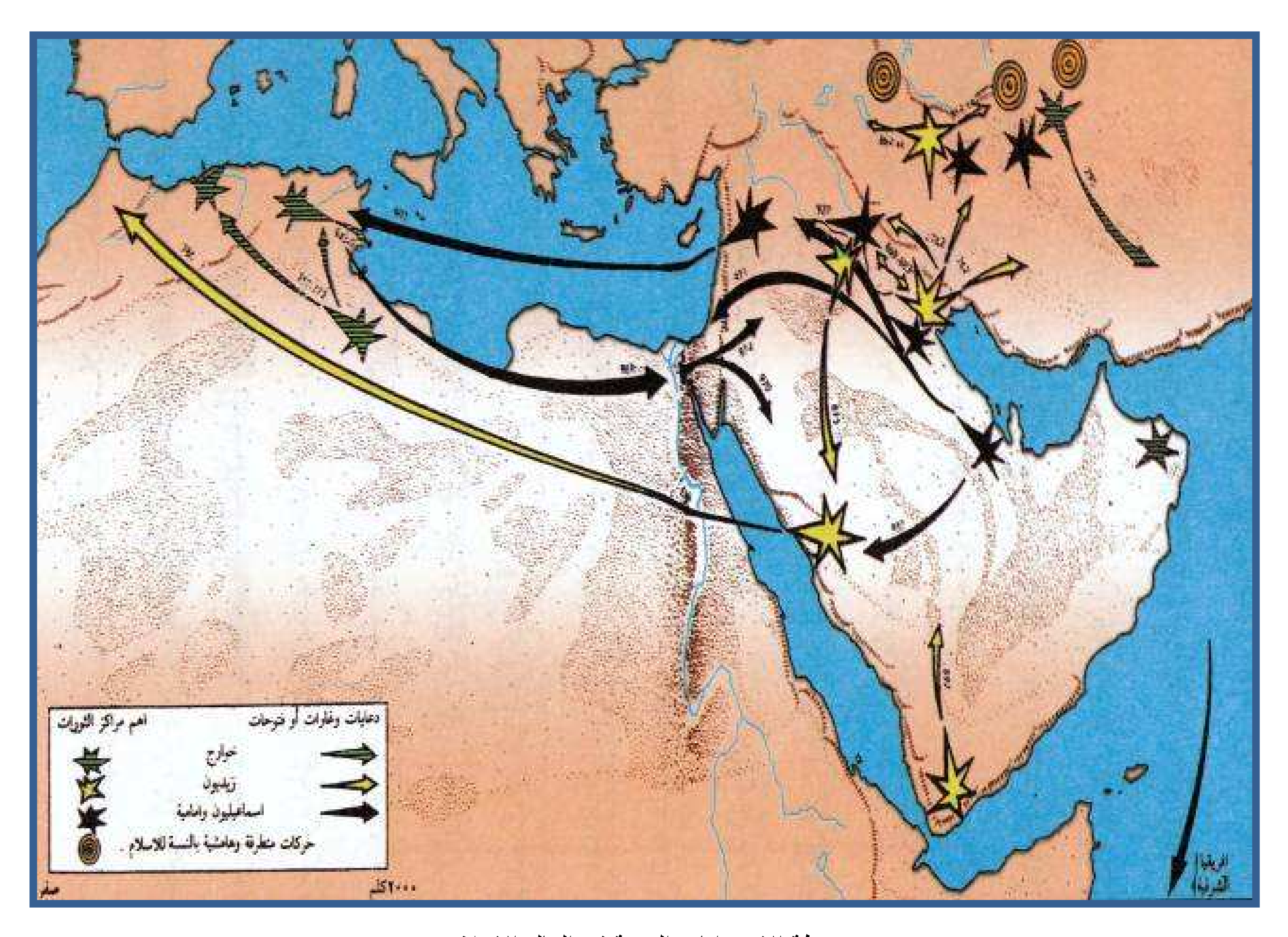
﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[1]،

هذا القرآن الذي اعتمده العلاَّمة الكبير محمَّد أمين شيخو، وعلى نهجه سار، هو ومن اتَّبعه على بصيرة.

وما الثمرة التي أرادها الله للناس من إنزال الكتاب، إلا الحكم بالحق والإنصاف، وإيتاء كل ذي فضل فضله.

* * *

[1] سورة الإسراء: الآية (٩).



خريطة الاضرابات الدينية في العالم الإسلامي

«عرض واستعراض»

طريق البحث القويم

ارتياداً لوجه الحق، واستقصاءً لُمحْدثات الأمور على وجهها الصحيح، والتي لم يتم كشف حقائقها التاريخية، التي أعمتها السياسة وأهواؤها على الجمهور العام.

وعلى الإنسان ذي الدراية بأمثال تلك الحالات، من إغفال وتشويه وتبجيل وغمط حق، أن يستعفيهم من التصديق، لأنه يعرفُ التاريخَ بالأدلة العقلية والنقلية، وملاحظة ما سبق وما لحق، واستنباط النتائج من المقدمات، وربطها بالمؤخرات.

ولن يعرف حقيقة التاريخ، صاحب التخرصات والافتراضات، وما بني على غير أساس. مع وضع القيود دون مراقبة الرواية، ومع كمِّ الأفواه، وسلب المرء إرادته، من التفكير وغيره من الملكات، لاسيما كما هو الحال بكثير من الرواية العربية.

نهج التمحيص ليس مجرد الخروج عن الإجماع والرأي العام، على مبدأ (خالف لتُعْرَف). ولا يكون مبنياً على الافتراض والتخيل، دون مستند إلى دليل، بل يتضمن الإتيان بالأدلة الواقعية التي تسانده من كل الجهات، دون التقيد بالتقليد كما هو الحال عند كثير من الرواة العرب، الذين رووا بألسنتهم وكتبوا بأقلامهم، جميع مطاعن المشركين والداسين على النبي ﷺ وصحبه، ونقلوا كل ما يثير الشُبَه والاعتراضات نقلاً، دون أن يروا في ذلك أدنى غضاضة، واستفاضوا في كتب السيرة، وأخبار صدر الإسلام، ومما رواه الرواة أياً كانوا، دون أدنى نظر لمصداقية كلامهم،إلا قليلاً مما لا يسمن ولا يغني الحقيقة في شيء.

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت :

أمرتم بالاستغفار لسلفكم فشتمتموهم، أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**لا تفنى هذه الأمة حتى يلعن آخرها أولها**»[1].

[1] رواه الطبراني في الأوسط.

ولولا لطف الله بنا وبعثه العلاَّمة الكبير السيد محمَّد أمين شيخو، الذي بيَّن في كتبه الصحيحة، الحق والحقيقة، التي يُنشدها الله ورسوله الكريم ﷺ وبموافقة القرآن الكريم، بل هي شروح لكلام الله العظيم، والتي منها (**عصمة الأنبياء**) و(**حقيقة سيدنا محمَّد ﷺ تظهر في القرن العشرين**) وغيرها، لزلَّت بنا القدم، ولما بقي لحقائق دين الإسلام أثر، فتضمنت ذكر طائفة من قصص الأنبياء وسيدهم عليهم الصلاة والسلام، تتجلى فيها طهارة تلك النفوس المؤمنة التي عصمت بإقبالها الدائم على ربها من كل معصية، كما احتوت على بيان قاطع، وردٍّ لأقوال قوم أرادوا الكيد للإسلام العظيم، ولرسل الله صلوات الله عليهم بما لا يليق بمقام عصمتهم وكمالهم العالي، هذا وقد وردت نصوص كتبها "قدّس سره" بما لا يقبل الجدل من القرآن الكريم، فما بالك بقصص غمرها التاريخ المسيَّس!..

لقد حرّر الكتبة المسلمون، وأقرَّ العلماء المسلمون، دون أي حرج نقل الروايات المدسوسة، وإبرازها كما أوردها إن لم يكن أعداء الإسلام الخارجيون فأعداؤه في الداخل من المنافقين، إذ وجد بينهم: الماكر الخبيث الكاذب المريب، والمنافق فصيح اللسان، والمداهن للسلطة، يوم كانت الرواية تصطنع والناقل للأسفار مهما أضاف من خرافات، لا يقبلها المنطق والعقل السليم يقبلونها دون وعيٍ لما ينقل وساء ذلك مثلاً.

فالتاريخ لا يكون بالظن، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً.

فلا بدَّ من تأسيس العلم على قواعد اليقين، بدلاً من وضعه على قواعد أوهى من بيت العنكبوت، إن لم يكن مجرد سفسطة كلام، وصفٍّ سجع وطباق وبيان. وذلك ما لا نجده في كافة كتب العلاَّمة الكبير محمد أمين شيخو (قدِّس سره)، فما حوت إلا الحق والحقيقة، والمنطق واليقين، لاستنادها الكلِّي على كتاب الله العظيم، وعلى المنطق الحق السليم.

مع الابتعاد عن تهجين الحقيقة وإفسادها، فلقد كشف عنها كل غثاء، وما لا علاقة له بالواقع، بل الحافل بالتناقضات، فكثيراً ما نرى في كتب السيرة من أقوال الرجال الذين لم يقولوا قولاً قط في تلك المسألة، ولا خبرة حازوها، وتلك لعجيبة من عجائب الفهم عند الراوي والناقل:

إذ لا يميِّز الراوي بها الرديء الفاسد، وما كان من ساقط الكلام، من الحق والصدق، وما لا يجوز على أهل الحق بالبداهة. وقد يكون المنقول تلفيقاً، كذباً غثاً ضعيفاً، والمتأخرون يتمسَّحون في الرديء

من كلمات المُدخلين الذين لا يجدون من يسألهم عما ينقلوه للتلفيق والكذب، رؤساؤه الأعداء والمنافقون، لصياغة الأخبار ووضع الرتوشات المشوهة.

لقد لبسوا لباس القصَّاص، وأشرفوا على طوائف غير قليلة من الرواة النقلة، ومن النُظَّام المنسقين، حتى إذا استسلم إليهم أولئك وسلّموهم قيادهم طبّعوه بطابعهم، ونفخوا فيه من روحهم الخاطئة، وأذاعوه بين الناس، حتى خالوه وقائع صدْق، وما هي إلا أراجيف وأقوال وهم، وما لا يقبل ذو فهم سماعه، وانعقد الإجماع عليها أو ما يسمى بالرأي العام، وأجازوا لأنفسهم الترخيص في تناول السموم الأدبية والعلمية بمظاهم المهلكة، أترى لو أن المرء يُفكر ويستقرئ ليستنتج فهل يقبل أن يكون تحت وصاية الغير؟. خصوصاً إن كان ذلك الغير من عباد النار السابقين ومن دسوسهم المجوسية المنقرضة أو الإسرائيليات الحاقدة!..

بالطبع إن كل ما ترجوه من احتمالات مستقاة من لدهم، لتصيب تقدماً ملحوظاً، وتكوّن فكرة كاملة عن شخصية عظيمة تدرسها في العالم، إنما هي خيال في خيال.

فالتاريخ: ليس علماً كالقانون أو الطب أو الفلسفة ونحوها، مما تعاوره العلماء من أجيال بعيدة، وفرغوا منه تدويناً وتعليقاً وشرحاً وتحقيقاً.

التاريخ سابقاً لا يخضع لقانون ثابت عند رواية واحدة، إذ تتفاوت به العقول، وتختلف القرائح في حدَّة الذكاء، وقوة الملاحظة، لذا تراه كالجزر البركانية، تظهر جزيرة بحالها بغتةً، وتخسف أخرى فجأة في مثل ذلك، والتاريخ نوعان:

أحدهما طوى عليه الدهر، وقد وقع وانقطع، فلا تغني فيه الطرق البحثية شيئاً.

والآخر تطوى عليه أدمغة مؤلفي الروايات، ومن ينسجون في العلم على منوالهم مليمتراً بمليمتر، وهي طريقة من أجهل الطرق، لأنها تختلف فيما تقرره باختلاف الرجال، من عقل وذكاء واطِّلاع، وطريقة فهم وتبليغ أو صياغة، وكذا بحسب أهواء الحكام، وتبدُّل الأزمنة. لاسيما أن كل ملك مسيطر لا تعجبه ولا تروق له سياسة من سبقه، لذا يُصاغ التاريخ بما يوافق هواه (**والناس على دين ملوكهم**). كما رُوي في العهد العباسي المعادي للأمويين من تلفيقات عن (**الحجاج بن يوسف الثقفي**)، فاتح بلاد الأتراك والسند والهند وبخارى وغيرها، ومشكِّل القرآن الكريم ومنقطه.

مع أن التاريخ شيء ثابت لا يختلف، ولا يمكن أن يخلق مرة أخرى، لذا ترى من أهل التاريخ رجلين، أحدهما قال: هذا اللون أسود ولا يمكن أن يكون أبيض، والآخر قال: هذا اللون أبيض ولا يجوز أن يكون أسْود، وما الفصل بين يمكن أن يكون أو لا يمكن أن يكون إلا موهبة من الله لمن فتح الله قلوبهم وأراهم الحقيقة بقلوبهم كالأنبياء ومن تابعهم بإحسان، إذا هي لم توجد، لم يُغن البرهان الغيبي من الحق شيئاً، ولا يزال أحد الرجلين مع الآخر في لجاج ومكابرة حتى تهاترت بيِّناتهما وسقطت، إذ أنى تكون قيمة للعقل أو النقل حيث لا قيمة للمنطق!..

ولكن أن يجتمع الرجلان في شخصية واحدة كقول ابن عربشاه، فهذا محض الفهم السقيم، حيث يعدُّ كتاب عجائب المقدور في نوائب تيمور، الكتاب الوحيد باللغة العربية عن حياة تيمورلنك من عدوٍ لدودٍ، وقد أخذ عنه المؤرخون من بعده، وكأنه في صحته قرآن، وأن مؤلفه لم يدجِّل، ومن المعلوم فعلم التاريخ أن المؤرخ إن بدا تحيّزه وميوله نحو جهة ونفوره من أخرى لم يَعدْ ثقة.

وسنفرد بحثاً نلقي فيه بعض الضوء على تناقضات ابن عربشاه، لوضعه بميزان الصِّحة وعدمها، حتى نستجلي ما نشر وأشاد في شخصية تيمور العظيم، مصلح العالم الفاسد وقاهره.

* * *

تناقضات ‹ابن عربشاه›

الدواة التي شربت ماء البحر

يعتبر كتاب عجائب المقدور في نوائب تيمور، من أخطر الوثائق التي دوَّنت سيرة تيمور، وما حملته من حوادث، بروح المتشكك في صحتها، حيث يورد أحياناً للقصة الواحدة روايتين أو ثلاث.

أو يسبق القصة بكلمة:

(**ومن الظاهر أن، أو يمكن أن يكون، أو من الممكن... وقيل**)، وهكذا.. من الفرضيات الإغراضية المنحازة.

وقد أخذ الباحثون على ابن عربشاه حقده على تيمور، إذ ذهب في شتائمه شوطاً كبيراً، ونعته بالإجرام والغدر والاحتيال، وشبَّهه بالأفعى، بل بلغ بالتهجم الحاقد أنه شبهه لفظاً بالكلب "وحاشاه"، وهو بازدياد: لؤماً على شَره، ورغبة بالفساد، وحنقاً على البلاد والعباد، وأنَّه قد عشى عن ذكر الرحمن، فقيّض له من الشياطين قرناء، وأنه كان مدار سخرية الملوك، لما ينسبونه له من كثرة الحماقة وقلة العقل، وأنه ابن اسكافي، فقيرٌ عاجزٌ بين عزٍّ موهوم وذل ناجز، (لم يكن له سوى ثوب قطن واحد باعه واشترى به رأس ماعز)، جغطائي، حرامي، مادة الفساد، نصف آدمي، ولا تكاد تخلو صفحة أو ترويسة في كتابه (**عجائب المقدور في نوائب تيمور**) إلا وتحمل معها النقد اللاذع والشتائم والسباب، وواضح أن أسلوب التهجُّم مرفوض قطعاً بالأدب العالمي الحديث وبالآداب كلها، فلا يؤخذ أدبياً، ولا تحمل أقوال المتهجِّم محمل الصحة، لأنه بأسلوب العاطفة العمياء يفيض، لا بالمنطق والحجَّة والبراهين العلمية الصحيحة.

ولكن عجباً فنحن من جهة أخرى نراه يتعرض إلى شخصية تيمور فيصفه بالفاتح العظيم، ممتدحاً صفاته المتميزة في فصل خاص، يناقض كل ما أورده من صفات لا تليق بعبد الله تيمور، بل أشار إلى العديد من المزايا التي رأى أن تيمور يتحلى بها:

(**والفضل ما شهدت به الأعداء**) ينتقل من التهجم الأرعن غير الأدبي، إلى الثناء الرفيع السامي لمناقبه ومزاياه الحقيقية، فوصفه:

(**بالشهامة، والرزانة، وحب الصدق، والشجاعة**).

كما يقول:

(**تيمور بن برلاس نشأ شاباً لبيباً مصراعاً همّاماً حازماً جلداً، وكان يصاحب نظراءه من أولاد الوزراء.. وكان أبوه أحد أركان دولة السلطان وهو بالجلادة والشهامة بين أضرابه مشهور**)...

"عند ذكره نسبه هذا، أين ذكر الإسكافي والفقر والتجرم والسخرية فيما أورده ابن عربشاه بتناقضاته"؟!..

ويفرد فصلاً يسميه في صفات تيمور البديعة، وما جُبل عليه من سجية وطبيعة فيقول:

(**وكان تيمور طويل النجاد، رفيع العماد ذا قامة شاهقة كأنه من بقايا العمالقة، عظيم الجبهة والرأس شديد القوة والبأس، عجيب الكون، أبيض اللون، مُشرباً بحمرة، غير مشوب بسمرة، فخِيم الأطراف، عريض الأكتاف، غليظ الأصابع، سميك الأكارع، مستكمل البنية، مسترسل اللحية... جهير الصوت، لا يهاب الموت، قد ناهز الثمانين وهو مع ذلك بجأش مكين، وبدن مستمسك متين، صلباً شهماً كأنه صخرة صماء** "أين وصفه (النصف آدمي) من هذا؟!.."، **لا يحب المزاح والكذب، ولا يستميله اللهو واللعب، يعجبه الصدق ولو كان فيه ما يسوؤه، ولا ييأس على ما فات ولا يفرح بما يجيئه، وكان نقش على خاتمه:**

(راستي روستي) **يعني**: صدقت نجوت.

ولا يجري في مجلسه شيء من الكلام الفاحش ولا سفك الدماء ولا من سبي ونهب وغارة وهتك حرم، مقداماً شجاعاً مهيباً مطاعاً يحب الشجعان والأبطال..

- ذا أفكارٍ مصيبة وفراسات عجيبة، وسعد فائق وجدٍّ موافق وعزم بالثبات ناطق، ولدى الخطوب صادق..

- محجاجاً درَّاكاً للَّمحةِ واللمزة، مرتاضاً مستيقظاً للرمزة، لا يخفى عليه تلبيس ملبِّس، ولا يمشي عليه تدليس مدلِّس، يفرِّق بين المُحق والمُبطل بفراسته، ويدرك الناصح والغاش بدربة درايته، يكاد يهدي بأفكاره النجم الثاقب، ويستتبع بفراسته سهم كل كوكب صائب (إشارة لفراسة المؤمن الذي ينظر بنور الله):

يشـــاهد أعقاب الأمور بعقله	**كما شاهد المحسوس بعين ناظر**
((قلوب العارفين لها عيـــون	**ترى ما لا يراه الناظريـــن))**

إذا أمر بأمر أو أشار بشيء لا يُردُّ عنه ولا يُثني عنان عزيمته عن شيء منه فلا قلة الثبات، ولا ركاكة الرأي والحركات:

إذا قال قولاً أو أشار إشارة	**ترى أمره في النصر دوماً قاطعاً**

- وذكر أنه عندما استوصف ابن خلدون لبلاد العرب وممالكها واستوضحه أوضاعها ومسالكها..
(**أن القصد من ذلك امتحانه لأنه لم يكن محتاجاً ذلك إذ في خزائن تصوره صور جميع الممالك**) إشارة للبصيرة المحمدية.

- وذكر أن تيمور:

(**كان محباً للعلماء مقرِّباً للسادات مترلته والشرفاء، يعزُّ العلماء والفضلاء إعزازاً تاماً، ويقدِّمهم على كل أحد تقديماً عاماً، ويُترل كلاًّ منهم مترلة، ويعرف له إكرامه وحرمته، ويبسط إليهم الإنصاف انبساطاً ممزوجاً بهيبته، ويبحث معهم بحثاً مندرجاً في الإنصاف والحشمة**).

(ولا يعرف أهل الفضل إلا أهل الفضل) كما (لا يعرف أهل الكمال إلا أهل الكمال) وتلك شهادة بكماله.

(**لطفه مندمج في قهره[1] وعنفه مندرج في برِّه**):

متفــرق الطعم مجتمــع القوى	**فكــأنــه الســراء و الضــراء**
مرُّ المذاق على أعــدائه بشـــع	**حلوا الفكاهة للأصحاب كالعسل**

[1] في قهره: أي حينما يقهر عدوه يظهر عطفه ولطفه عن مقدرة.

- وكان مواظباً لإقراء التواريخ وقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وسير الملوك وأخبار من مضى من الأنام.

- وكان لا يقرأ ولا يكتب.

- كان فريد الطور، بعيد الغور، لا يُدرك لبحر تفكيره قعر، ولا يسلك في طود تدبيره سهل ولا وعر (يصفه هنا وصف نبي).

- وكم كان له من بهاء، وفكر خفي وذكاء.

- وكان من أبَّهتِهِ وعظمته وشدة شكيمته وعُتوِّه وحرمته أنَّ ملوك الأطراف وسلاطين الأكناف مع استقلالهم بالخطبة، واستبدادهم بالسكة، وانفرادهم بالزعامة والرياسة، وقيامهم بأمور الإيالة والسياسة.. كانوا إذا قدموا عليه يجلسون نحواً من مدِّ البصر من سرادقاته قائمين بشرائط الأدب والحرمة. فإذا أراد منهم واحداً..ينادى باسمه يا فلان من مكان بعيد فينهض في الحال من مجثاه مجيباً بلبيْك لبَّيْك دعواه، ويعدو نحوه متعثراً في أذياله، متلقياً ما برزت به مراسيمه بقبوله وإقباله، مطرقاً رأس التذلل والخضوع، مصغياً بآذان الخنوع والخشوع، مفتخراً على أضرابه، لكونه أهَّله ودعاه واعتنى به.

وكان فقيهاً، محدِّثاً أريحياً، حسن البهجة، صادق اللهجة).

<u>هذا و لم ينسب تيمور لنفسه فعلاً ولا مهابة، إنما أوْكل أمره إلى الله.</u>

ويتحدث ابن عربشاه عدوه اللدود عن ذلك:

"أنه حكى له مولانا (**محمود الخوارزمي**) أن تيمور قال له لما استصحبه في بعض أسفار حروبه وقد أصابه المرض:

يا مولانا محمود انظر إلى ضعف بنيتي، وقلَّة حيلتي، لا يدَ لي تقبض، ولا رجل لي تركضْ، لو رماني الناس هلكتْ، ولو تركوني وحالي ارتبكتْ، لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً، ولا أجلب خيراً ولا أدفع شراً، ثم تأمل كيف سخر الله تعالى لي العباد، ويسَّر لي فتح مغلقات البلاد، وملأ برعبي الخافقيْن، وأطار

هيبتي في المغربيْن والمشرقيْن، وأذلَّ لي الملوك والجبابرة، وأهان بين يدي كل الأكاسرة والقياصرة، **وهل هذه الأفعال إلا أفعاله تعالى وهذه الأعمال إلا أعماله جلَّت عظمته؟**.

ومن هو أنا غير سطيح ذي فاقة، لا باب لي في الدخول إلى هذه الأفعال ولا طاقة، **ثم بكى وأبكاني**، ثم مُلِئَت بالدموع أرادئي".

وإليك ما عبَّر عنه خلال مراسلاته للملوك إذ كان يبتدئ رسالته:

(**من عبد الله تيمور...**).

بينما يقوم الملوك الآخرون بكتابة صفاهم وألقاهم ومدح ذواهم بما يبلغ طوله الذراع وزيادة. (وتلك لأيْم الحق من صفات تشبه صفات النبوّة).

هذا و لم يغالِ ابن عربشاه بوصفه لتيمور بتلك الصفات العظيمة، مع أنه عدوه، (**والفضل ما شهدت به الأعداء**) إذ أجمع المؤرخون قاطبة عليها وزيادة.

ومن الغريب

أنَّ ابن عربشاه يذكر أن سبباً من أسباب غضب تيمور من مكاتبات ابن عثمان **ذكره للنساء وحَلفِهِ**، حيث كان مجلسه يبلغ القمة في الأدب والألفاظ الأخلاقية لأنه سبق أنَّ ذكْر الحريم عند الجغتاي وقبائل الترك من أكبر الجرم وأعظم الخيانة في الحرم. وهي غير أسباب تكبُّر وتجبُّر وتعالي ابن عثمان حينما دعاه تيمور بيك للمشاركة بالجهاد في سبيل الله متساوين، فغضب ابن عثمان **لمساواته إياه**، **فطغى وبغى** وهجَّم وشتم كبراً وعلوّاً في الأرض، فأذله الله وهزمه على يده في عقر داره.

﴿..إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

ولأن ذكر النساء عندهم من العيوب وأكبر الذنوب (وهذا ما صقلهم به إيماهم بالشريعة الإسلامية) حتى أهم لا يلفظون بلفظ امرأة ولا بأنثى، وإنما يعبرون عن كل أنثى بلفظ آخر، ويحثُّون على الاحتراز عنه حثاً، ولو ولد لأحدهم بنت يقولون:

وُلد له مخدرة أو من ربَّات الحجال أو مستَّرة.. أو نحو ذلك، هذا ويناقض ابن عربشاه نفسه فيقول:

---

[1] سورة هود: الآية (٥٦).

(وكان في عسكره كثير من النساء، يلجن معامع الهيجاء، ووقائع البأساء، ويقابلن الرجال، ويقاتلن أشد القتال، ويصنعن أبلغ ما يصنع الفحول من الرجال في الترال، من طعن بالرمح وضرب بالسيف، ورشق بالنبال، وإذا كانت إحداهن حاملاً وأخذها وهم سائرون الطلقُ، تنحَّتْ عن الطريق، واعتزلت الخلق، ونزلت عن دابتها ووضعت حملها ولفته، وركبت دابتها، وأخذته ولحقت أهلها).

وكذلك يذكر أهن يحضرن مجالس الاجتماع والاحتفال دون ستر[١].

يجعلهم هنا ابن عربشاه كالنَّور[٢] سبّاً وتحقيراً من عنده.

وفي ذلك تناقض صريح واضح بين قوْلَي ابن عربشاه بوصف جهة واحدة.

وكذلك يروي قصصاً أشبه أن تكون صوراً متحركة للأطفال، أو خرافات العجائز اللاتي يروينها لأحفادهن ليكفين أنفسهن ثرثرهم وصخبهم.

منها وصفه لشاه منصور[٣] أنه سيد زمانه في السياسة، ذو الرأي المتين والقصد الحسن، وأنه هاجم بـــ/٥٠٠/ رجل مائة ألف من الجيش التيموري وتمكن من الغلبة عليهم والنصر بالرغم من أنه لم يبقَ معه سوى اثنين يضرب بهم يمنة ويسرة، ويُلْجِئ السلطان تيمور بيك إلى الاختباء بين النساء.. (أي يروي الأمور معكوسة) ويكون بذلك قد ناقض نفسه وعكس الواقعة.

وقصصاً خرافية على منوالها نسجت لأفراد انتصروا على الألوف المؤلفة من التيموريين كأبي بكر الشاساني وعلي الكردي وأمِت التركماني.. ولو كانوا قطاع طرق، والمهم التخفيض من شأن المسلمين، ولو بروايات خيالية كاذبة. وكذلك الحامية الحلبية عددها ثلاثة آلاف خرجت لتصارع ثمانمائة ألف جندي تيموري، وكان عدد القتلى من الجيش الحلبي/٢٠٠٠٠/ عشرون ألفاً، وقال إنه تركها خاوية على عروشها لا أنس فيها ولا أنيس، ومن ثم يقول حين صدوره لها مرة ثانية أنها استعصت عليه، فمن

---

[١] والغريب أننا لا نجد من يؤيده سوى الأسباني (كلافيجو)، بينما ينفي صاحب كتاب تاريخ بخارى }أرمينوس بن فامبريۑ ذلك نفياً قاطعاً، ونذكّر أنَّ ابن عربشاه كان طفلاً يوم كان في سمرقند.

[٢] قبائل لا كتاب لهم ولا ذمّة ولا عرض ولا شرف.

[٣] هو شاه منصور بن شاه ولي بن محمد بن مظفر اليزدي سلطان عراق العجم.

أين جاء السكان والجيش، والأمراء والنواب كلهم فرُّوا إلى مصر، و لم يقدم نائب دمشق إليها إلا بعد شهرين من مغادرة الجيش التيموري؟!.

التناقض بالرواية هذه:

أن ثلاثة آلاف حلبي قُتِلَ منهم عشرون ألفاً. فمن أين أتت السبعة عشر ألفاً المقتولون؟!..

وما أدراك قوله: ما الزردكاش الحلبي والزردكاش الدمشقي؟!. هما اللذان تصديا لجيش تيمور بيك وقد تجاوز كلٌّ منهما التسعين عاماً...!.

ويحدثنا بين الحين والآخر عن قصص لتيمور أشبه أن تكون بالمعجزات، سنشير إليها في حينها.

فكيف تُرتجى الحقيقة عند من يروح على ذم وقدح ويغدو على مديح وإطراء؟!.

يعترف بلسانه:

يحدثنا ابن عربشاه عن الحقيقة من حيث لا يشعر في خاتمة كتابه، وقبل أن نلج فيها يجدر بنا الإشارة إلى أن ابن عربشاه ولد سنة إحدى وتسعين وسبعمائة بدمشق. وأن تيمور قدم بجيوشه إلى دمشق سنة ثمانمائة وثلاث سنين، أي كان عمر ابن عربشاه آنذاك اثنتي عشرة سنة، وقد كتب تاريخه هذا الذي يقول أنه شاهدْ عَيان له بعد ثلاثة عقود ونصف العقد أي على ذكريات الطفولة. فهل تقبل شهادة طفل عمن سباه؟!.

أم أن طفلاً يدرك الأمور على حقيقتها!. لاسيما وأن أباه كان في خدمة السلطان (أحمد الجلايري) ببغداد الذي كان نواة الفتن لأهل الشام ومصر، وتمت كتابة تاريخه في عهد سلاطين المماليك الذين لحق بهم الخزي والعار لقاء فرارهم أمام الزحف التيموري.

وما يهمنا:

أن ابن عربشاه يذكر ويفصِّل بالنهب والسلب والسبي والفتك والقتل لأهل دمشق، والتقييد بالأسر، وكيف كان هجوم أولئك الكفرة الفجرة (جيش تيمور) على ذلك بالتعذيب والتثريب والتخريب، وأسرهم المخدرات، وكشفهم غطاء المسترات، ومن ثم يقول:

(**فأقسم بالله لقد كانت تلك الأيام علامة من علامات يوم القيامة، وأسفرت تلك الساعة عن أشراط الساعة، واستمر هذا النهب العام نحواً من ثلاثة أيام**)، وأردف كذباً: (**ثم أرسلوا في حرم المدينة شواظاً من نار حتى أصبحت**):

﴿..حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ..﴾[1].

ويسهب في وصف جند تيمور والجغطائيين:

(**الوحوش والسحالي والأفاعي والكلاب والثعالب و.. و...**).

وهنا يحصل لنا العجب:

فقد ذكر لنا السخاوي، صاحب الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، في ترجمة ابن عربشاه أنَّ ابن عربشاه سافر بمفرده إلى بلاد الخطا، وأقام ببلاد ما وراء النهر للاشتغال والأخذ عمن هناك..

فإن كان كلامه صدقاً كيف أقام بين قوم هم كما وصفهم ليأخذ عنهم العلم والفضل والمعرفة؟!.. إلا أن يكون مجنوناً، أو طيراً على أمثاله وقع، خائناً لدينه ووطنه، أو كاذباً متوهماً وذلك الأرجح، وللأسف أخذوا عنه تاريخاً كاذباً، عن تيمور بيك العظيم، لتشويه حقيقة ذاك المصلح البصير، إذ يجيبنا في خاتمة كتابه فيقول:

(**لما كانت الدنيا دار انقلاب، ومحل تغيير واضطراب، قُدّمت على الأخرى للاكتساب، إما لجزيل ثواب، وإما لوبيل عقاب...**) ويذكر:

(**أن العلوم قد درست، وحدائق رياضها ذبلت ويبست، وصار الكلام فيها عيّاً، والمستوى في تحقيقها وتدقيقها نياً، ولم يبقَ لطالب العلم به انتفاع، إلا أنه إذا احتاج إلى القوت عرض كتبه لتُباع، غير أن بعض كبراء العصر، ورؤساء الدهر، وبقايا الأكياس، متشوقون لتواريخ الناس**).

"أي كتب هذا التاريخ ليتقرب به إلى السلاطين والأمراء الذي يهمهم أمثال تلك السِيَر، كي ينال من دنياهم وأموالهم إرضاءً لهم وتمويهاً للحق".

---

[1] سورة يونس: الآية (٢٤).

ويذكر أنه تردد كثيراً:

(فاعترضتني نوائب الخطوب، وكشَّرت دون مراميَّ أنياب القطوب، وجبهتني يد الردع، وصدمتني قارعة المنع، بأن أكبر الكبائر في هذا الدهر الدائر، أدب أديب، أو فضل أريب، أو علم عالم لاسيما غريب، لقد كُره الأديب والفقيه، كراهية التحريم لا التتريه، وقد تقرر هذا في الأذهان ورسخ، ولهم الذنب إذ يداهم أوْكتا وفوهم نفخ)، و لم يقل أن كذبه ودجله هما سبب كراهية الناس له.

ونحن نقول: وكيف لا وقول رسول الله ﷺ:

«بئس العلماء على أبواب الأمراء».

وقوله ﷺ:

«أخشى ما أخشى على أمتي العالم الجهولي القلب العليم اللسان»[1].

وقوله تعالى عن الذين اتخذوا:

﴿ . .زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا . . ﴾[2].

أمثال ابن عربشاه. وأجدر به هو وأمثاله ألا يعلموا شيئاً عن الأتقياء الأخفياء أمثال عبد الله تيمور.

ويذكر كيف تضاعفت عليه الحال تشتيتاً، وزاد الكبد تفتيتاً...:

(وارتبكتُ في عزمين، واشتبكت بين همَّين... فقدَّمت رجلاً وأخَّرت أخرى، واستنهضت جواد فكري كراً وفراً... وجمعت من بال متفرق، وألَّفت من فكر متمزق، من قضايا تيمور الطويلة العريضة نبذة، وجبذت بكف الأفكار من قوس حكاياته جبذة..

وكنت طالما أُفوِّق سهم النظر في بيداء التأمل نحو قنص معنى دقيق... وإذ بقاطع الشواغل قطع بترس الحوادث على سهم خاطري الطريق، وبتمساح الهموم التهم غواص فكري، فإذا هو في بحر الغموم غريق، فتنسد في وجه قصدي المسالك، وأصير من نهار أزهر إلى ليل حالك... فصرت في

---

[1] وفي كنز العمال «أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلون» رقم/٢٩٠٤٢/.
وفي حديث آخر «أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان» رقم/٢٨٩٦٨/.
[2] سورة الأنعام: الآية (١١٢).

وعوره أقع وأقوم، وفي بحوره أغطس وأعوم، إن راق راكد الخاطر، أو حمى الفكر الفاتر... وإذا أزعجه من الزمان الجفا، تكدر منه ما صفا، وتبلّدت الأفكار، وتولّدت الأخطار، وتساوى عند بصرِ البصيرة الليل والنهار...)

ولا عجب فهذا شأن من يتعرض لأهل الحق زوراً وبهتاناً ابتغاء عرضٍ من الدنيا قليل.

ثم يتمنى ابن عربشاه الكفاف لما أراد من كلمات الكتاب فيقول:

(وليتني في هذا وهذا كفافاً، من خيرها وشرها معافى، ولئن ساعد الزمان بترفيه الحال، وخلا من سكان الهموم ربع البال، لأتتبَّعن آثاره ولأسترن بقدر الإمكان عواره)[1].

هذا هو ابن عربشاه وهذه هي اعترافاته بشأن كتاباته، الذي أخذ عنه من بعده كتبة التاريخ وجعلوه موثقاً، وشاهد عدل على سيرة عبد الله تيمور.

وحقيقة: إن المطلع على ذاك الكتاب المسجَّع، الممل بكثرة السجع رغم بلاغته اللغوية، فالقارئ ببحره يفهم غير ما يقرأ، ويقرأ عكس ما يفهم، يحسب الخبر أبيضَ وإذْ به أسود، أو يحسبه أسود وإذ به أبيضَ. حتى أن (**فيشل**) صاحب كتاب التحقيق للقاء ابن خلدون بتيمور يحسب كتاب ابن عربشاه مديحاً وإطراءً لأفعال تيمور، فيقول:

(نشر «جاكوب كوليوس» كتاباً لابن عربشاه في سيرة تيمور المكتوب باللغة العربية، والصورة لا تخلو من تميّز وتعصب لتيمور منظورة بعيني مؤرخ عربي وهكذا...).

وكأن ابن عربشاه يكتب غير ما يسمع، ويقرأ غير ما يكتب، ويفهم غير ما يقرأ، يحسب الخبر مبالغاً ولكنه يرى إن لم يكن صحيحاً فليس يُمتنع، ويُحدَّث فيحسب غير ما يسمع، وإذا اختل سجع بيانه وميزان كلامه دارت به الأرض حول نفسه، حتى لتأخذه الغشية خشية النقض وانتقاص العملة. وتجد طبيعة في النفس مبنية على المكابرة "خالف تعرف" تحذف العقل وتُسقط الخُلق وتمتهن الكرامة، فتجعل هذا الكريم ذليلاً، وهذا الوضيع كريماً، فتثبت وتنفي الثابت في غير طائل ولا منفعة إلا غلبة ثرثرة على

---

[1] عوّار: ترفيه حاله الدنيوي.

ثرثرة. وطبعٌ في الكتابة بارد، يجذب إليه أصولاً ضعيفة في الخيال والفكر، فلا يرتفع ارتفاعاً سامياً، وإنما يُسِفُّ ويخبط.

وعقل لا كالعقول، ونسأل الله السلامة.



هل تدري أن ابن عربشاه يصف كتابه وكأنه وصف لكلمات القرآن الكريم؟!. "حاشا لله"!.

فكلمات كتابه كما وصف:

(جاءت ظريفة المعاني كاملتها، لطيفة المباني فاضلتها، حوت رقة الجزل ودقَّته، ورياقة الغزل ورفعته، ولطافة الأدباء، وظرافة الشعراء، وفصاحة البلغاء، وبلاغة الفصحاء، وحقائق الحكماء، ودقائق العلماء، مع الأمثال الفائقة، والاستشهادات اللائقة، والاستطرادات الرائقة، والتشبيهات الغريبة، والاستعارات العجيبة، ونوافث السحرة من علماء البيان، ونوادر المهرة من أرباب الديوان.

مُزج جليلُ التحمس فيها برقيق الغزل، ونسجت جديد الجد بمعتنق التهزل، وطرَّزت خلع ذلك كله بأعلام الآيات الشريفة، ونقوش الأحاديث الشريفة المنيفة.

فمن أراد التنزه في التواريخ فعليه بمداومة تكرارها، ومن قصد التفكُّه في رياض الإنشاء فليقتطف بهى أزهارها، ومن سلك طرائق الأدب فليَجْنِ من حدائقها جنى ثمارها، ومن رام التسلُّق إلى ذروة العلوم، فليتشبث بأذيال أستارها، ومن طلب الاعتبار بتقلُّبات الزمان فليتأمل حقائق أخبارها، ومن اعتنى بسياسة الملك فليتدبَّر دقائق أسرارها، مع أني لم أوفها حقها في التهذيب، ولم تنل استحقاقها في حسن الترتيب والتشذيب).

هذا و لم يعد يخفى على الأفهام الذكية، هذا الوصف الذي جاء به ابن عربشاه لكتابه عجائب المقدور في نوائب تيمور وما فيه من زيغ وانحراف.

وكفى بحديث رسول الله ﷺ يبين حقيقة هذا الكاتب:

«**مادح نفسه إبليس**». وقانا الله وإياكم من داء العظمة، إذ يغدو صاحبها كالجمل جثة كبيرة خلو من التفكير.

﴿الأَعْرَابُ[1] أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا . . ﴾[2].

وأجدر ألا يعلموا حقائق الأتقياء الأخفياء.

* * *

[1] يقصد بالأعراب: أهل البلاغة والفصاحة والبيان.
[2] سورة التوبة: الآية (٩٧).

أين المنطق والواقع عند بعض المؤرخين العرب؟!.

ظن الأكثرية من الناقلين لكتاب ابن عربشاه أنهم بذلك يرفعون اسم العرب، فتوهموا وقالوا خلاف ما رأوا، فيذكرون: أنه ليس بقلعة دمشق من المقاتلة أيام حصار جيوش تيمور إلا نفر يسير دون الأربعين نفراً.

ولم يستطع أهل القلعة الاستمرار بالمقاومة أكثر من ثلاثة وأربعين يوماً لنفاد مؤونتهم، ويئسوا من النجدة وطلبوا الأمان. وكانت البطولة التي فاجأت تيمور ذلك البطل الدمشقي شهاب الدين أحمد زردكاش الذي قتل من جنود تيمور عدداً كبيراً.

وكان في حدود التسعين من عمره وقد احدودب...

وهذه من الأمور التي توضح لنا في سياق هذه الأحداث هو تجاهل المؤرخين المحليين للمنطق والواقع في رواياتهم للأحداث التاريخية العسكرية منها بوجه خاص، فالقوات التيمورية التي اكتسحت آسيا وأوربا الصغرى، هل حقاً يقف بوجهها مثل هذا العدد ودون مدد؟!.

هذا وتعدادها عند حلب سبعين ألفاً، لكن ابن الشحنة قاضي حلب قدرها بثمانمائة ألف وابن خلدون ذلك المؤرخ الذائع الصيت يصل بهذا العدد إلى ألف ألف أي مليون.

ثم يقولون إن حامية حلب وعددها ثلاثة آلاف خرجت من المدينة خارج حماية الأسوار لتنازل مليوناً!.

فإذا كان هذا هو التاريخ من قبل عالم فيلسوف كابن خلدون، وكان حاضراً للأحداث ومعايشاً لها، فما هي إذن قيمة التأريخ من قبل أناس لم يكونوا أصحاب اختصاص ولا شهود عيان للأحداث وقد رَووْا عن قيل وقال، وبعد عقود وقرون من وقوع الحدث؟!.

لذا وبدافع ارتباطنا الوثيق بدمشق الحبيبة، نقدم دراسة علمية موضوعية تعتمد على الحقيقة العلمية دون محاباة ومس للحقائق التاريخية. وبما أن اسم تيمورلنك ارتبط بدمشق خاصةً، وصار اسمه مجالاً للتندُّر

على أهل دمشق من دون جميع مدن الشام بسبب ابن عربشاه وأمثاله، لذا سنضع النقاط على الحروف، ونبين وجه الحقيقة العظيمة لسيرة عبد الله تيمور "تيمورلنك" التي تنفي أساطيرهم وما نسجوا من إفك، وكفى بالله وكيلاً.

* * *

تيمور المؤمن

كان الإسلام يدعو العائلات الإيرانية والتركية، فتسرع إلى تقبله والقيام بشعائره، ويتقدم رويداً رويداً وتكثر أتباعه، ويزداد شأنه، ويتبسَّط سلطانه. وقد زاد في قوته وتبسُّطه ما فيه من إنسانية تشمل كافة بني البشر، وتجعل الإنسان حقّاً أخاً حقيقياً للإنسان، وما في الإسلام من طواعية للتفاهم مع الأمم المختلفة، فلذلك تراه بدوياً في بلاد كيبتشاك، صوفياً في بلاد ما وراء النهر[1]، سياسياً وأدبياً في فارس وما حولها، من بلاد وأمصار. وتلك من جوانب وسعة الإسلام، الذي يتسع لمطالب البشرية كلها، لأنه من خالقهم.

وكان أكثر المذاهب الدينية طواعيَّة وتكيُّفاً مع أهل آسيا بما فيه من تعاليم سمحة، ويسر وسهولة، شعائره وأركانه الخمسة المُلزمة. وبذا تمكن الإسلام من فتح عقول البلاد المغولية والتتارية، فآمن به أمراؤها وحكَّامها وسكَّانها، وما يزال حتى اليوم دين الأكثرية الكبرى فيها.

ففي القرن الثالث عشر مثلاً كان الترك في بلاد ما وراء النهر، وجماعة الكيبتشاك في القوقاز وروسيا، ينظرون أحياناً إلى أنسبائهم هؤلاء كجماعة بواسل حملوا لواء المغول في أوائل الفتوحات المغولية التي اقتحمت العالم. ولكنهم في القرن السادس عشر كانوا برغم ما يعتقدونه من صلة الرحم بينهم، وبرغم ما هناك من لغة جامعة لهم، أخذوا ينظرون إليهم بعين المقت والاحتقار، لأنهم لا إنسانية تجمعهم برفضهم قبول الحق، ولأنهم لا يؤمنون بالله العظيم ورسوله الكريم ﷺ.

ولقد تقبَّل التركُ الإسلام في تركستان وما وراء النهر وبلاد خوارزم كأمر واقع لا بديل عنه. آمنوا بالله ورسوله وتقبَّلوا هذا الدين الرحيم بطيبة خاطر، فكانوا من أكبر المؤيِّدين له، والعاملين على نشره في ما جاورهم من بلاد وجماعات وأمصار.

وقد كان لرجال الدين الترك من السيطرة على العامة في ذلك العهد الأثر البعيد القوي في الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية أيضاً.

---

[1] ما وراء النهر: هو الاسم الذي أطلقه الجغرافيون والمؤرخون العرب على البلاد والمناطق التي تلي }نهر جيحون{ من ناحية إيران الشمالية الشرقية. ويطلق عليها آسية الوسطى وهي تمتد بين بحر قزوين غرباً إلى حدود الصين شرقاً.

لقد ذكرنا أن **(قراجاي)** الجد الرابع لتيمورلنك كان أول من دان بالإسلام ونبذ المجوسية في تلك الديار، فتفرَّع نسبُه في عائلة مسلمة. وكان أبوه **(ترغاي)** شيخاً محبوباً في قبيلة البرلاس التترية، من أسرة **(كركن)** أي: الجيد ذو الملاحة "المليح"[1].

امتاز بالتقوى والقناعة والزهد في متاع الدنيا، لا يشغله إلا التحدث مع رجال الدين وخاصة من حجَّ منهم مكة وزار مقام النبي ﷺ، واجتمع بمؤمنين صادقين نهل من معينهم المحمدي.

شبَّ تيمور رزيناً كالطود، لا يميل إلى المجون، ولا يُعرف عنه الضحك قط، كثير القراءة للقرآن الكريم حفظاً. ماتت أمه وهو صغير، واعتزل أبوه العالم وأقام في صومعة يتعبَّد بها، ولما ودَّع ابنه قال له:

(إني رأيت الدنيا أشبه بكأس ذهبية مملوءة بالعقارب والثعابين، فزهدت فيها، وأنصحك يا بني أن تدعم نفسك بأسس الدين الأربع، الصلاة والصيام والحج والزكاة، واحترم علماء الدين واطلب منهم البركة والنصيحة).

نشأ تيمور متأثراً ببساطة أبيه ونصيحته ونظراته في الحياة، وكان كثيراً ما يُرى في حلقة الجامع يستمع إلى الشيخ، ولما بلغ سن السابعة عشر كان كثير الصمت مغرماً بالوحدة، يترك أصحابه إلى مكان قفر، يسرح النظر في الأفق البعيد ويرسل أفكاره (في خلق الله والتأملات بالآيات الكونية). كما كان يمضي معظم وقته فيما يحفظه من قراءة القرآن الكريم.

تشير ظواهر الأمور وحقائقها كلها إلى أن تيمور كان مسلماً يصلي قائماً، ويصوم ويستعين بالله، ويحث الناس على تطبيق الشريعة، ويقرِّب العلماء والفقهاء، ويعقد المناظرات العلمية والفقهية، كما كان له إمام خاص وقارئ وفقيه ومفتٍ ومؤوِّل، وكانت حاشية تيمور من العلماء والفقهاء، فقد كان الإسلام عند تيمور شيئاً جوهرياً من لوازم الحكم.

يقول في مذكراته:

(أعتبر الخضوع لله العظيم وطاعة رسوله الكريم وتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية واحترام آل البيت أمراً ضرورياً..).

---

[1] ما قيل عن تيمور بيك أنه مغولي سببه أن الفرس ظلوا طويلاً يعدُّون خانية جغتاي عند الجانب البعيد من جيحون من المغول، فضلاً عن استخدام الشعوب الساكنة في تلك الربوع للأبجدية الإيغورية.

وجاء في إحدى نسخ المذكرات أن هدف تيمور بيك:

(تقوية الدين والملَّة المحمدية، وترويج المذهب الحق دون مبالغة والقضاء على المذاهب الباطلة).

وكان إذا واجهته صعوبة أوكل أمره إلى الله، وإذا مرض دعا الله، وكان يحمل معه نسخة من القرآن الكريم للتبرك به وقراءته، وكان يتلو الآيات الكريمة قبل أن يباشر القتال. وكان لا يشاهَد إلا والسبحة في يده.

ولا يفتأ في مجلسه يكثر من ذكر الله والاستغفار، وقد وصفه مؤرخه (يزدي) بأنه:

عميق الإيمان، حريص على أداء واجباته الدينية، يقوم قيام الليل، ويحضر صلاة العيد ويدفع الزكاة.

وكان أول ما فعله يوم دخل دمشق أن صلى في الجامع الأموي، وطاف على أضرحة أمهاتنا زوجات رسول الله ﷺ وأضرحة الصحابة الكرام.

ولعلّك تسأل: هل كان سنّياً أم شيعياً؟!. تلك المسألة حيّرت أفها المؤرخين واختلفوا.

لقد كان يحيط (آل البيت) بهالة من الاحترام متميزة، ولذا جزم عدد من مؤرخيه أمثال: «**سمرقندي، وميرخوند**» بأنه كان شيعياً.

وقد أخمد ثورة شيعية مغاليةً في سبراوز سنة /٧٨٥/هـــ، وألزم أهلها قصاصهم العادل، ولا شك أن هناك طوائف مغالية عند السنّة وعند الشيعة وهي عندهم مرفوضة.

وفي قزوين[١] قاتل إحدى الجماعات الشيعية المغالية المتطرِّفة، وقتل زعماءها، وطلب إلى من بقي نبذ عقائدهم والعودة إلى الحق. وكانت هذه الفئة تسمى((**الحروفية**))، تزعم أن الحروف عين الآدميين، وكان جُلُّ جنده من الشيعة الخراسانية، وقد غزا بهم دمشق وحلب وحماة للتأديب والردع للعودة بهم لجادة الهدى والصواب.

وكذلك كان يظهر عند مراسلاته السلطان العثماني.

وكان قاضيه الذي يرافقه دائماً (**عبد الجبار**) سنيّاً.

---

[١] قزوين: مدينة تقع في إيران اليوم واسمها بحر قزوين تقع بين إيران وروسيا.

وكما أورد (ابن عربشاه) أن تيمور اجتمع بمحمد السربدار وطلب إليه أن يدلَّه على الطريقة، ويعبر به من المجاز إلى الحقيقة، فدله هذا على (**علي بن المؤيد الطوسي**) الذي أصبح من أقرب الناس إلى تيمور، وكان شيعياً يضرب السكة باسم الأئمة، ويخطب بأسمائهم، وأصبح صاحب الكلمة النافذة في بلاد تيمور. إذن كان تيمورلنك إنسانياً مؤمناً، لا يعبأ بصغائر وسفاسف الأمور التي تفرق بين المؤمنين، وتزرع الاختلاف في التوافه.

كما أنه سمَّى أحد أولاده (**عمر شيخ**)، وسمى حفيديه من ابنه ميران شاه بـــ: (**أبي بكر**، **عمر**).

كذلك سيدنا علي عليه السلام سمَّى ولدْين من أبنائهبـــ:(أبي بكر وعمر)، وعندما كان على فراش الموت أمر أولاده بالعمل على نشر الحق ومحاربة المذاهب الفاسدة.

وعندما جاء إلى الشام نصر المذهب الحنفي على الشافعي حسب رغبات الأكثرية وفضل عدم الاختلاف. وأسند لقاضي القضاء الحنفي خمس وظائف، وجعله فوق الجميع.

وبنى قبَّتينِ على قبريْ زوجتَيْ رسول الله ﷺ (**أم حبيبة، وأم سلمة**) رضي الله عنهما في دمشق، وكذا على ضريح أمِّنا (**حفظة**)[1] رضي الله عنها.

ويقول «الغزي»:

(إن الناس في أمره مختلفون، فمنهم من يرى أنه مصلح لم يقصد من غاراته على المسلمين إلا ردعهم وردع حكامهم عن الفساد الذي يهدّ عضد الإسلام، كي يكفوا عن مظالمهم التي كانوا يعاملون بها رعاياهم، ويرعوون عن قتل بعضهم البعض...

وقد جمعتني باخرة كنت أركبها إلى غزة ببعض علماء الأتراك القاطنين في بخارى، قالوا لي: إن عدداً من علماء تركستان وخواصَّهم يعدُّون إيقاع تيمورلنك بالبلاد الإسلامية جهاداً إصلاحيّاً مقدساً، ويعتقدون فيه الولاية والكرامة، ويترضَّوْن عليه كما يترضون على أنبياء الله وأصفيائه...)[2].

---

[1] حفظة: كشفت الآثار عن الأصل الخطي الصحيح عن أن اسم زوجة رسول الله ﷺ بنت عمر بن الخطاب هو (حفظة)، وليس ما زوَّره الداسُّون على اسمها بأنه (حفصه).. وهذا الاسم موجود على الشاهدة المترامية في القدم والموجودة لدينا في دمشق.
[2] نهر الذهب ٣/ ٢٠٧،٢٠٦.

والحقيقة أن تيمور كان قائماً بأمر الله، يهتدي بكلامه، يرد كل أمر لا يتوافق مع كلامه تعالى، ويقيم حدوده، ويستقيم للمسلمين ما استقاموا.

وإن ظهر منهم الخروج عن الاستقامة، ظهر لهم بالتأديب الرادع الصارم.

يقتدي برسول الله ﷺ بأفعاله وبالصحب الكرام، ويرفض ذلك الاختلاف القائم بين المسلمين أياً كان سببه وكان لا يتغاضى أبداً عن حدٍ من حدود الله، مطبقاً بذلك القرآن الكريم نهج رسول الله ﷺ ومدرسة السابقين من الصحب الكرام، فالأعمال الطيبة تدخل المؤمن الجنّة لا الطريقة.

ويُجْمل لنا صفته الدينية ما ذمه سيدنا علي رضي الله عنه من اختلاف العلماء وأهل الرأي، ويشير أن الحكم بكل أمر من أمور الدين للقرآن، لذا نورد قول سيدنا علي رضي الله عنه عن هؤلاء المختلفين:

(إلههم واحد، ونبيهم واحد، وكتابهم واحد، أفأمرهم الله سبحانه بالاختلاف فأطاعوه، أم نهاهم عنه فعصوه؟!. أم أنزل ديناً ناقصاً واستعان بهم على إتمامه؟!. أم كانوا شركاء له فلهم أن يقولوا، وعليه أن يرضى!. أم أنزل الله سبحانه ديناً تاماً فقصَّر الرسول عن تبليغه وأدائه؟!. والله سبحانه يقول:

﴿ . . ما فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ . . ﴾[1]، ﴿ . . وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ . . ﴾[2]، **وذكر أن الكتاب يصدِّق بعضه بعضاً، وأنه لا اختلاف فيه كما قال سبحانه:**

﴿ . . وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا ﴾[3]، **إن القرآن ظاهره أنيق، وباطنه عميق، لا تفنى عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، ولا تكشف الظلمات إلا به).**

إذن: تيمور رضي الله عنه، عَقَلَ حقائق القرآن، وفَقِه ما فيها من سمو ورفعة، فاتقى الله حق تقاته، فعلَّمه الله تأويل كتابه، وفقَّهه في معانيه. وبهذا سار بسياسة إصلاحية حكيمة قوية، تفي بالغرض، ليصل إلى الهدف الأسمى المنشود، ويمسك زمام الأمم ووحدها بقبضة من حديد، فقضى على كل فرقةٍ وانقسام بين المسلمين، في فترة هي من أشد الفترات التاريخية ضعفاً، وأكثرها تعقيداً وامتحاناً، لما حملته من

---

[1] سورة الأنعام: الآية (٣٨).
[2] سورة النحل: الآية (٨٩).
[3] سورة النساء: الآية (٨٢).

اختلاف الألوان والوجوه في الأمة وقلقلة القلوب وعدم ثبات العقول، وغموم الآفاق وتنكُّر الحجّة، حتى طمع الأجانب بهم، وبدأوا يغزوهم في السواحل، وفي عقر دارهم، بعهد **(برقوق وابنه)** ملكي مصر الضعيفين. فالحكمة بالدعوة إلى دين الله تقتضي أن يسلك تلك السياسة التي سلكها رسول الله ﷺ مع أصحابه، إذ بقي معهم ثلاث عشرة سنة يشرّبهم الإيمان والكمال، و لم يعجل بالقرآن، فلم يفرض عليهم الأحكام والقوانين مباشرة، حتى إذا ما صلب عودهم بالإيمان، وتشربت قلوبهم التجلي القدسي، أخذوا ما آتاهم الله من الكتاب والأحكام بقوة.

وكذا استوعب تيمور بيك كافة الأطراف الأممية والعصبية والمستويات الإيمانية من مستمع أو محب أو عالم أو متعلم أو مؤلّف قلبه، ولو اختلفت الصيغة المذهبية والطرائقية، فالمهم جمع كلمة المسلمين المتفرقين المتنازعين، تحت راية واحدة للإسلام، ودستور إلهي واحد **(القرآن الكريم)**، فكان له ذلك. إلا مؤرخين من أمة العرب أتوا بعده، اعتزوا بمالها من قصب السبق ببناء صرح الإسلام في ماضيها المجيد، واستكبروا عليه، واستنكرت أفعاله الإصلاحية، وبالغوا في أذى سمعته دجلاً وتفريقاً بين المسلمين، نقلوا دون تفكير، شعروا أم لم يشعروا.

ولما حملت وظيفته طابع المؤدب والمربِّي، فكان جلُّ توجُّهه للشيوخ الصادقين، وكثيراً ما يقول:

(جميع ما نلته من السلطة إنما كان بدعوة الشيخ «الفاخوري» وهمة الشيخ «زين الدين الخوافي»، وما لقيت بركة إلا «بالسيد بركة»).

وهكذا حملت إمبراطوريته سلطة توجيهية من العلماء الأفاضل حقّاً، كان لها الأثر الأكبر في انتشار الإسلام الحق في تلك الربوع، وسلطة تنفيذية قوية بقيادته لتركيز دعائم الحق وإرساء قواعدها في العالَم الإسلامي، ولو أدى ذلك إلى قتل مسلمين ممكور بهم من قبل أعداء الإسلام للتفرقة، فمصيرهم إلى الجنة، وعلى نيَّتهم يجزون، خير من أن يهرق دم المسلمين الأبرياء بسببهم.

ويذكر قول تيمور:

(معاشر الشهداء، لا تنسونا من الشفاعة يوم القيامة، لأننا كنا السبيل في استشهادكم، ودخولكم الجنة).

وقد قال رسول الله ﷺ: «**أن الله عز وجل ليضحك من الرجلين قتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة**»[1].

على كلٍّ كانت نهضة إسلامية متميزة، وبذا يقول «**الساداتي**»:

(**إن أعمال السلطان تيمور بيك الحربية لم تَحلْ دون مواصلة الحضارة الإسلامية مهمتها التاريخية في آسيا (بل دعمتها)، فقد قامت دولة سلاطين المغول المسلمين في الهند على يد أحفاد تيمور، وسعى حكام هذه الدولة إلى نشر الإسلام والحضارة الإسلامية على نطاق واسع، لم يسبق له مثيل في العصور الإسلامية. وظلت سلالتهم حاكمة حتى سنة /١٨٦٤م/**).

ملاحظة:

أما ما قيل عن تيمور بيك أنه يقدم الياسا الجنكيز خانيه على الشريعة الإسلامية فذلك محض تلفيق ودجل، إنما كان يستخدم منها الأمور العسكرية التي تناسب الأحوال السائدة بين شعوبه، والتي اعتادوها ومرسوا على الانتصار بتطبيقها، ولا علاقة لها بدين.

سؤال يتوجه للناقد:

إن تسلمت منصب قيادة للجيش، ولك الحرية المطلقة في تشكيلاته، هل تقلد رسول الله ﷺ تقليداً أعمى، وتُخضع التشكيلات وفقاً لنظام القبيلة والعشائرية، كما كان العهد في زمن رسول الله ﷺ، في زمن لا قبائل فيه ولا عشائر، أم أنك تخضعها للقوانين العسكرية السائدة؟!.

بالطبع إنك ستتصرف بحسب المناسب للزمان والمكان، كما كان خالد بن الوليد يتصرَّف، وذلك شرع الله تعالى وأمر رسول الله ﷺ.

[1] مسند الإمام أحمد، المجلد الثاني.


عبد الله تيمور المسلم بشبابه


جنكيز خان الصابئ

للمقارنة:

تكشف هذه الصورة تبيان الفرق (حتى بالصورة) بين «**تيمورلنك المسلم**» و «**جنكيز خان الصابئ**»، فالفرق شاسع والبون بعيد.

«رؤيـــا»
السيف الذي أضاء العالم

كان شيخ سمرقند «ترغاي» والد تيمورلنك، السيد الورع المنقطع للصلاة والعبادة، الزاهد في الدنيا عن مقدرة، قد رأى في نومه ذات ليلة:

(**أن عربيّاً مهيباً أعطاه سيفاً، فلما لوَّح به في الهواء، أضاء الدنيا بأسرها**).

فذهب الشيخ عند صلاة الفجر إلى أحد أولياء الله وقص عليه رؤياه، فأنبأه:

بأن الله سيهبه غلاماً زكياً له مضاء السيف، وأنه سيبهر العالم كله، ويفتح القلوب للإسلام، وينقذ العالم من الهمجية والضلال.

وقد تحقق كل هذا.

وكان رجال الدين الذين يحيطون به من الطراز الأول ونخبة العلماء الورعين، فهل يغلب عليهم جميعاً النفاق كما اتُّهموا، حتى جعلوا يقدِّسون السلطان تيمور (تيمورلنك) ويعتقدون فيه الكرامة والنبوة؟!.

وكيف انطلى ذلك على سكان الهند وتركستان، الذين يترضُّون ويصلّون عليه، كما يُصلَّى على الأنبياء حتى بعد انتقاله بقرون عدّة؟!.

إذن: لا بدَّ من سرٍّ أغفله التاريخ المشوَّه، وكما اعتقد اليهود التعساء بسيدنا عيسى عليه السلام، أنه المسيح الدجال (أستغفر الله)، كان اعتقاد الكثير من العرب المسلمين بتيمورلنك رضي الله عنه.

* * *

تيمور الفاتح العظيم
أعظم القادة العسكريين

(**هنا المكان الذي استراح فيه العاهل العظيم والسلطان الأكبر والجندي القوي المهيب... السيد عبد الله تيمور قاهر العالم**).

هذا ما كتب على قبره في مدينة سمرقند عروس العواصم في القرن الرابع عشر.

لم يكن من أبناء الملوك، ولا كان له عرش فأقام عرشاً، وأنشأ ملكاً ضخماً، كان بعيداً في الصحراء وفي أقصى الأرض، فكوَّن بمفرده إمبراطورية تشبه الإمبراطورية الرومانية في عزها ومنعتها، فما أراد أمراً، ولا مشى إلى غرض، إلا استقام له فيه ما يحاوله من نجاح وفلاح.

ومن الحق أن نذكر أن معلومات السَّلف عنه كانت قليلة سقيمة، وأن أحداً لم يوفق إلى البحث في تاريخه وشخصه، ولا بما تستحقه هذه الشخصية المثالية من وصف دقيق صادق.

«**الإسكندر**» كان ابناً «**لفيليب الثاني**»، ووارثاً لجيش قوي، وقد اكتسح فاتحاً بجيشه القوي، دون توقف، جميع المناطق المفتوحة قبلاً من قبل الإمبراطورية (**الأخمينية**)، وهي الإمبراطورية التي قامت على أنقاضها فتوحاته وإمبراطوريته، وذلك بفضل جيشه القوي كما ذكرنا لا بشخصيته، أما تيمور، فلم يكن ابناً لملك «**كالإسكندر الكبير**»، ولا كان ابن زعيم قبيلة كبيرة «**كجنكيز خان**»، وقد كان لدى الأول قومه من اليونان والإغريق، وكان لدى الثاني قبائل المغول وقادهم المستشارون، أما تيمور فقد كان وحده، لا تمتد زعامته إلى جماعته، ولا يضطرب سيفه في قبيلة من القبائل، فراح لوحده يربي قوماً، ويؤسس مملكة، ويمكِّن لنفسه في الأرض، بما لا يحلم به الملوك الفاتحون، ويتمكن من الغلبة على نصف الأرض المعروفة في عهده، بجهده وفضله وصبره، واعتماده على ربِّه، وما تُذكر مملكة تيمور بيك إلا باسمه، ولا يعرف من أمرها إلا أنه صانعها، وذلك ما لا تدَّعيه الضراغم.

من أتى بعده لم يوفق على شق غباره، «**نابليون**» الذي لمع نجمه فترة من الزمن، وكان فاشلاً في حملة روسيا، وكان مصيره النفي إلى جزيرة (**كورسيكا**) ثم (**هيلانه**)، أسيراً بعد معركة (**واترلو**)، ومن ثم الموت بعد الانكسار والفشل.

«**وغليوم الثاني**» إمبراطور ألمانيا، ذو اليد الحديدية، تنحى عن عرشه، ولجأ إلى بلدة أجنبية فآوته إلى أن ضمه القبر، «**وهتلر**» الذي اكتسح أوربا ونشر الرعب في العالَم، توالت عليه الخطوب حتى انكسر ثم انتحر.

وهذا «**بسمارك**»، لم يوفق إلا في التنظيم السياسي لمملكة واحدة، وقد أوقف عجلة الحرب وأغمض عينيه في التوسع، اكتفاءً بألمانيا التي جعلها دولة الحديد والنار، فانهزمت بالحربيْن العالميتين.

أما تيمور، فقد أنشأ الممالك، وعرف الانتصار في كل ما أقدم عليه من عمل، فجمع الجيش ووحَّد الشعب، وبسط نفوذه على آسيا وروسيا وأوربا، وهزم جيوش العالم قاطبةً.

تحمي الممالكُ ربهـــا أما تيمـــور فحمى الممالـــكَ وهي لم تحميـــه

فكانت حياته سلسلة انتصارات متعاقبة، زلزلت العروش وهوت بالتيجان، ومهد سبيل الهيمنة المطلقة على نصف العالم المعروف في عصره، ومات وهو في أوج عزه ومنعة سلطانه. وكان أعظم حاكم في القرن الرابع عشر، وأعظم القادة في جميع تلك العصور، حتى أن الأوربيين في عهده نظروا إليه نظرة غريبة خاصة، إذ كان يظهر لهم شخصاً فوق الطبيعة ولما اقترب من بلادهم، أسرع ملوكهم يطلبون ودَّه، خوفاً من سطوته وطمعاً في عدله، ويرسلون إليه الرسل والكتب بعنوان:

(تمرلان العظيم عاهل التتار).

فكان «**شارل السادس**» ملك فرنسا يصفه بأنه أعظم الغزاة وأصلح الأمراء، ويبعث بتقديره وإعجابه إليه، «**وهنري الرابع**» ملك إنكلترا الذي كان يحارب زعماء الجرمان بعيداً عن عاصمة ملكه، كتب إلى تيمور يهنئه بانتصاراته، وأما إمبراطور القسطنطينية، فقد طلب مساعدته، وفعل مثل ذلك كثير من الأمراء والقادة، وكل ذلك يقوم دليلاً على عظمة تيمور ومهابته العظمى في ذلك العهد، وما أثارته فتوحاته الهائلة من الخوف والإجلال والإكبار. كتب عنه «**سير برسي سايكس**» يقول:

(**لم يسبق لفاتح آسيوي في التاريخ كله أن أعد مثل هذه الجيوش الهائلة، ومن ثم لا يصل لمدارج شهرته وتفوقه أحد**... **وإن فعاله لترتفع إلى ما فوق مستوى البشر**).

"**والدون هنري**" ملك كستيل في أسبانيا، كان يخشاه، لذا أرسل نبيلاً من رجاله إلى تيمور، فلحق الرسول بتيمور حتى وصل إلى سمرقند عاصمته، وراح يكتب مشاهداته، وكيف أن الأرض في آسيا كلها قد دانت له، وكيف أن الملوك والأمراء والعظماء يقفون في بابه، ومندوبي الدول من كل صقع وبلد يزدحمون للتشرف بطلعته، وكيف أنه كان يعاملهم جميعاً معاملة رقيقة، لا فرق في ذلك عنده بين كبيرهم وصغيرهم، (**لأن السمك الصغير له حق في الحياة في هذا البحر الخضم الذي يسيطر عليه ويحكم فيه**).

أما تيمورلنك نفسه فكان يوقع خطاباته بقوله:

(**أنا عبد الله تيمور**) بلا ألقاب تفخيمية، فقد أنشأ إمبراطورية عظمى من تفكيره وتدبيره وحده، ولم يخض معركة إلا وكسبها، ولم يقدم على أمر إلا كان النجاح حليفُه، فهو لم يعرف الهزيمة قط، ومع ذلك كان بهذا التواضع الجمّ، والأخلاق النبيلة بالحلم العجيب، والصفات الكاملة الإنسانية الرحيمة، كما سَيَمُرُّ معنا في طيَّات هذا السفْر، لاسيما مع الأمير حسين وسواه من سلاطين المسلمين والتتار آنذاك.



إمبراطورية تيمور لنك من زيستان إلى البحر المتوسط ومن دلهي حتى موسكو

العبقرية العسكرية والبصيرة القتالية

تلك التي تميز بها (**تيمورلنك**)، فلم تكن ظاهرة لأحد بالعصور من قبل ولا من بعد، وإن كان باستطاعتنا أن نُقيِّم إنجازات تيمور الجبارة ونمعن التفكير فيها، ونظل رغم ذلك نبحث عن السر في نجاحه.

إن لم ندرك أن هذا السر هو إيمانه العظيم بالله وثقته به، ومشاهدته لليلة القدر برمضان، سندرك ذلك خلال سيرته العظيمة المشرفة، رغم أن المسافة العظيمة بيننا زماناً ومكاناً، تكاد تكون حجاباً عن الكثير من جوانب عظَمته، ولكن جذوة الشمس لا تنطفئ، ولا بد أن تظهر مشرقة نيّرة، رغم ضبابيَّات الدهر.

فقد تمتع تيمور بجلد وطاقة احتمال، وحيوية دافقة لا تقف عند حد، صبوراً متأنياً على إخوانه المسلمين، مندفعاً عنيفاً لاجتثاث الشر وأهله. وسنرى ذلك في سيرته ساطعاً دون تورية، حتى عند أعدائه الألدَّاء.

يأخذ على نفسه جميع المسؤوليات، وكان من عادته أن يتواجد بنفسه على مسرح الأحداث، تموت قوة الجيش عند غيابه، وتفقد فعاليتها، لذا كان يتحرك بقوة دائماً، والجيش كله في قبضة يده، بمهارة خارقة في التنظيم، وفي تحريك الجيوش، كصاعقة لا تبقي ولا تذر، ولا يقف بوجهها جنٌ ولا بشر.

يخطط لكل حملة من جميع جوانبها، دون أن يُطْلع على ذلك أحداً، ثقته في ذلك إيمانه العظيم بالله، حريصاً مدققاً في إعداداته، استراتيجياً بلغ حد الكمال، يواجه الصعوبات ويتغلب عليها، فينطلق عدْواً على جواده في طليعة جيشه للدخول إلى مدينة، ويصعد وحده متسلقاً جداراً وسوراً، يتحرك رأساً لإبادة رأس الجيش وقائده، والرهبة والكتمان يحيطان بتحركاته. فيوفر الدماء بقتل رؤوس الفتنة، وينهي المسألة.

لم يكن يستخدم الغدر في معاركه، بل يمكِّن خصمه من حشد قواته، ثم يتقدم إلى لقائه لخوض المعركة، وتكون الفيصلة، وتنقطع الآمال بالأغيار، لتجديد العزم ولمِّ الشمل وقيام الفتنة. كان وحده أمّةً، قائماً للحق وأهله.

وكان النصر دوماً حليفه، يتحرك جاهزاً لمواجهة كافة الاحتمالات، ويعتمد على كفاءته، باعتماده على منبع الخير، الموفق للخير، جلَّ وعلا، كما صرَّح بذلك للإمام محمود الخوارزمي أثناء مرضٍ ألَّم به في إحدى معاركه الظافرة، معتمداً على ربه وحده، لعمل الشيء الصحيح، لتحطيم قوى العدو الظالم، و لم يكن يبدو أن هناك ما يربكه.

كل ذلك يقوم دليلاً على إيمانه العظيم بالله، ويعلمنا كيف نمت وتطورت شجاعته الرهيبة، وخططه المهيبة، وكيف أسس وبنى عسكريته الرائعة، فكان أعظم قائد ميدان، وفاتح بلدان.

لذا أعطاه الأوربيون لقب (**ماستر**)، وكانوا يعنون بها السيد، أي المعلم الأعظم في "التكتيكات" العسكرية. وليس في التاريخ المعروف عند الغرب شخص آخر يستحق أن يُمنح هذا اللقب مثله إذ ذاك، وهو أعلى وصف يمكن أن يُعطى لقائد عسكري برأيهم عندئذ، فهو سيدهم. ويقول شرف الدين المؤرخ الذي عاش في بلاطه:

(شجاعته رفعته ليكون إمبراطوراً، وأخضعت كل آسيا لسلطته، من حدود الصين حتى حدود اليونان... كان يدير الأمور بنفسه دون استعانة بوزير، وقد نجح في جميع مشاريعه. كان لطيفاً كريماً مع الجميع، باستثناء أولئك الذين كانوا لا يطيعونه لخبثهم وسوء طويَّتهم، والذين عاقبهم بأعمالهم بصرامة. كان محباً للعدل، ولا يسْــــلم ظالمٌ في ملكه من القصاص الصارم وليقولوا ما شاؤوا.

كان يقدِّر العلم والعلماء الصادقين المخلصين في الدين الحنيف. وكان عظيم الجرأة في تخطيطه وفي تنفيذ خططه، لطيفاً مع الذين يعملون في خدمته).

هذا (**تيمورلنك**) الذي يسير على تعبئة كاملة واستعداد لكافة الطوارئ والمفاجآت، الذي استطاع برجالٍ لم يكونوا من المتفوقين أو ذوي المقدرة، أن يثبِّت دعائم الحق، ويخمد بهم فتناً ليس لها نهاية يفقدون قوتهم في غيابه، ولا أدل على ذلك: توقُّف الفتوحات لإمبراطوريته بنهاية حياته، لكنه هذّب وشذَّب نفوس المسلمين لمراحل نصرٍ خارقة لأربعة قرون بعدها. لم يقاتل لمجده الشخصي ولا لإمبراطورية دنيوية، بل لصالح الإسلام عموماً. أجل ذهبت الإمبراطورية، واستمرَّ نتاج إصلاحاته لقرون، كما استمر أحفاده من بعده بسعي دؤوب، لمضاهاة فتوحات جدِّهم. فكيف تحقق له النصر برجال ليسوا أكفياء إن لم يكن تأييد الله المطلق له.

﴿ ..وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ.. ﴾[2]. والله عصمه من الناس، وليشْتم ابن عربشاه من شاء، فلا يؤثّر جحر الضبِّ في الجبل، وهذه حقيقته كما علمنا.

وأخيراً:

كانت دولة تيمور في إقبالٍ وترقٍّ وتزايد، كلما قصد بلداً فتحه، وما قاتل عدواً إلا غلبه، وكل من خالفه صار مقهوراً، ولم يُغلب في معركةٍ من المعارك مدة ست وثلاثين سنة، وقد حطّ رحاله في أكثر بقاع العالم، وخضعت له: بلاد ما وراء النهر وتركستان[3] وخوارزم[4] وخراسان[5] وبدخشان[6] وسيستان[7] وهندستان[8] والعراقين وفارس وكرمان[9] ومازندران[10] وأذربيجان[11] وديار بكر[12] وخوزستان[13] وكيج ومكران[14] وكيلان[15] وشيروان[16] وأرّان وكردستان[17] وكرجستان والروم والشام. وفتح كثيراً من القلاع والحصون، وقهر ملوك تلك الممالك، وفوّض الحكومة والسلطنة إلى أولاده وأحفاده، وأمرائه الصالحين المصلحين.

---

[1] سورة الروم: الآية (٤٧).
[2] سورة الزمر: الآية (٣٦).
[3] تركستان: هي إقليم يقع في الشمال الغربي للصين ذو أغلبية إسلامية. والاسم ينقسم إلى كلمتين "ترك" و "ستان" ومعناها أرض الترك. تبلغ مساحتها حوالي ١.٨ مليون كم.
[4] خوارزْم: هو الاسم القديم لمدينة (خيوة) التي كانت تابعة لإقليم خراسان وتقع اليوم في أوزبكستان.
[5] خراسان: إقليم في شرق إيران.
[6] بدخشان: ولاية من الولايات الـ٣٤ ولاية في أفغانستان تقع في الشمال الشرقي من أفغانستان.
[7] سيستان: تقع جنوبي شرق إيران على الحدود مع باكستان وأفغانستان.
[8] هندستان: تقع سهول هندستان في شمال الهند ويجري بها نهرا الكانج و السند.
[9] كرمان: هي إحدى محافظات إيران الثلاثين. تقع في جنوب شرقي إيران.
[10] مازندران: تقع مازندران ناحية المرتفعات الواقعة في امتداد جنوبي بحر الخزر، وفي القديم كانت كلمة مازندران تطلق على الجهة الشمالية لإيران على امتداد بحر الخزر، وهي اليوم إحدى محافظات إيران.
[11] أذربيجان: هي دولة في وسط آسيا، وهي تقع في الجزء الشرقي لمنطقة ما وراء جبال القوقاز.
[12] ديار بكر: هي مدينة كبيرة في جنوب شرق تركيا تقع على حواف نهر دجلة.
[13] خوزستان: إحدى محافظات إيران ومركزها مدينة الأهواز.
[14] بلاد مكران: تمتد في جنوب شرق إيران وغرب باكستان، وتطل على بحر العرب.
[15] كيلان: تقع على بحر قزوين جنوب أردبيل.
[16] شيروان: بلدة من نواحي أرمينية..
[17] كردستان: تعني أرض الكرد، وهي المنطقة الجغرافية التي يقيم فيها الأكراد في الشرق الأوسط. المنطقة موزعة على خمس دول هي: العراق، إيران، سوريا، و تركيا و أجزاء من دول الاتحاد السوفيتي السابق.



السلطان تيمور بك العظيم

«من مـــذكرات تيمور»

لـيـلـة الـقـدر

(إن اسمي تيمور بن ترغاي أمير شهرِيْ سيبز[1]، أملك مطلق الحق في أن أدعو نفسي أمير سمرقند وحامي العقيدة وملِك العالم لأنني سرت على الصراط المستقيم، صراط شجرة الحياة[2]. لقد اكتشفت ذلك الصراط الذي توجب عليَّ أن أسلك فوقه في آخر يوم من شهر الصوم، شهر رمضان[3]، عندما كنت في التاسعة عشر من عمري).

* * *

[1] شهري سبيز: إحدى مدن ما وراء النهر، بناؤها طين وخشب، وهي مدينة خصيبة جداً تدركُ الفواكه فيها أسرع مما تدرك في سائر ما وراء النهر. ويطلق عليها (كِش)، وتقع على أطراف حوض نهر (كشقداريا).
[2] شجرة الحياة: المصطفى ﷺ.
[3] اكتشافه ليلة القدر فغدا بصيراً عليماً مصلحاً أبداً.

الطريق إلى القيادة

في فيء الجامع، جلس تيمور مع أبيه وما يزيد الجمع على عشرة رجال، من سكان شهرِيْ سبز إلى الإمام «**زين الدين**»، الذي كان يقرأ عليهم بعض سور القرآن ويشرح معانيها. وكانت علامات الرضى والارتياح تظهر على وجه أبيه، حيث يراه منصتاً إلى كلام الإمام، بشغف واهتمام، وكان على ثقة وطيدة أن ابنه تيمور، سيصبح من رجال الدين أيضاً، وخصوصاً بعد أن أصبح يقرأ القرآن بنفسه بما حفظه، بشغف وشوق واهتمام. وقد كان الفارس «**إيلشي**»، الذي يتولى قيادة الحامية الصغيرة المعسكرة بالقرب من النهر، هو الذي يتولى أمر تدريب تيمور، الذي أبدى تقدُّماً عظيماً، ومهارة فائقة في ركوب الخيل واستخدام الأسلحة، حتى أن الفرسان والمحاربين الشبان أصبحوا يخفون حسدهم وغيرتهم من قوته الخارقة، ومهارته الفائقة، وراء ستار مصطنع من عدم المبالاة، كونه الرجل الوحيد من الطائفة العسكرية في شهري سبز، الذي لم يَدْعُه القائد المِلك «**كورغان**»، ملك الملوك للخدمة، ولأنه لم ينضم إلى معسكر عمه برلاس (معسكر القبيلة) الذي يقوم في ما وراء الوادي.

ولكن الفنون والبراعة التي ظهرت منه في ركوب الخيل، ودقة الرمي في القنص والصيد، جعلتهم في دهشة وحيرة، وأعجب من ذلك كله أنه كان ينصرف إلى هذه التدريبات مع الفتيان في أول عمره، وهو دائم الإطراق، كثير التفكير قليل الضحك.

كان ينقص البرلاس زعيم يقوم بشأنهم، فإن ترغاي كبيرهم " والد تيمور" كان رجلاً ليناً هادئاً شجاعاً يحب الحرب ولكنه لا يرغب في سفك الدماء، فراح ينصرف إلى الفقهاء ورجال الدين، يحادثهم ويحاورهم ويستمع إلى القرآن معهم، ثم قويت هذه الرغبة الدينية في نفسه، فذهب إلى صومعة ينصرف فيها إلى العبادة، ويقضي فيها نهاره، يصلي ويقرأ القرآن، وكان لا يفتأ يحدِّث ابنه عن الله العظيم، والإسلام القويم، يُذكر أنه قال لابنه يوماً:

(إن الدنيا ليست إلا إناء مليئاً بالعقارب، ظاهرها جميل، وباطنها رديء، لذلك رأيت أن أعتزلها وأهلها.

واعلم يا بني أني لا أريد أن تخرج عن شريعة الله التي نقلها إلينا رسوله ﷺ، احترم السادة العلماء واطلب دعاء الدراويش، واعتصم بالصلاة والصوم والزكاة والحج "كما كان ينمّي فيه المشاعر العدائية ضد دولة المغول الصابئة الطغاة").

وقد شاهد أحد رجال الصومعة تيمور منعزلاً، فتقدم إليه فوجده يقرأ القرآن، فالتفت إليه قائلاً:

من أنت؟. وما اسمك؟!.

فأجابه: أنا تيمور بن ترغاي.

فتفرس به السيد سليل الرسول ﷺ بُرهةً، وإلى القرآن الكريم مثلها ثم قال له:

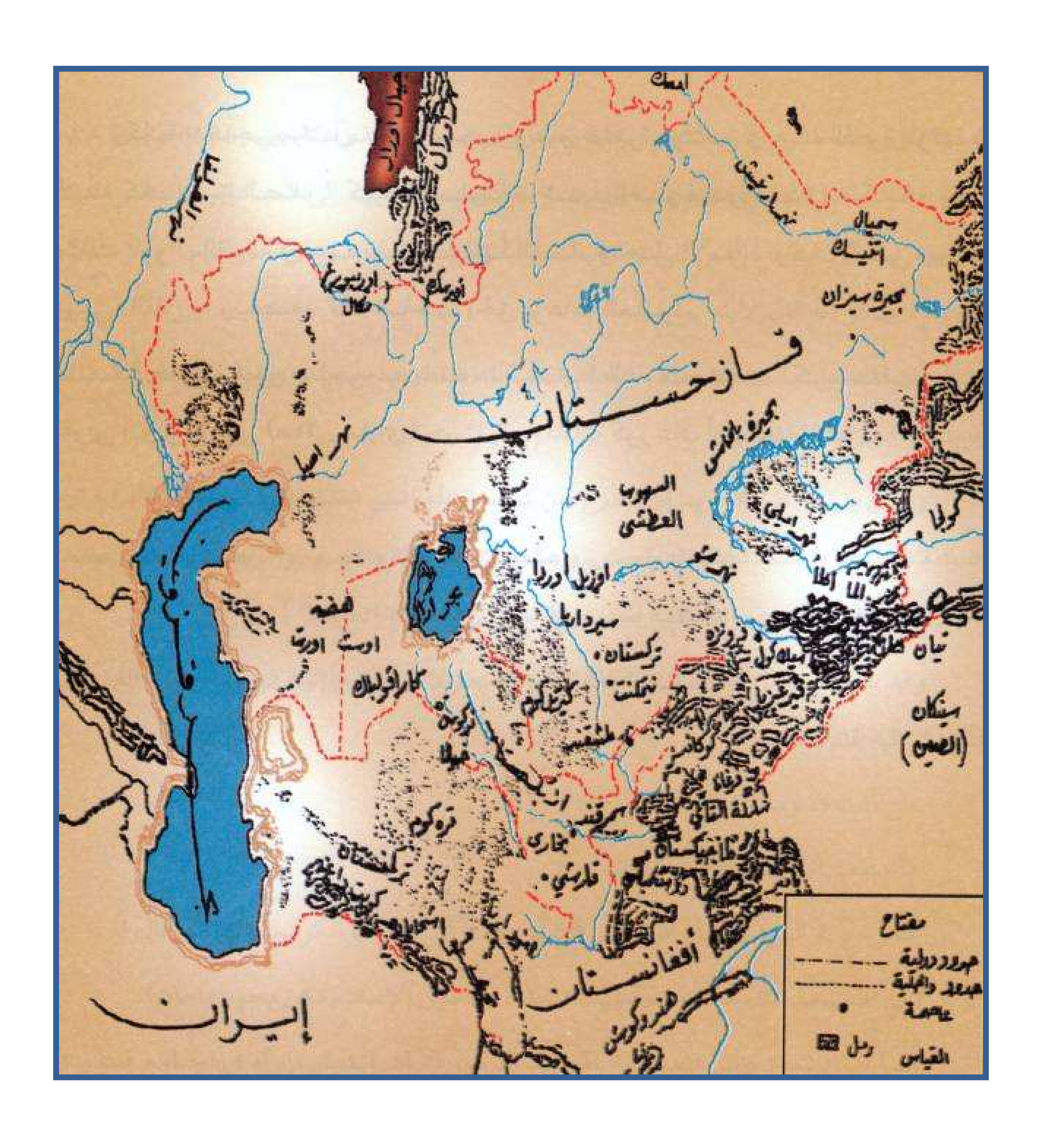
(**إن الله يحفظك ما كنت مؤيِّداً لدينه، أيِّد دين الإسلام تكن بخير وأمان**).

كما أن الشيخ «**زين الدين**»، المرشد الأكبر لتلك الديار، رآه في الجامع فنظر في وجهه ملياً، ثم أهداه بعض الهدايا منها سُبَّحته وبردته، وكان زين الدين هذا من أدق الناس نظراً، وأحسنهم فراسة، خبيراً بطبائع البشر، وقد وقع في نفسه أن تيمور مقبل على أمر جلل في مستقبلات الأيام كما تحدَّث وصرَّح.

وكان «**الحاجي برلاس**»، عمّ تيمور، زعيم عشيرة برلاس في هذه الفترة المؤقتة، إلا أنه كان ضيق الصدر، كثير الوساوس، شديد الحذر متهوراً، دائم الكآبة، وقد ساءت أحوال القبيلة في عهده، ودبَّ فيها الفساد واختل الأمن، وكان يخشى تيمور ويسيء الظن به ويبغضه، لأنه صاحب الحق بزعامة العشيرة.

مما جعل تيمور يهاجر من بلده، لكيلا يصطدم مع عمّه، لكرم خلُقه ولحقِّ القربى، ويرحل إلى (**سالي ساراي**) حيث يقوم المِلك كورغان أمير سمرقند.

* * *


قازخستان
إيران
أفغانستان
السهوب العطشى
بحيرة بلخاش
بحيرة سيزان
سمرقند
بخارى
طشقند
تركستان
(الصين)
مفتاح
حدود دولية
حدود داخلية
عاصمة
ميل
القياس

إلى سمرقند

كان طريق سمرقند مليئاً بالناس أكثر من الشوارع الرئيسية في شهري سيبز، حيث كان التجار يترلون ويصعدون فوق الطريق زُرَافاتٍ ووحْداناً، وهم يسوقون حيواناهم ودوابهم المحملة بالبضائع، فالبلاد بين سمرقند والبوابة الحديدية في شهري سيبز مليئة بالحرس والحماة، ولم يكن ثمة خوف من عصابات اللصوص وقطاع الطرق.



سمرقند وطرق القوافل في القرن الرابع عشر

وكان بعض الخيَّالة لقافلة كبيرة يقومون بالتحضيرات الأولية لكي ينصبوا خيامهم، ويقضوا ليلتهم بالقرب من النهر.

أدرك تيمور أن هؤلاء الخيَّالة سائرون إلى سمرقند بعد قدومهم من (**كوندوز وهرات وكابول**)[1] لحراسة القافلة الكبيرة، ولا بدَّ أن بينهم إيلشي قائد الحامية الصغيرة الذي تولى أمر تدريبه.

تابع سيره باتجاه الخيام المنتصبة بالقرب من مراكز القيادة، حيث رأى الفارس إيلشي جالساً تحت مظلة خيمته مع عدد من الرجال الغرباء.

فتظاهر بأنه لا يسعى في طلب إيلشي، وأخذ يعبر من أمامه دون أي اكتراث به أو النظر إليه، ولكن إيلشي حيَّاه بحرارة وبفخر وكبرياء، إذ رأى نفسه صديقاً ومدرِّباً لابن أسرة نبيلة عريقة. ومن ثم توجه إلى أحد القادة قائلاً: إن هذا هو تيمور بن برلاس بن ترغاي أمير شهري سيبز. ومن ثَّم توجه نحو تيمور مخاطباً:

(**إن هذا هو الفارس «أُولْتاي»**).

ومدَّ أُولتاي يده ليصافح تيمور، ولكن بدا وكأنه لم يكترث باسمه، وكأنه لم يسمع باسم أبيه قط، كما أن أحد معاونيه الذي كانت ملامحه تدل على أنه هندي أو فارسي، زمَّ شفتيه وكشَّر عن أسنانه، وبصق على الأرض، وراح يرمقُ (تيمورلنك) باستصغار ويشد قبضة يده على سكين حادة مثبتة في حزامه.

نظر الأمير تيمور إلى الشاب نظرة شزراء، كونه ضيفاً ولا يريد أن يثير قلقلة لمضيفه إيلشي، مع أنه لم يكن يحمل سلاحاً بيديه، ويرتدي اللباس المدني، وغريمه يرتدي درعاً فولاذية تحت سترته الحريرية المخططة، وسيفاً فارسياً معلّقاً على حزامه.

وإذ ذاك أمر إيلشي وأولتاي القادة الآخرين بالإنصراف. وهكذا استدار الشاب المقيت وانصرف مع الذين انصرفوا.

ولكن ما الذي يخبئه القدر لتيمور وراء تلك التصرفات التي لاحظها؟.

تطلع إيلشي نحو أولتاي وسأله قائلاً:

---

[1] كابول: هي عاصمة أفغانستان. تقع على ضفاف نهر كابول. تحيط بها سلسة جبال هندوكوش.

من هو الفتى الذي كان معك يا أولتاي؟.

فأجابه: إنه «**نيهمو**»، الفتى الذي هرب من شيخ الجبل[1]، ويبدو أنه اكتشف سِرَّ فردوس العجوز الكاذب، وقد حاول أن يتسلل إلى القصر من دون الحصول على إذن بذلك.

وهو فتى معتاد على امتصاص الحشيش منذ أمد بعيد، وقد ولج إلى خيامنا وشرع يثير القلاقل والمشاكل في فسطاط القائد كورغان ملك الملوك، لذا فإن المَلِك كورغان أرسله إلي لكي أراقبه وأعتني بشؤونه، ولا شك أنه فتى سيئ الخلق، ولكنه قد ينفعنا في يوم من الأيام، لأنه إذا ما امتصَّ بعض الحشيش فإنه لن يتورع عن القيام بأي عمل نأمره به.

فقال إيلشي:

ولكن يجب عليه أن لا يتحرش بالأمير تيمور، فلقد رأيته يكشر عن أسنانه ويقطب حاجبيه، عندما رأى الأمير تيمور، وهو يرتدي الثياب المدنية.

فالتفت أولتاي إلى تيمور بشراسة متجهمة. وعندئذ تطلع إيلشي إلى أولتاي وأردف كلامه:

ويجب عليك أنت أيضاً يا أولتاي أن لا تكون مغفَّلاً، لأن هذا الأمير الشاب قد تدرب مع رجالي بانتظام لمدة سنة كاملة، وإنه من أمهر رجالي وأقدر الفرسان، وهو يفوقني في براعته!.

شعر الأمير تيمور بشيء من الخجل والاضطراب، لأن إيلشي قال كلماته كردٍّ على استصغار أولتاي، وعلم أن لا بدَّ مما ليس منه بُد، وكعادته التجأ لربه ليوفِّقه حتى يستطيع أن يبرهن للقادة أنه ليس شاباً ضعيفاً وجباناً، وبعدها ستختلف نظرة الاحتقار المبنية على الحسد تجاهه.

لقد كان نيهمومعروفاً بين الجنود بشراسته، ولكنه يبدو أكثر سوءاً وشراسة عندما تكون ثمة قطعة من الحشيش في فمه، إذ أنه قد يقتل أحد هؤلاء الشباب إذا لم يراقَب بدقة واستمرار، وقد توجه لتوِّه إلى خيمة القائد أولتاي، بعد أن علم بقدوم قافلة من كابول قد يكون فيها حشيش...

ويعجب الجنود من أمر أولتاي، إذ كيف يحتمل مساوئ نيهموالشرس؟!.

لقد سمع أولتاي بأعمال القائد الصغير وبطولاته، فأكلت الغيرة قلبه، ولكن لا يستطيع أن يبدي ذلك، كونه قائداً لمجموعة الجند، وتيمور أعزل، والفرق بينهما بالعمر كبير!.

---

[1] لطفاً انظر بحث: القضاء على الحشاشين الصفحة /٣٤٩/ من كتابنا.

ولاسيما بعد رحلة الأمير تيمور العجيبة، التي استخلص فيها عدداً من أصحابه بعد اختيارٍ وتمحيص، فصارت له فرقة من الفرسان الشجعان ذوي الإخلاص والحمية، وبدأ يجوب معهم المدن والقفار المجاورة، واستطاع أن يقطع على صهوات الخيل ألف ميل في الجبال والوهاد، حتى وصل بعد أسبوعين إلى مضارب الأعراب.

وتلك الرحلة لا يقوم بها أيّاً كان في تلك المدة القصيرة.

نظر أولتاي إلى تيمور مليّاً فوجده:

قوي البنية، مهيب الجسم، بهيّ الطلعة، واسع العينين، فيهما الصرامة والقوة، يصوِّبهما نحو محدثه فيسيطر عليه بنظراته، وصوته الخفيض العميق، وحديثه الرتيب، وتفكيره الهادئ، وقوة الحجة، ضامّاً إلى ذلك كله، شدَّةً وقوَّةً عجيبتين، وثقة بنفسه ورزانة.

وقد وجده خبيراً متطلِّعاً إلى أمور السياسة والدولة وما فيها من قلاقل وفتن حول مدينة (**بادكشان**)[1]، ويعلم كيف أن الملِك كورغان أخذ على عاتقه إخماد تلك الفتن والقلاقل، وتطهير المدينة منها قبيل فصل الشتاء، وكيف أنه يعلم ببعض الفارسيين الذين يغيرون على ضفاف نهر (**أموداريا**)[2] علماً تاماً.

نظر إليه يمشي بين الفلاحين الإيرانيين، وهم يفسحون له الطريق باحترام وإكبار عندما يصل إلى القرب منهم ويمر بجانبهم، ولما كان هؤلاء الفلاحون الباعة قد أظهروا احترامهم له ودعوه بالأمير، فإن المسافرين أخذوا ينظرون إليه نظرة إجلال وتقدير، كما أن الدعوات إلى طعام العشاء وُجِّهت له من قبل عدد كبير من التجار.

لم ينسَ أولْتاي كيف كانت حركات تيمور الرائعة بالسيف عند بائع الأسلحة، وكان معه إيلشي الذي وضع قطعة صغيرة من قضيب فوق خوذته، ثم حرّك تيمور السيف حركة ماهرة من خلف رأسه، وضرب به القطعة بخفة فائقة، ومهارة لا نظير لها فقصمها إلى نصفين متساويين، وأسقطها عن رأس إيلشي، دون أن يلمس خوذته بأي سوء.

---

[1] بادكشان: تقع في شمال أفغانستان، من ولايات بلخشان.
[2] أموداريا: نهر ينبع من الهند، وكان اسمه قديماً "جيحون" ويصب في بحيرة آرال.

ثم أنهى اختباره للسيف بحركة ماهرة جداً، كان إيلشي نفسه قد علَّمه إياها في استخدام السيف، وعندئذ عبَّر إيلشي عن إعجابه العظيم (بتيمورلنك)، وخاطب أولتاي قائلاً: (**إن هذا الرجل كما أعتقد ذو حظ عظيم**).

وفي المساء:

كانت المشاعل مضاءة بالقرب من حلقة الرجال، وقد استطاع تيمور أن يرى في وجنة نيهمو انتفاخاً وهو يجترّ قطعة من الحشيش ويمضغها، حيث سال عصيرها فوق ذقنه، وإذ ذاك أمر إيلشي الرجال بأن يفسحوا مكاناً لتيمور، حيث جلس بالصف الأمامي.

لقد كان الجنون في عيني نيهمو واضحاً، وآثار الحشيش فوق ذقنه وهو أشد ما يكون شراسة.

تطلَّع الرجال إلى تيمور، الأمير الصغير، وأوْلوه اهتمامهم، فاندفع نيهمو بغيرة شرسة، وحسد شرير، واستل خنجره بيده اليسرى، واندفع نحو تيمور، وإذ ذاك زعق (لا تضيِّعوا وقتكم بالنظر إلى هذا المغفل)، ثم قذف بخنجره نحو عنق تيمور، ولكنها العناية الإلّهية أفقدت نيهمو توازنه، وأنقذت الأمير تيمور.

وشعر الأمير الفتى تيمور، أن أرجل شخص آخر قد ضربت ظهره، فتفادى الموقف، ومرَّ من تحت ذراع نيهمو، وانتصب واقفاً على قدميه في وسط الحلقة، شاهراً خنجره بيده، لتأديب ذلك الشرير ومَن وراءه.

فاستدار نيهمو لكي يواجهه ويتصدى له، ولكنه عندما رأى خنجر تيمور بيده، استل سيفه بسرعة، ورفعه بيده اليمنى، وفي تلك اللحظة صاح إيلشي لتيمور قائلاً:

هو ذا سيفي يا تيمور فخذه. وكان جميع الرجال قد هبُّوا واقفين على أقدامهم في تلك اللحظة.

كان نيهمو يتوقع أن الأمير تيمور سينحني إلى الأمام كي يمسك بالسيف ولكنه بدلاً من ذلك تراجع إلى الخلف خطوة واحدة، وأمسك بمقبض السيف عندما مرّ بالقرب من وسط جسمه، ولو لم يفعل ذلك لكان نصف سيف نيهموقد أصابه إصابة قاتلة، فذهل نيهمو من هذه الحركة، ولما استعاد وعيه تقدم إلى الأمام كي يتيح المجال لسيفه حتى يندس إلى قلب تيمور، ولكن تيمور الأمير كان يشعر بهدوء

تام، بينما نيهمو يغلي بالغضب المخيف، إذ كان جزء من التمارين التي يتلقاها هو وجميع أقرانه بأن يحنقوا ويستشيطوا غضباً عندما يبارزون شخصاً عدوّاً.

ومن مثل تيمور الأمير لا يخفى عليه مغزى الغضب هذا، ومقصد الحنق، وما هي إلا لحظات والأمير تيمور يعمل سيفه، ويُجهد نفسه، أن لا يوقع الأذى بنيهمو، ويقوم معه بحركات وكأنما يدرب شبلاً ناشئاً، حتى اندفع الأخير بتهوُّر، بعد أن تطلع إلى حلقة الرجال الذين يراقبون هزيمته، فأجبر الأمير تيمور على أن يرفع سيفه كي يحمي نفسه، ثم اندفع سيفه القاطع مقتحماً نصل خنجر نيهمو حتى مقبضه، ثم هوى على معصم نيهمو، وقطع يده، وتعالى الهتاف الصاخب من جميع الجهات، ووقع على نيهمو من الأذى أكثر مما كان متوقعاً.

بيد أن هذا الشاب المدمن على الحشيش، بدا وكأنه لا يحس بالألم، وأنه لم يشعر بفقدان يده، وما أن رأى الدم يسيل من يده المقطوعة، حتى توجه بسيفه نحو رجال عزَّل أغاظوه بهتافاهم، يودُّ قتلهم، إذ زعق زعيقاً حاداً مثل ذئب مستدمٍ، وقذف بسيفه نحوهم، وكان الأمير تيمور الرجل الوحيد الذي بإمكانه إيقاف ذلك الوحش الضاري، بالرغم من أنه كان بعيداً عن متناول يده وسيفه، فهرع كي يصده عن قتلهم، حيث كسر ذراعه الأخرى، وأبعد رأس سيفه عنهم.

استلقى نيهمو في المكان الذي سقط فيه، وشرع يجهش بالبكاء، وأخذ يبكي بعنف وعمق وحشرجة قوية تنبعث من صدره... فهبَّ أولتاي من حلقة المتفرجين إلى رفيقه الذي سقط، ثم حملق بتيمور بحنق وجنون، وأمسك قبضة سيفه، ولكن رجليْن باسلين من رجال إيلشي كانا قد وقفا بجانب الأمير تيمور، وشهرا سيفيهما كي يدافعا عن الأمير تيمور بشجاعة وإخلاص.

توجه إيلشي نحو أولتاي ممسكاً بذراعه قائلاً:

اكبح جماح غضبك، والجم حنقك يا أولتاي، وارفع هذا الخوَّار، ولا تتألم فإنك لست بحاجة إلى رجل لا يستطيع أن يدافع عن نفسه.

ويجب عليك أن تعلم أيضاً أن نيهمو هو الذي بدأ الشجار، وهو الذي اعتدى على الأمير تيمور، فارتخت قبضة أولتاي ببطء، وانفرجت عن مقبض سيفه، ودعا عدداً من الرجال كي يساعدوه في رفع باسله المذلول.

أخذ إيلشي سيفه من الأمير تيمور، ورافقه أصدقاؤه الثلاثة عبر الجماهير الهائجة المضطربة، التي علمت أن الأمير تيمور، رجلٌ لا كالرجال.

ومن ثمَّ حذَّر إيلشي الأمير تيمور من الذهاب إلى التلال، حتى يعقد له معاهدة مع المِلك كورغان صانع الملوك، فلا يدري ما هي تدبيرات أولتاي وصنائعه بعد فشله بالمرة الأولى.

* * *

«كورغان»
بين يدي ملك الملوك

جمع الأمير تيمور العدة التي يحتاج إليها أثناء ذهابه خفيةً، وتوجَّه قاصداً قبيلة البرلاس، حيث اتفق مع إيلشي على أن يراسله بأخبار المعاهدة مع المِلك كورغان.

واجتاز مغاور الجبال والأخطار المحدقة في الطريق من القبائل (التيبتية)، بأعاجيب غريبة، حتى وصل معسكر وخيام عمه برلاس، وكان شديد الحذر في الاندفاع نحو الخيام والمعسكر، فقد كان يعلم شعور عمه برلاس تجاهه، وكان يرغب في أن يخاطر ويطلب حمايته له بعد بعض الاتصالات التمهيدية مع عدد من أبناء عشيرته وجلدته، وهكذا بذل جهده كي لا يبدو أمام الأعين البعيدة، وشقَّ طريقه نحو أخدود واطئ وممر منخفض، وتجنب الظهور أمام الخيام، وأقام لنفسه مركزاً ثابتاً، وظل يراقب السهل لعدة أيام، حتى تأكد أنه لا يوجد ثمة نشاط غير عادي في الخيام والمعسكر. ثم بدأ يقوم برحلات استطلاعية يومية حول القطعان والرعاة المنتشرين في السهل، حيث كان يأمل أن يرى عمه الأصغر «**جاكو برلاس**»، إذ كان يُحبُّه ويقف موقفاً طيباً تجاهه، وبالرغم من أنه كان أحياناً يعارض عمَّه الأكبر بشكل علني، فإنه كان لا يزال يتمتع بنفوذ واسع في القبيلة.

وأخيراً رأى حصانه العربي الكبير يعدو خبباً نحو قطيع من الغنم في طرف السهل، فنهض تيمور فجأة وهرع كي يقابل جاكو قبل أن يصل إلى خيام الرعاة.

وصرخ به قائلاً: جاكو... جاكو...

- من؟. تيمور!. أهذا أنت يا أمير تيمور؟!. كنا نتوقع قدومك.

- أصحيح؟. وما الخبر؟.

- إن المِلك كورغان يريد أن يراك، وقد أرسل إيلشي إليَّ رسالة وأخبرني فيها أنه قد عقد معاهدة مع الرجل العجوز (المِلك كورغان)، ولذا فقد أزيل كل لوم عنك.

- ولكن لماذا؟.

- وفقاً لما أخبرني إيلشي فإن المِلك كورغان يشعر أنك ما دمت قد عطَّلت رجلاً من خيرة محاربيه الشبان، فإن أقل شيء تستطيع أن تفعله، هو أن تحل محل ذلك المحارب.

- ماذا؟!. أنا صرعت محارباً!.

- نعم، وإن أولتاي هو الذي دفع نيهمو إلى الموت، ومهما يكن من أمر فإن جندياً بيد واحدة لا يمكن أن يصلح لشيء.

وتابعا سيرهما باتجاه الخيام.

- وما هو شعور عمي الحاج؟.

- إنه مرتاب كما هي عادته، وأنت تعرف شعوره نحوك.. فهو يخاف منك، ويحذر أن تقوم وتطالب برئاسة العشيرة عندما تبلغ من العمر حدّاً ملائماً، ولكنه سيشعر بشيء من الاطمئنان، عندما يراك تعمل في خدمة الملك كورغان، ولكن يجب عليك يا تيمور أن تعلم أنك قد تُقتل: (وكان ذلك لا يخفى على الأمير تيمور)، فيجب عليك أن تتوارى عن الأنظار قليلاً، فإنك الآن في الواقع بطل الشباب، وهم لا يتحدثون إلا عنك، وخصوصاً بعد مطاعنتك مع المحارب الشرس الذائع الصيت نيهمو وتغلبك عليه.

وإن ذلك يغيظ الجاجي برلاس ويؤلمه، ولكنني أشعر بالمتعة عندما أراه يتألم.

ومن ثم ذهبا إلى مراكز القبيلة، حيث استُقبل تيمور بحفاوة عظيمة من قبل القبيلة، وبالرغم من موقف الجاجي برلاس الجاف طيلة ثلاثة أيام تجاه الأمير تيمور التي مكثها في المعسكر، فإن رجال القبيلة قدَّموا إليه الهدايا والمكافآت، فأهدوه أفضل الأحصنة وأظرف الأقواس والجعب والأدرعة التي يستطيع صنَّاع الأسلحة تقديمها، وهكذا فعندما ذهب لينخرط في خدمة المِلك كورغان كان يرتدي ثياباً تليق تماماً بالمحاربين، ويحمل سلاحاً يتلاءم مع مقام أمير من قبيلة برلاس، وسار مرفوع الرأس مفتخراً نحو البوابة الحديدية، وما كان يمر على حراس المفاوز حتى يشجعوه على المشي ما إن يسمعوا باسمه.

ولما وصل حيث كان المِلك كورغان، ملك الملوك، ترجل عن حصانه، وأدخله حارسان، فحياه وقدم إليه نفسه: إنني تيمور بن ترغاي، وقد جئت إليك بناء على طلبك أيها الملك العظيم.

وإذ ذاك أمره المِلك كورغان بأن يقف منتصباً، وصرف الحارسين، وخاطبه قائلاً:

إنني لفي غاية السرور إذ أستقبل ابن صديقي القديم «**ترغاي**»، فتعال إلى غرفتي وحدثني عن أبيك، ودلفا الغرفة حيث أجلسه أمامه، ثم سأله عن أخبار أبيه وهل هو بخير؟..

فأجاب تيمور: نعم يا سيدي، إنه سعيد.

- سعيدا!. إن هناك ملذات وليس سعادة، وإنني أتذكر جيداً أياماً كنت فيها أنا وأبوك نقود الحملات معاً، ونتمتع معاً بثمرة الظفر أو نقاسي آلام الفشل.

لقد رأيت أباك يعارك أربعة رجال وقد غطاه الثلج حتى ظهْر حصانه، فهل بعد كل ذلك، زَهِدَ وكرَّس حياته للخدمة في الجامع؟!.

- نعم يا سيدي، وقد اختار ذلك بمحض إرادته.

إنني فهمت أنه قد حاول أن يحثك على أن تكرّس حياتك لنفس الخدمة أيضاً، ولولا ذلك لكنت أرسلت في طلبك من زمن بعيد، ومهما يكن فإنني لا أستطيع إلا أن أحترم رغبات ترغاي، ولكن رسائل إيلشي كانت تصوِّر لي ولو لفترة من الوقت أنك رجل تبدو عليه مسحة رجال الدين.

وابتسم ابتسامة لطيفة وهو يرنو إلى تيمور بحدة نظراته وتفرَّس فيه ثم قال:

إنني أجد من الصعب أن أصدق كل ما قاله إيلشي، وأنت تعرف ما هم هؤلاء الضباط الأصغر مني رتبة.

- نعم يا سيدي!. إنني أعرفهم جيداً.

- ولكن إيلشي يقول أيضاً، إنك ماهر في لعبة البولو، وإنك الفارس الذي لا يبارى في استخدام السيف في خيامه، وهو يقول أنك تستطيع أن تشد القوس حتى تدغدغ ريشته أذنك، وإنك تستطيع أن تحمل قربوس السرج وتقذف بثلاثين سهماً إلى هدف متحرك بينما تكون راكباً على حصانك وتعدو بسرعة فائقة. وإن هذا شيء لا أستطيع أن أصدقه، ولكن هل حقاً تستطيع أن تفعل كل هذا ؟!.

- نعم يا سيدي فإنني أستطيع أن أفعل أحياناً ما قد قاله لك إيلشي.

- إذن فأنت ستبرز كثيراً بما لديك من بديهةْ تتلاءم مع أمثال هذه المهارة، فتساءل تيمور: البديهة[1]!.

[1] البديهة: صفة من صفات النبوة لأن لديهم نوراً يشاهدون الحقيقة، وبهذه البديهة النورانية لا يخطؤن، بل دوماً ينتصرون، وتوجد عند الاتقياء المستنيرون بنور الله، ولكنهم لا يبلغون مبلغ الأنبياء.

وما هذه البديهة؟!.

فأجابه المِلك كورغان:

البديهة هي التي تعيِّن الفرق بين المحارب العادي، وبين الفاتح العظيم.

فإن هناك من المحاربين مَن يساوونك بالمهارة. فافعل ما يجب عليك أن تفعله تجاه رجل أو من أجل رجل دون أن تهتم بشعور أي رجل نحوه أو حتى بشعورك أنت، فإن الصداقة والحقد والغيرة وسائر أنواع العاطفة، تعرقل مقدرتك في صنع ما هو منطقي وعادل وضروري.

لقد تلقيت تقارير عنك من زين الدين، وإنني أعتمد على تقديره لك، وإنني اعتقد أن الإمام العجوز قد أصبح حامي العقيدة، وبعد أن تلقيت تقرير إيلشي فإنني أخذت أميل لأن أصدق كلام زين الدين، وأعطيك فرصة مواتية، إن هذا هو الذي جعلني ألقي عليك هذه المحاضرة القصيرة.

- إنني أشكرك يا سيدي.

- لا تشكرني يا تيمور، فإن كل ما أعطيك إياه هو فرصة فقط، وبعض النصائح، ثم لا تنسَ أنك قد تستطيع أن تصبح فارساً من الدرجة الأولى، وربما قد تصبح ملك الملوك.

ولكنني لا أستطيع أن أعطيك ذلك، وإنما يتوجب عليك أن تكافح، كي تحصل عليه.

وإنني سأكتب إلى الفارس إيلشي كي يضمك إلى رجاله ويعتني بك، وسأقول له إنني أنا الذي عينتك في فرقته.

وسرَّ الأمير تيمور سروراً عظيماً بذلك التعيين، وهرع بعد الاستضافة الملوكية كي ينضم إلى فرقة صديقه إيلشي.

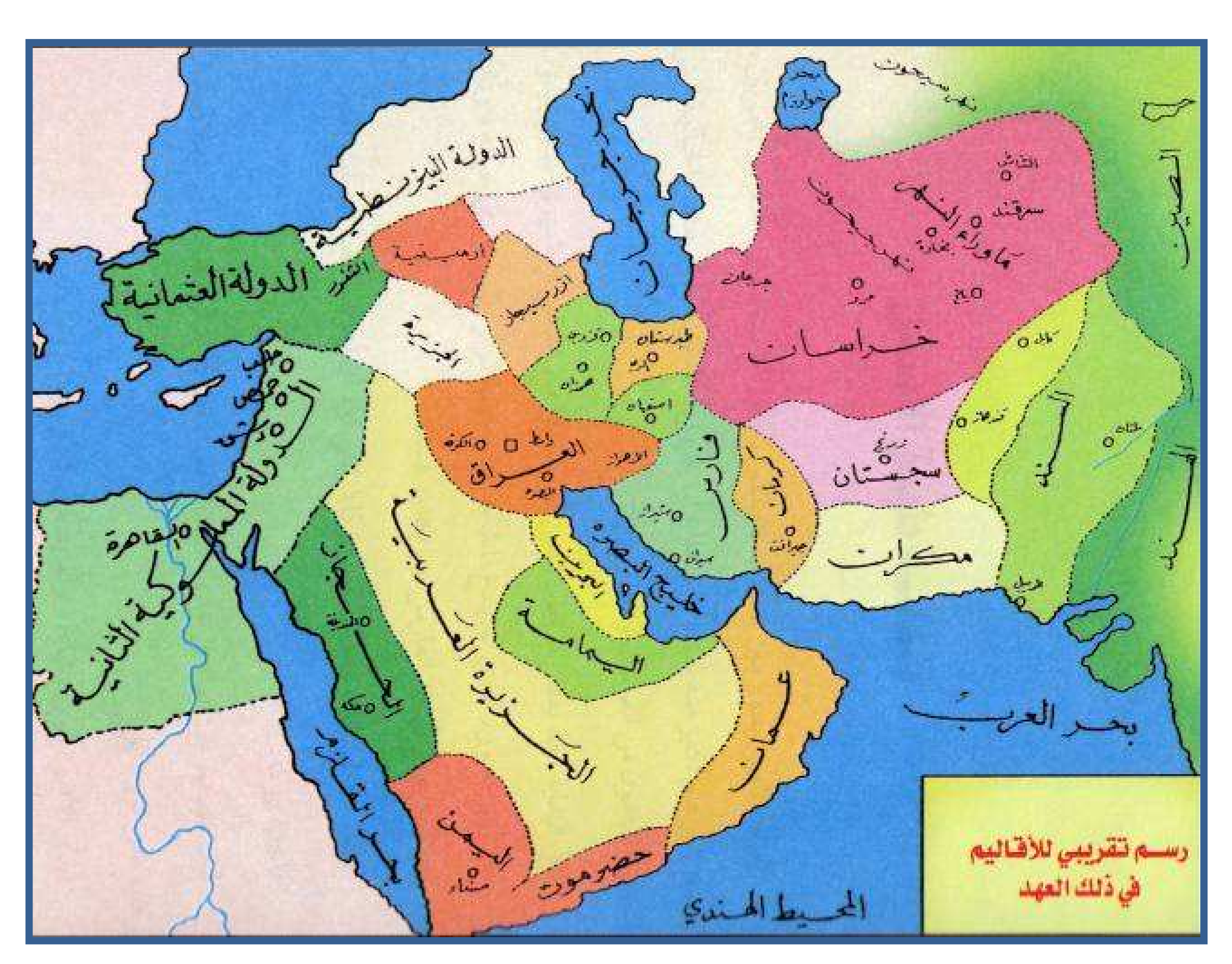
* * *

كان المِلك كورغان قادراً على أن يسبر غور الأخطاء والأضاليل والأمور التي تُبسط أمامه، ويتخذ بشأنها قرارات عادلة أو موافقة، وله فراسة بالرجال، وقد ازدهرت بلاد ما وراء النهر في عهده واتسعت

حدودها، وامتدت من السند وخراسان إلى أقصى حدود تركستان شمال سيرداريا، واستقلت تماماً عن القسم الشرقي من خانية جغطاي.

وقد رأى بخبرته العميقة بالرجال، وبفراسته في الأمير تيمور، الرجل الشجاع الحكيم الطموح، الذي يحفظ له إمبراطوريته من بعده.

* * *



رسم تقريب للأقاليم في ذلك العهد

ندبة طبق الأصل

انخرط الأمير تيمور بين صفوف المقاتلين، وأصاخ سمعه إلى المحاربين المجربين، ليتعلم ممن هم أكبر منه سناً، واستطاع أن يغربل الحقائق من القصص الخيالية التي ينسجها المتباهون من الفرسان والمغرورين.

وفي البداية أخذ بعض الرجال الذين لم يكونوا مع إيلشي في شهري سيبز يميلون لإغاظة الأمير تيمور، الذي لم يدع المشاعر الشخصية تؤثر على مجرى حياته، وذات مرة رأى ندبة جرح في خد الفارس «**بيركا**»، فسأله:

كيف حصلت لك هذه الندبة يا بيركا؟. إنني أود أن أعرف كيف حصلت لك.

فأجابه بيركا:

أوه.. لقد جرحت مرة في خدي عندما خضت معركة ضارية ضد مارد عملاق كان يركب على ثور هائل.

أبدى الأمير تيمور استياءه، ولم يصدق كلام بيركا، وقال له:

هل تستطيع أن تحكي لي تلك القصة؟.

أجاب بيركا، نعم :

فقد حدثت المعركة في بلاد الظلال الكائنة في الشمال وفيما وراء نهر السير، حيث تظل الشمس مشرقة لمدة ستة أشهر، ثم تغرب وتظل منحجبة لمدة ستة أشهر أيضاً.

ولم يشعر الأمير تيمور في البدء بميل إلى لهجته الأسطورية، وطريقة سرده القصة، لكنه لاحظ شيئاً غير المزاح في عيني بيركا، ثم استجمع الرجل أنفاسه وأردف قائلاً:

لقد ظهر المارد في الشمال، وأخذ يتحداني ويستميلني إلى المبارزة، وهكذا فقد ظللنا نتعارك منذ شروق الشمس حتى غروبها، أي طيلة ستة أشهر. ومهما يكن فقبل أن يحل الظلام بعدة أسابيع مات حصاني من الجوع، وهكذا كان علي أن أتابع القتال وأنا واقف على قدمي، وفي النهاية طعنت ذلك المارد في صدره، ولكن عندما سقط إلى الأمام حاولت أن أحيد عن جسمه الضخم، وإذ ذاك اصطدم

خدي بقرن الثور الهائل، وجرح جرحاً بليغاً، ولقد قلت لك أنَّ المارد كان يعتلي صهوة ثور هائل وليس صهوة حصان.

فضحك الأمير تيمور، وضحك جميع الجنود الذين كانوا يستمعون إلى كلامه، ولكن الأمير تيمور لاحظ أن هناك خبثاً في ضحكهم موجَّهاً إليه، وكانوا يقصدون الهزء به والسخرية منه.

فقال لبيركا بثورة عارمة:

أخبرني عن الحقيقة، وإلا فإنني سأعتقد أن عبداً قد ضربك بسكينة وشق لك خدك.

فقفز بيركا منتصباً على قدميه وسأل الأمير تيمور بحنق قائلاً:

وهل تشك بقصتي أيها الكلب؟.

فإنني سأصنع ندبة في خدك وأجعلك تحكي عنها قصة حقيقية للناس، واستل سيفه ونهض الأمير تيمور مستلاً سيفه وهو يقول:

إنني لا أستطيع أن أباريك في الكذب، ولكنني سأصنع في وجهك ندبة تفوق الندبة التي تبدو عليه الآن، وسأجعلها تزين وجهك البليد القبيح.

وفي تلك اللحظة، اندفع بيركا نحو الأمير تيمور بحنق شديد، ولكن الأمير تيمور علم حقيقة الغضب الذي يزمجر في وجه خصمه، فشعر بثقة تامة تسري في أعصابه ورأسه، وقد عرف أن باستطاعته أن يقتل ذلك الرجل بالرغم من أنه خاض معارك قاسية، فتهرَّب من ضربته بشكل هازئ، وذلك كي يجعله يغضب أكثر فأكثر.

ثم سدد بيركا ضربة قوية نحو عنق الأمير تيمور، لكن الأمير تيمورغطس من تحت ذراعه بمهارة وإحكام دون أن يستخدم سيفه، فكاد أن يسقط بيركا من شدة الضربة، وقد فسح اختلال توازنه مجالاً طيباً لتيمور أن يضربه بسيفه من الخلف ويقطع عنقه، ولكن بدلاً من أن يستغل تيمور تلك الفرصة أتاح له الوقت الكافي كي يستعيد توازنه ويستدير ليواجهه مرة ثانية، بيد أن أحد المتفرجين خاطب بيركا بهزء وسخرية:

إنه يلعب معك يا بيركا، وإن هذا الفارس الذي نعتَّه كلباً ليس إلا أسداً!.

وأتاح الأمير تيمور لبيركا أن يتقدم نحوه ويضربه دون جدوى بسيفه.

وفي تلك الآونة خاطبه بلهجة جدية:

خذ هذه الطعنة في خدك الأيسر يا بيركا.

وضربه بحد سيفه ضربة ماهرة وخفيفة، حيث أراد فقط أن يجرح خده دون أن يقص عنقه أو يفلق رأسه، وبالفعل جرح الأمير تيمور خد بيركا جرحاً فقط، وعندما التأم الجرح ترك ندبة في خده الأيسر طبق الأصل عن الندبة الأولى، بل بدت وكأنها من صنع سكين حادة، من يد طبيب جراح ماهر.

وبعد ذلك خضع الجند للأمير تيمور، ولم يعد أحد يجرؤ على عدم الاكتراث به، حتى أن أكثر الفرسان تغطرساً وصلفاً أخذوا يضعون الطاعة له، وعندما أصبح قائداً لمائة جندي، كان بيركا في عداد فرقته، ومن أشد الناس إخلاصاً وطاعة له.

وقد كان بيركا ضابطاً مغواراً، منظره بالندبتين يخيف الرجال، ويلقي الرعب في قلوبهم، فلا يجرؤون على مخالفة أوامره، وأوامر سيده الأمير تيمور.

* * *

النظرة الجديدة

برهن الأمير تيمور على مقدرة فائقة في القتال، وقد أتاح إيلشي لجنود الأمير تيمور الذين كانوا يرفعون علمه، أن يقودوا الفرقة كلها أثناء القتال والمعارك.

وعندما كان رؤساء وزعماء القبائل البعيدة يأتون كي يدفعوا ما عليهم من رسوم، ويحتفلوا برأس السنة الجديدة، كان الأمير تيمور في عداد رجال مجلس الشورى الذي يعقد في فسطاط المِلك كورغان (المعجب بمنطق الأمير تيمور وألمعيته)، مما أتاح له الجلوس والاشتراك في مناقشة خطط وتدبيرات حملات الربيع، التي يشترك فيها أعظم فرسان البلاد التترية، بالرغم أنه كان أصغر القادة الكبار سنّاً، ولم يحدث ذلك لغيره، وذلك بسبب مواهبه وكماله.

بدأ يتطلع لتنظيمات الجيوش، ووسائل التدريب وفنون الحكم، كما بدأ يدرس ويعرف جميع خصائص وتقاليد القبائل المختلفة من بحر (أباكو حتى جبال البامير)، ومن (منحدرات كير غيزيا حتى صحراء لوت).

كان المِلك كورغان مقداماً جريئاً عادلاً مستقيماً، نابغة في عقد المحالفات وإرضاء الأعوان، وقد نجح ففرض احترامه على القبائل البرمة المتقلّبة، وكان أعور نتيجةً لإصابته بسهم في إحدى عينيه.

وقد كرَّس نفسه بعد نجاح انقلابه للصيد، ولا يلجأ للحرب إلا عند الضرورة القصوى، ولم يكن ليعتمد أو يثق بدعم قبائل المغول له. وقد رأى في الأمير تيمور ابناً لزعيم سابق لقبيلة البرلاس من ورائه العون الكبير عند الحاجة.

ولاحظ المِلك كورغان أن الأمير تيمور، يحظى بمحبة الفرسان الصناديد وتقديرهم، أولئك المحاربون الذين اكتسبوا من السمعة والشهرة ما جعلهم الرؤوس الجامحة في القبائل. يذهبون إلى الحرب ذهابهم إلى الوليمة، وقد اتخذ الأمير تيمور مكانه بينهم، كما لو كان حقاً له ولا جدال فيه. كان يرافقهم الغارات، وما أن يعودوا إلى المِلك كورغان، حتى يكونوا كلُّهم ثناءً على شجاعة الأمير تيمور وخططه الرائعة وإقدامه.

فقد كانت طبيعة الأمير تيمور تذهلهم، ففيها شرارة من الحماس الخالص، تدفعه إلى المغامرة وتطلُّب الأخطار، التي يحجم عن خوضها أشجع الشجعان.

والأهم من ذلك، أن الأمير تيمور يبقى هادئاً مفكراً عند الأزمات، فكان مُولِّداً للطاقة، وباعثاً على العمل المنتج الفعَّال، كما كان يقول عنه الصناديد، وكانت حيويته البدنية المستفيضة، تساعده على القيام بالركوبات الطويلة على الخيل، وبقاء الليالي العديدة يقظاً ونشطاً، وعلى كلٍّ، لديه مؤهلات القيادة كلها، ويتميَّز عن الجميع أنه كان شديد الثقة بالله، والتي نشأ عليها نشأته الدينية، والتي ما كان ليتزحزح عنها قيد أنملة.

* * *

الحملة الأولى

خلال إحدى الاجتماعات السنوية، عَهد المِلِك كورغان للأمير ولأول مرة، أن يقود حملة مستقلة. إذ بينما كان أعظم الأمراء منهمكين في مناقشة أمور ومشاكل الإمبراطورية، اقتحم أحد السعاة وناقلي المراسلات أسوار الرجال، وشق طريقه إلى المجلس، وأنبأ المِلِك كورغان، أن شرذمة من المغيرين الفارسيين قد عبروا نهر (أموداريا) واستولوا على قطيع من الخيول، ونهبوا عدداً من القرى وحقول الفلاحين.

فتطلَّع المِلِك كورغان نحو الضباط والجالسين، وصاح باسم الأمير تيمور، ليكلِّفه بإرجاع تلك الخيول والمنهوبات وبأخذ مائة جندي لإنجاز تلك المهمة.

كان المِلِك كورغان يقصد لفت انتباه الرؤساء والزعماء المجتمعين إلى الأمير تيمور، من وراء تعيينه لتلك الحملة، مع أن بين الحاضرين قادة مجرَّبون، وأقدم سنّاً من الأمير تيمور.

وقبل منتصف الليل انطلقت الفرقة بقيادة الأمير تيمور بسرعة نحو الحدود الفارسية، مجتازة المنحدرات وسفوح التلال، حتى وصلوا القرى المنهوبة.

وكان الرجال الكئيبون والنساء البواكي في كل مكان يرشدون الأمير تيمور، إلى الطريق الذي سلكه المغيرون من فارس، بعد أن أخذوا معهم أثمن الممتلكات والفتيات، وأقوى الفتيان، من القرى المنهوبة. علماً أنهم يدّعون الإسلام، وهم مسلمون كذابون وهم أشد ضراوة من الأعداء الكفرة الخارجيين، ومثل أولئك كان يؤدبهم الأمير تيمور بيك بأشد العقوبات، ما جعل اللئام من الناس يكرهونه وينسبون إليه أسوأ الصفات والأعمال، لكنه كان في الحق لا يخشى لومة لائم.

فجدَّ الأمير تيمور في طلبهم بفرقته، وخاضوا النهر ومن ثمَّ اقتفوا أثرهم في الصحراء، حيث كان أثر المغيرين واضحاً في الرمال الصحراوية المضاءة بأنوار القمر. وهكذا حتى وصل إلى الواحة، حيث تنصب قبيلة المغيرين خيامها، فتوقف عن السير وأراح الخيول، وأمر الجنود بالنوم ساعة كاملة من الزمن. وقبيل الظهيرة بقليل من اليوم الثاني، لاحظ الأمير تيمور غمامة من الغبار وراء القافلة على بعد عدة أميال،

وأدرك عندها كيف تنجو المسلوبات المنهوبة في كل مرة ممن سبقوه، فأوقف جنوده عن المسير ودعا ضباطه إلى اجتماع سريع.

كان الضابط «**كايدو**» مشغوفاً مندفعاً:

رأيُه العدْو وراء القافلة بأقصى مالديهم من سرعة.

فأجابه الأمير تيمور بهدوء:

كلا يا كايدو!. يجب علينا في الأول، أن نبيد المحاربين الذين سيأتون لملاقاتنا، وعندئذ سيهرب رجال القافلة، وسيكون بمقدورنا أن نستولي على ممتلكات القافلة كلها دون أية مقاومة.

بيد أن الضابط «**بيركا**» قال مُبدياً رأيه:

ولكن قد يهرب المحاربون ويأخذون القافلة معهم، وتضيع علينا فرصة ذهبية، فأجابه الأمير تيمور بثقة تامة:

إننا نستطيع أن نلحق بهم ونقبض عليهم، وإذا استولينا على القافلة في البداية فإن المحاربين قد يهربون ثم يعودون كي ينقضوا علينا طول الطريق ونحن عائدون، لذا فإنه يجب علينا أن نعمل على إبادة المحاربين وسحقهم جميعاً.

فأجاب الضباط آنذاك: لقد فهمنا خطتك أيها القائد.

ثم أعطى أوامره للضباط كيف ستكون تشكيلة المعركة القادمة، ووزَّعهم مستخدماً أفانين لم يعهدوها من قبل، مستغلاًّ كافة الإمكانيات الساحقة لقوة العدو المعتدي، والمحافظة على قوة جنده.

وعندما أخذ يتقدم بجنده كان حريصاً على أن يثير غمامة صغيرة من الغبار كي يوحي للعدو بأنهم فرقة صغيرة. ففرح رئيس القبيلة الفارسية وبشَّ عندما خيِّل إليه أن عدد قوات الأمير تيمور لا تزيد على محاربيه، وأخذ يلوح بسيفه فوق رأسه، وزمجر رجاله بقوة وغضب واندفاع، وبدؤوا هجومهم، وفي نفس الوقت اندفع الأمير تيمور برجاله الأشاوس وهجمُوا ببسالة رائعة.

وخرج كايدو برجاله من وادي النهر وأخذوا يطلقون السهام والنبال من كلا الطرفين، وكذلك فإن رجال بيركا الذين كانوا يسيرون في المؤخرة شرعوا يقذفون نبالهم الطويلة وسهامهم البعيدة المدى.

فشلَّت السهام والنبال حركة فرسان المعتدين، وأوقعت الحيرة والارتباك في نفوس الفارسيين، وعرقلوا عمل سيوفهم.

وإذ ذاك قاد الأمير تيمور جنوده بنفسه، وشق طريقه عبر صفوف الأعداء المحاربين، واندفع نحو رئيس القبيلة العدوّة.

وكان يضرب الأعداء بسيفه حسبما تتيح له الفرصة، و لم يتوقف لمبارزة طويلة مع الأعداء، لأن هدفه هو رئيس القبيلة الذي لقي حتفه بضربة من سيف الأمير تيمور فصلت رأسه عن كتفيه قبل أن يشعر حتى بهجوم الأمير تيمور عليه.

وبعد ذلك انتهت المعركة تماماً، ثم تمَّ الاستيلاء على القافلة كما أوضح الأمير تيمور من قبل، فإن رجال القافلة هربوا إلى التلال و لم يُبدوا أية مقاومة.

وقد احتاج الأمير تيمور يومين كاملين كي يفرز الأسلاب ويعيدها إلى أصحابها الشرعيين، وأرجع السبايا والفتيان إلى آبائهم وأمهاتهم.

وانتشر اسم الأمير تيمور على طول النهر، وأصبح المنقذ لأولئك الناس البسطاء.

وهنَّأه الملِك كورغان أمام مجلس الأمراء، وجعل انتصاره جزءاً من احتفالات السنة الجديدة، وأدناه في مجلسه.

* * *

الأمير تيمور بيك[1]

كانت ثمة غارات قصيرة وحملات دفاعية يوكلها المِلك كورغان إلى الأمير تيمور، ليتيح له تحسين فرقته وقيادته في المعركة والقتال، ولرغبته الملحَّة أن يبقى بالقرب منه.

إصلاح الداخل

ولكن الأمير تيمور شعر أن هناك خللاً في الجهاز الأمني، نتاجه السيء يقع على رؤوس البسطاء من الناس، جراء عمليات النهب والسلب التي تقوم بها العصابات المنتشرة في أكثر البلاد، فأخذ يبحث عن أصعب المهمات، ويبذل جهداً متواصلاً كي يقيم الأمن بالبلاد، ويستأصل شأفة الإجرام والمجرمين، مما جعل المِلك كورغان يؤمن بمقدرته ويثق بكفاءته، ويرسم انطباعاً خاصاً تجاه الأمير تيمور الذي شرع يحطم جميع فرسان العصابات الشرِّيرة التي يهاجمها تحطيماً كلياً، كما فعل بالمغيرين الفارسيين.

فاستتب الأمن في منطقة عمله بشكل متميز.

وذات يوم استدعاه كورغان (ملك الملوك) المعجب به، وأنبأه بأن «**بيازيد جلاير**» و «**الجاجي برلاس**» رئيسي قبائل البرلاس والجلاير يتآمران للتمرُّد وللامتناع عن دفع الخراج في هذه السنة، وأنه سيعمل على زيادة عدد الفرقة في شهري سيبز لمحاصرة هذين الرجلين والقبائل التابعة لهما حتى يخضعا لشروطه، وسيوكل هذه المهمة إليه، أي للأمير تيمور، كي يسحق أي تمرد وفتنة من شأنها إزهاق أرواح المسلمين.

علماً منه أن سجل الأمير تيمور برهن على أنه لا يخشى في الحق لومة لائم، ولا يداهن في الحق لأي كان، ولو كان ذا قربى.

كما أراد الملك كورغان، أن يعبِّر عن محبَّته للأمير تيمور وصداقته له فزوَّجه حفيدته «**ألجاي**»، وأمر بترقيته إلى رتبة عقيد (**قائد الألف**)، وعينه قائداً على شهري سيبز، ومنحه لقب بيك، فأصبح ينادى (**بالأمير تيمور بيك**)، ولكن الأعداء المكبوتين حوَّروها بعد انتقاله.

وأصبح الأمير تيمور بيك، محطَّ آمال جميع البلاد التترية، منقذهم وقبلة أنظارهم.

---

[1] تيمور بيك: معنى بيك أي الأمير الطاهر. ولا يزال معناها هكذا باللغة التركية أيضاً.

في شهري سبز

أخذ الكثير من رجال البرلاس بالانضمام إلى فوج الأمير تيمور بيك والانخراط في خدمته، مما زاد في ضخامة حجم الفرقة التي كانت تعسكر عبر النهر، ومما جعل بيازيد جلاير والجاجي برلاس تضعف قواهما بما انضم من رجالهما لقواته، مما جعلهما لا يحركان ساكناً، ولم يعلنا أي تمرد أو فتنة.

وعندما جاءت السنة الجديدة، دفعا ما عليهما من رسوم، بل وقاما بحضور الاحتفالات المعتادة.

وهكذا استطاع الأمير تيمور بيك أن يجعل بيازيد والجاجي برلاس تحت سلطته، دون إراقة دماء أو إحداث أي شغب، ولما أمن جانبهم شحذ سلاح الهجوم وجزَّأ فَوْجه لفرقٍ قتالية، وعين قائداً على كل منها، كفرقة الفرسان الثقيلة، وفرقة الفرسان الخفيفة، والأجنحة اليمنى واليسرى، وانتقى بنفسه أمهر السيَّافة والخيَّالة، وشكَّل منهم فرقة متحركة، ودرّبها على أعمال الهجوم والتراجع عبر فرق الفرسان.

وعندما يقوم الفوج بأسره بمناورا ت فوق الأرض السهلية، كانت أعلام الفرق تخفق في الهواء وأسلحتها تقرقع، فيبدو الفوج وكأنه مشتبك فعلاً مع الأعداء في معركة حقيقية.

وقد أجرى الأمير تيمور بيك التمرينات والتدريبات العسكرية يوماً بعد يوم لفوجه، حتى أصبحت فرقته وأسلحته وجنوده قوة لا تقهر.

ولكن لَمَ يكلِّف نفسه كل ذلك؟!. والأمن يشمله بوشاحه بسبب مركزه القريب من مركز وقلب الإمبراطورية التي يحمي حدودها رجال يظلون يقظين وحذرين، بسبب الخوف أو طمعاً بالأسلاب والغنائم التي يكسبونها من الحرب مع جيرانهم،ألا إنه الطموح الإنساني.

آنذاك رزق الأمير تيمور بيك بابنه الأكبر، وسماه «**جهانكير**» أي: (**فاتح العالم**).

مما يعبِّر لنا عن الطُموح الذي يرغب إليه في أن يكون العالم في يده، بغية إصلاحه بعد فساده، وتحت وصايته، وهو يحمل السيف بيد، والمصحف الكريم باليد الثانية.

* * *

إلى متى وقطاع الطرق يأتون من بلاد فارس الإسلامية؟!..

كان الملك كورغان لا يسمح بأية مخاطرة تثير القلاقل بينه وبين «**الشاه مالك**» أمير (هِرات)[1] وملك فارس والأفغان[2]، ولما علم الأمير تيمور بيك أن المغيرين وقطاع الطرق هم مسلمون، ومن طرف الشاه مالك، هاله ذلك، فعرض على المِلك كورغان الاستيلاء على (بالخ)[3]، التابعة لشاه مالك، كمركز متقدم لدحر الغارات الخاطفة، التي تسلب الشعوب المسلمة أمانهم واطمئنانهم، وممَّن يدَّعون الإسلام صورةً واسماً.

ولكن المِلك كورغان رفض ذلك خشية أن يؤدي إلى إشعال نيران الحرب، واكتفى فقط بالحملات الثأرية التي يقوم بها جنده لتأديب المغيرين، إذ باعتقاده أن مثل هذه الغارات ليس من شأنها أن تثير الحرب وتشعلها، رغم يقينه أن الأمير تيمور بيك يستطيع التغلب على الشاه مالك إن قاد جيوشه.

وبالرغم من تحذير المِلك كورغان للأمير تيمور بيك من العواقب السيئة للحرب، أخذ تيمور بيك يشحذ هِمَم ضباطه، وأثار فيهم حماسهُ، وقوّى إيمانهم بضرورة السير إلى الحدود، حيث وجود القلاقل والفتن على طولها، لذا سار بفوْجه إلى هناك، حيث كان لديه عدد من العيون والمخبرين السرّيين حقاً: كان قد أعدَّ للأمر عدته.

كان الجنود متحمسين لخطط وتدبيرات الأمير تيمور بيك بعد كشف غور أفكاره، ودوافع خططه لهم، كما أن الجياد والأعتدة والأسلحة، كانت في أفضل حالة.

وسارت الحملة عبر الوادي والبوابة الحديدية. وتمَّ التعسكر على بُعد خمسين ميلاً من بالخ في الشمال الغربي. وفي كل يوم كان الأمير تيمور بيك يرسل فرقاً استكشافية تطوف في وادي النهر، ويعطيها التعليمات كي تفتش عن المغيرين علناً، وكي يحذِّر الفلاحين ويكونوا يقظين، وعلى أهبة الاستعداد.

---

[1] هرات: هي مدينة تقع في غرب أفغانستان.
[2] (حسين آل كرت) الذي لُقب بالشاه ملك هرات. أو الشاه مالك /٧٣٢ـ٧٧١ هـ/.
[3] بالخ: تقع في شمال غرب بلاد ما بين النهرين.

بلغ الأمير تيمور بيك نبأ وجود خيام كبيرة على بعد عشرين ميلاً في الجنوب من النهر، والجميع أفادوا أن هناك حركات خيول غير عادية.

لذا عمد الأمير تيمور بيك إلى إظهار دورياته على شكل أفراد من مجموعات الجنود الصغيرة التي يُعهد إليها بحماية الحدود، وبذا لم يعرف أحد حقيقة بأس قواته وتعدادهم، حتى المزارعون والفلاحون، مما أطمع المغيرين، وجعلهم يقومون بعبور النهر، والسير نحو سفوح التلال.

أفاد بعض الرجال الاستكشافيين بتحرك العصابات، مما أتاح الفرصة المواتية للأمير تيمور بيك للتحرك، فبعث ضابطه كايدو على رأس مائة رجل، وأعطاه التعليمات الكاملة عما يجب أن يفعله.

وبعد عدة ساعات، بلغته أنباء تفيد أن كايدو تصدَّى للمغيرين، وطردهم عبر النهر، وطاردهم حتى الصحراء، فجمع فوْجه بسرعة وسار تحت جنح الليل، حيث التقط آثار قافلة كايدو وتبعها، حتى وصل إلى مكان يستطيع أن يرى منه خيام كايدو، وإذ ذاك أمر قواته الرئيسية أن تختبئ وراء التلال الرملية، وتعسكر طيلة تلك الليلة هناك.

ووفقاً لتعليمات الأمير تيمور بيك فإن كايدو ظل يطارد المغيرين حتى أصبح على بعد عدة أميال من الخيام العدوّة، وعندئذ قتل ثلاثة رجال فقط من أولئك المغيرين، وأتاح للباقين أن ينجوا بأنفسهم ويهربوا إلى خيامهم، حيث كان الأمير تيمور بيك متأكداً من أن فصيلة من الخيالة ستهب من الخيام لنجدتهم، وكي تثأر للقتلى، وقد أصاب الأمير تيمور بيك فيما كان يتوقعه، إذ أفاد الاستكشافيون أن قوة تتألف مما يقرب من خمسمئة رجل اتجهت للقضاء على كايدو، فانقض الأمير تيمور بيك بفوْجه، وتحركت الفرق الخفيفة إلى الأمام كي يتمكنا من التمركز في وضع يتيح لهما تطويق القوات الفارسية المعتدية.

وهجم بفرقته على قلب الأعداء بهجوم كاسح على حين غرَّة، ففاجأهم مما جعلهم يضطربون، إذ لم يكن لديهم الوقت الكافي كي يغيّروا خططهم التي كانت موجهة ضد فرقة الفرسان الثقيلة، فتقدم رجال الأمير تيمور بيك بسهولة تامة عبر صفوف الفارسيين، وقتلوا من الرجال ضعف ما كان يُقتل عادة عندما يُشنُّ الهجوم الأول.

كان قائد الفارسيين يرغب أن يأخذ الأمير تيمور بيك كجائزة شخصية له، ولكنه سيق كما يسوق الذئب نعجة مذعورة، ولم تمض دقائق حتى ارتبك الفارسيون الذين ظلوا أحياء، وانهدَّ عزمهم فوق صهوات جيادهم، وأحاط بهم فوج الأمير تيمور بيك من جميع الجهات.

فأمر الأمير تيمور بيك بجمع الأسرى والخيول التي قتل فرسانها، وسار نحو الخيام التي لم يكن يوجد فيها أكثر من مئتي رجل، ولكن لما فاجأهم وهم غير ممتطين صهوات جيادهم، خارت عزائمهم عندما رأوا قوات الأمير تيمور بيك الكبيرة، ولم يُبْدُوا أية مقاومة.

سار الأمير تيمور بيك نحو خيمة شيخ القبيلة، فخرج رجل فارسي مهاب ذو لحية طويلة من الخيمة مع معاونيه، ثم تطلع إلى جثة قائد حرسه الخاص.

خاطبه الأمير تيمور بيك بجرأته النادرة وقال له:

(إنني الأمير تيمور بيك بن برلاس، وأمير شهري سيبز، وها أنذا أعيد إليك جثة هذا الضابط الحقير الذي تجرأ على أن يهاجم رجالي، لأنهم كانوا يطاردون عدداً من رجالك المغيرين اللصوص عبر نهر أموداريا، وإنني سوف أعتقلك بوصفك أسيراً بين يدي، وسأقودك إلى فسطاط ملكي كورغان).

فابتسم الرجل ابتسامة خبيثة وأجابه:

(إنني مالك.. شاه هرات، وسلطان الأفغان، وحامي العقيدة، وإنني لن أنصت أبداً لثرثرتك السخيفة، وهذيانك الوقح، وبسبب ما فعلتموه فإنني آمر بحبسك وحبس جنودك هنا حتى يسمع صديقي المِلك كورغان بهذا العمل العدواني الذي اقترفتموه، والذي خرقتم به حرمة حدودي، وحتى يقدِّم ملككم تعويضاً مناسباً).

دهش الأمير تيمور بيك من حقيقة أسيره، وتحقق من أنه سيجلب غضب المِلك كورغان عليه، ولكنه خاطب أسيره بتفاخر واعتزاز وقال له:

(إنني أقدم تحياتي إلى الشاه مالك وسلطان الأفغان، بيد أنني ضابط في خدمة المِلك كورغان، وقد عهد إلي بحماية حدوده، وإن رجالك هم الذين اخترقوا حرمة حدود المِلك كورغان، وإن المئات من

رعاياه ورعاياك على طول النهر يشهدون بصحة وحقيقة ما أقوله، وقد ظل أولئك الرعايا يعيشون لوقت طويل في ذعر ورعب، ومع هذا فإنني لا أرى قوة لديك تمكنك من حبس فوج كامل من جيش ملك الملوك).

ولكنَّ الشاه مالك بدا وكأنه لم يتأثر أبداً بكلام الأمير تيمور بيك ولم يُعره أي اهتمام، إذ ابتسم ابتسامة ساخرة وأجابه:

(لم تكن هناك أية غارات، فقد كنت أنا وبلاطي نقوم برحلة صيد رسمية، وإذا صدف وتجاوز بعض رجالي الحدود وهم يطاردون غزالاً سميناً، فإنني على ثقة تامة بأن الملِك كورغان الموقَّر، لن يعتبر مثل هذا العمل إهانة تستدعي وتبرر قتل أكثر من نصف حرس خيامي، والآن فأعط الأمر إلى رجالك كي يستسلموا، وإننا لن نؤذي أحداً حتى يذهب رسلي ويبحثوا الأمر مع الملِك كورغان).

فاستدار الأمير تيمور بيك إلى ضباطه برباطة جأش وهدوء مشوب بالعظمة،وأعطاهم الأمر بحصار الخيام كلها، واعتقال من فيها، وأن يضربوا نطاقاً من الحراس حول المعسكر كله، وعدم السماح لأحد بالخروج أو الدخول.

رغم إحساس الشاه مالك بالانزعاج، فقد اندهش من أوامر الأمير تيمور بيك وشخصيته التي لم يشاهد مثلها في حياته. وقطع أمله من تنفيذ ما يريد تجاه قوة شخصية الأمير تيمور.

إن اعتقال الشاه مالك سيثير بلاد الفرس كلها، ويدفعها إلى تمرّد مباشر ضد الملِك كورغان.

وترْكه يذهب في سبيله سيسبب المتاعب للأمير تيمور بيك وفوْجه، إن لم تقم الحرب العلنية بين المملكتين، وبذلك لا يعيش الناس بأمان بعدها.

فماذا سيصنع الأمير تيمور بيك تجاه أسيره الكبير؟!.

لقد دعا قائده إيلشي وخاطبه قائلاً:

(أحضر خيولاً جيدة إليَّ وإلى الشاه مالك واختر لي حرساً مؤلفاً من مائة رجل، فإننا سنأخذ أسيرنا إلى قصر سالي).

واستدار نحو الشاه مالك وخاطبه بلهجة جدية وصارمة:

(وأنت أيها السيد يتوجب عليك أن تعتبر نفسك أسيراً لي، ويتوجب عليك أيضاً أن تهيء نفسك من أجل هذه الرحلة).

وغادر الأمير تيمور بيك ومعه أسيره، وظل يسير باستمرار ويغيّر الخيول كلما تعبت، حتى عبر النهر، ووصل إلى قصر المِلِك كورغان، وقاد أسيره رأساً إلى مجلس المِلِك كورغان، حيث كان آنذاك اجتماع منعقد للقادة.

وعندما دخل فناء المجلس خاطب المِلِك كورغان قائلاً:

(إن هذا هو أسير لديك يا سيدي، فقد كان يوجه غارات اللصوصية والتخريب على طول حدودك فيما وراء بالخ).

اندهش المِلِك كورغان بصورة غريبة، وللمرة الوحيدة بحياته، ثم تساءل بلهجة مرتبكة وقال:

(ولماذا جاء هذا الأمير بكَ إلى هنا يا صديقي الطيب مالك؟.

ولماذا أسرك يا صديقي شاه هرات؟. فمن المؤكد أن ضابطي المتحمس هذا قد ارتكب خطأ فادحاً).

فأجابه الشاه مالك بلطف وأنس وقال:

(إن هذا هو ما قلته لضابطك هذا وكل ما في الأمر هو أن جماعة من صياديَّ قد عبروا النهر بصورة خاطئة وهم يطاردون غزالاً سميناً).

بيد أن «**لاداخ**» ابن المِلِك كورغان الذي قدم من كارشي[1] وسلك عبر ذلك الطريق اعترض على كلام الشاه مالك، وقال:

(ولكن في مثل هذه الأوقات من السنة يندر وجود الغزلان قرب النهر وفيما وراء مدينة بالخ).

كما أن عدداً من الأمراء الذين رقصوا سروراً لأن الأمير تيمور بيك أسر الشاه مالك، أيَّدوا (لاداخ) في اعتراضه، ثم تطلع الشاه مالك إلى المِلِك كورغان متجاهلاً أقوالهم، وابتسم ابتسامة أنيسة وقال:

[1] وهي مدينة كبيرة تقع بين (أموداريا) وهو وادٍ ونهر عظيم في خراسان، وسمرقند.

(يبدو أن رجالي كانوا منشغلين بمطاردة الغزلان، ولذا فقد تجاوزوا الحدود سهواً، ودخلوا إلى أرض صديقي الطيب المِلِك كورغان).

فأجابه المِلِك كورغان بلهجة تحمل معنى الصدق وقال:

(لقد كنتَ مع رجالك في رحلة صيد رسمية، وإنها فكرة ممتازة، ولكن ربما أنضمُّ إليك وأشتركُ معك في تلك الرحلة).

فشعر الشاه مالك بشيء من السرور والارتياح، وقال:

(لقد كان من المفروض أنك ستشترك في تلك الرحلة، وكنت أهم بإرسال دعوة إليك عندما وقع الحادث المؤسف في اجتياز الحدود، ولكن مهما يكن من أمر، فإنك تستطيع أن تذهب معي الآن وتشترك في الصيد).

فطأطأ المِلِك كورغان رأسه موافقاً، وأمر أمراءه أن يهيئوا القافلة في الحال حيث سيصطحبهم إلى معسكر الشاه.

وبعد انصراف الأمراء دعا المِلِك كورغان الأمير تيمور بيك، ودعا الشاه مالك إلى الغرفة الداخلية، وتوجه مخاطباً الأمير تيمور:

(إنني أعتقد أنك لم تكن تنوي أن تأسر الشاه مالك، أليس كذلك يا تيمور)؟. فأجابه:

(نعم يا سيدي لم أكن أنوي ذلك، وقد كنت أريد فقط أن أنضم إلى رجاله الذين كانوا يصطادون الغزلان حينما قدمت فوجدت كايدو والمائة فارس في معركة خاطئة مع رجالٍ آخرين، مما اضطرني لخوض معركة اضطرارية، فوقع ذلك الحادث المؤسف، وإنني متأكد أن حضرة الشاه سوف يتغاضى عن سوء الفهم الذي حدث بين فريقه وفريقنا أثناء الصيد، وقد سبق للشاه أن تغاضى عن حادث مؤسف أيضاً جرى في السنة الماضية عندما كنا نحتفل بعيد رأس السنة الجديدة).

سُرَّ المِلِك كورغان وقال:

(إن ما تقوله صحيح يا تيمور بيك، وأنا متأكد من أن الشاه مالك سوف يتغاضى عن ذلك الحادث المؤسف، أليس كذلك يا حضرة الشاه؟. فقد سبق وأن تغاضينا عن كثير من الهفوات التي لم تحدث عن قصد وتصميم).

فابتسم الشاه مالك، وارتسمت فوق ملامح وجهه علائم السرور من الأمير تيمور بيك وحدّق بعينيه فيه ثم أجاب الملِك كورغان:

(نعم يا صاحب الجلالة، فإنني لا أرى أهمية عظيمة لهذا الحادث، بالرغم من أن الأمير تيمور بيك حطَّم قوة حرسي الخاص، وهم من خيرة المحاربين الفارسيين والأفغان الذين كنت أعتمد عليهم).

لقد أدرك الأمير تيمور بيك أن استئصال شأفة الغارات اللصوصية لم تُجْدِ بعدُ، فلجأ لسياسة المراوغة التي لجأ إليها أقوى رجلين في آسيا كلها حين وضعهما في المأزق الحرج.

إذ في الحقيقة أن الملِك كورغان والشاه مالك كانا يبنيان قوتهما ويزيدان في عدد جيوشهما، استعداداً لأن يحارب بعضهما بعضاً، بالرغم من أن أحدهما لم يكن يجرؤ على أن يشنَّ حرباً ضد خصمه في تلك الفترة من الزمن قبل إتمام الجاهزية الكاملة.

وقد شعرا أن الأمير تيمور بيك يفوقهما معاً، وأصبح قادراً على أن يقف أمامهما، رغم أنهما أقوى رجلين في آسيا، وزادهما دهشة وتعليقاً على أهمية الأمير تيمور بيك الكبرى وحقيقة موقفه عندما مرَّ الركب بالقرب من المكان الذي وقعت فيه المعركة مع قوات الشاه، وعندما شاهدا المهارة والدقة اللتين استعملهما الأمير تيمور بيك حينما أفنى خيرة فرسان الشاه مالك، وارتسم الإعجاب والتقدير في قلوب الملِك كورغان والشاه وسائر الأمراء، و لم يتردد الأمير تيمور بيك في إظهار قوته وإبداء رأيه أو إرادته، إذ أن الملِك كورغان لم يكن يستطيع أن يعلّق على صنيع الأمير تيمور بيك، لاسيما أن الشاه نفسه لم يعترف بأنَّ ثمة تأثير كبير لذلك الهجوم.

أما أمراء الملِك كورغان فقد رحبوا بعمل الأمير تيمور بيك البطولي عندما أسر خصم قائدهم الرئيسي، كما أن الشاه وُضع بموقف لا يمكنه إلا أن يظهر الرضى، ولا يستطيع أن يناقض نفسه، ويلوم الأمير تيمور بيك بشكل علني ومكشوف، إلا إذا اعترف بأنه من وراء اعتداءاته يتهيأ من أجل حرب واسعة النطاق.

وهكذا خرج الأمير تيمور بيك دون أن يصيبه أي عقاب أو جزاء، ولكن المشكلة لا تزال قائمة، وقد تصبح الغارات اللصوصية أشد ضراوة وفتكاً بالبسطاء من المسلمين.

وذلك ما لا يرضاه الأمير تيمور بيك، فماذا يفعل؟!..

الأمير الشاب وسيد آسيا

وفي إحدى أمسيات رحلة الصيد الدبلوماسية خاطب الأمير تيمور بيك الملكيْن الحاضرين بلهجة متَّزنة وقال:

(إن رجالي قد أصبحوا في شيء من القلق وعدم الارتياح، لأنهم وهم يجهلون بعض فنون الحرب يعتقدون أنهم لم ينالوا مكافآت مناسبة وجوائز تليق بانتصارهم العظيم الجديد، وقد أخذت بعض تعابير السخط والغضب ترتسم على وجوههم).

فاندهش المِلِك كورغان مستغرباً وقال:

(هذا صحيح يا تيمور بيك، ولكن يتوجب عليك أن توضح لهم الأمر بصورة أكثر تفصيلاً وواقعية).

فأجابه على الفور قائلاً:

(إنني سأحاول ذلك يا سيدي بيد أنهم يظنون أن الشاه هو أسير لديك، وليس رفيقاً لك في الصيد، وإنني لا أريد أن أجعلهم يعلمون الحقيقة، وذلك لأنهم سيشعرون بخيبة أمل جارحة عندما يدركون أن ملكهم وأسير قائدهم يعتبران نجاحهم العسكري أمراً ثانوياً تافهاً، ولقد حرمت عليهم الاستيلاء على الأسلاب والغنائم).

ثم تفرس في وجه المِلِك كورغان والشاه مالك، ولكن المِلِك كورغان خاطبه بصوت وقور وبلهجة تحمل معاني الاحترام فقال:

(ولكن هذا سيخلق مشكلة خطيرة أليس كذلك؟. فإنني لا أستطيع أبداً أن أكافئ فوجاً بأكمله بسبب هجوم قام به على صديقي وجاري، وإذا ما أعلنت عن أية مكافأة فإن ذلك يعني بكل تأكيد أنني أستحسن ذلك الهجوم، وإن مثل هذا سوف يغضب صديقي الشاه الطيب وجميع رعاياه).

فاستجمع الشاه مالك أنفاسه وقال:

(كما أنني لا أستطيع أن أدفع أية فدية، لأنني إذا ما دفعت أية فدية فإن ذلك سيكون بمثابة اعتراف مني بأنني قد وقعت أسيراً لدى صديقي الملِك كورغان، وإن شعبي سوف يعتبر أسري إهانة له، وسيجد مبرراً كافياً لكي يعلن الحرب... وإننا نحن جميعاً هنا نريد السلم فقط).

فأجابهم الأمير تيمور بيك بدبلوماسية عظيمة:

(إنني أعرف حقيقة المشكلة، ولهذا فإنني أضعها أمام رجلين أكبر سناً وأكثر حكمة ووعياً مني، وإنني لا أستطيع أن أدع رجالي يسلكون طريقاً ثالثة، أي أن يصادروا جميع ممتلكات الخيام مصادرة تامة، وإنني أعتقد أن تلك المصادرة سوف تثير انتباه جميع الناس في بلاد التتار وبلاد الفرس، وإذا ما قتل ملك الملوك والشاه العظيم بصورة اعتباطية وخاطئة من قبل فوجي، فإن فرائصي سترتعد، ومفاصلي ستتقطع في الاضطراب الذي سينتج عن مثل ذلك الحادث الفظيع).

وحدق الملِك كورغان والشاه مالك بالأمير تيمور بيك، وجحظت عيناهما، ولكنه أردف قائلاً:

(إن أي حادث مؤسف قد يلحق بكما سيجعلني أقع في ورطة لا مخرج منها، وأنتما تعلمان أن هذا المعسكر بعيد عن المدن، وأن مواصلاته قد قطعت منذ ما يقرب من الأسبوع، وأن أي نوع من القصص قد ينتشر يكون له أسوأ الأثر).

ضحك الملِك كورغان في هيئة تمتزج بها علائم الرعب والإعجاب، بينما سأل الشاه مالك الأمير تيمور بيك في دهشة بالغة ورعب مفاجئ:

(وهل أنت لا تستطيع أن تسيطر على رجالك وتضبطهم)؟.

فأجاب الأمير تيمور بيك بلهجة قاطعة:

(نعم إنني أستطيع).

ثم توقف عن الكلام برهة من الوقت حتى يرى نظرات الملِك كورغان والشاه مالك التي انصبَّت عليه بشدة، ثم أردف قائلاً:

(إن كل ما يتوجب علي أن أفعله هو أن أوضح الوضع الحقيقي، وأن أجعل الأمراء الحاضرين هنا يجتمعون في مجلس رسمي مع الملِك كورغان كي يقرروا ماذا يجب أن نفعل بالشاه، وإنني آمل أن يتخذ المجلس قراراً فيه شيء من الرحمة والشفقة.

وموقف الأمراء الذين كانوا يرافقون الشاه كان معروفاً وواضحاً تماماً، وقد طالب بعضهم علناً بقتل الشاه وتوزيع ممتلكاته).

فانفجر الملِك كورغان ضاحكاً، وانضم الشاه مالك إليه في ضحكه، وتطلع الشاه مالك إلى الملِك كورغان وقال:

(إن هذا الشاب قد تزوج حفيدتك أليس كذلك يا صديقي الملِك كورغان؟.

إنني أبيح لنفسي أن أقول إنه نسيب لائق، ولو كنتَ عدوّاً لي لا سمح الله، فإنني لا بدَّ وأن أخشى مثل هذا الرجل الذي يقف بجانبك).

كان الملِك كورغان قد قصد أن يجعل من الأمير تيمور بيك منافساً لحفيده السَّيِّئ حسين، وقد اعتبره حصناً منيعاً لقواته، وخَلَفاً محتملاً له. وقد لاحظ الشاه مالك كل هذا، ورأى أن الأمير تيمور بيك خصمٌ قويٌّ وماهرٌ قدير. وقد برهن على مقدرته، وأثبت كفاءته في المعركة والقتال، وها هو يوقع سيِّدي آسيا العظيمين الملِك كورغان والشاه في ورطة يصعب الخروج منها.

ومنذ ذلك الوقت أخذا يحسبان له كل حساب، وأراد الشاه مالك أن يقف عند متطلبات الأمير تيمور بيك التي تقضي بأمن المنطقة والناس من عمليات السلب والنهب، وهذا أقصى أماني الأمير تيمور بيكْ، حلول الأمن والسلام بحدود بلاد الإسلام، وأراد التقرب من الأمير تيمور بيك فزوَّجه ابنته «**شيرزا الملقَّبة بالبيجوم**»[1] وهي أغنى أميرة في آسيا، وأنهى رحلة الصيد بمراسيم الزفاف، وأراد أن يجاري الملِك كورغان بإسداء النعمة على الأمير تيمور بيك لكسبه لجانبه، فأضاف ألف جندي فارسي بقيادة ابنه الأصغر «**الشيخ علي**» إلى فوج الأمير تيمور بيك الباسل.

[1] البيجوم: تعني زوجة البيك، أي: (زوجة الأمير الطاهر).

و لم يكن أيٌّ من هذين الرجلين يرغب في أن يتخلى عن الأمير تيمور بيك أبداً، وما دام كلاهما على قيد الحياة فإنه سيكون صلة الوصل بينهما، وعندما يموت أحدهما فإن الأمير تيمور بيك سيصبح حليفاً قديراً للآخر.

لقد رأى الشاه أن زواج ابنته من الأمير تيمور بيك يكسبه الربح، لاسيما وأنه يجعله على قدم المساواة مع المِلك كورغان، وقد ألمح الشاه بشكل واضح لأمرائه إلى الأهمية القصوى التي يتضمنها ذلك التحالف بينه وبين الأمير تيمور.

وهكذا حلَّ الأمن والسلام على حدود هاتين الدولتين الإسلاميتين، وتمَّ القضاء على كل نهب وسلب واقتتال بين الإسلام، وهذا جلُّ هدف الأمير تيمور بيكْ.

لقد حفر لحْداً للأعمال الإجرامية والغارات اللصوصية بين المسلمين، وعاش الناس في سعادة لا مثيل لها بفضل جهود الأمير تيمور بيكْ.

مقتل الملك كورغان

تمكن الملِك كورغان بواسطة الأمير تيمور بيك من النجاح في عدة غزوات شمالاً وغرباً، وكان من المؤكد أن يشتد ساعده ويقوى شأنه بمساعدة الأمير تيمور بيكْ. لولا أن وقع الاختلاف بين الأمراء الحمقى في مملكته، وسبب ذلك يرجع إلى أن هؤلاء الأمراء راحوا يطالبون الملِك كورغان بقتل «**الخان**» الشكلي الذي يحكم الملِك كورغان باسمه، والذي لا يظهر إلا نادراً، فكان ملكاً في الاسم فقط، ولكن الملِك كورغان وعد هذا الخان لَّما أجلسه على العرش أن يحافظ على حياته، والملِك كورغان ليس من الرجال الذين يحنثون بوعودهم، فعمل على تهريبه مما أغاظهم، ولما حمل الأمير تيمور بيك ملك هرات أسيراً إلى قصر الملِك كورغان في سمرقند، راحوا يبدون سخطهم وعدم رضاهم، إذ كان باعتقادهم أن الملِك كورغان لم يحل المشكلة حلاً ملائماً، وكانوا قد رأوا مدينة هرات تكاد تسقط في أيديهم، ولكنها ما لبثت أن أفلتت، فرأوا بجهلهم أن الملِك كورغان ضعيف التصرف، مما زاد حنقهم، وفيما كان الملِك كورغان منصرفاً إلى الصيد والقنص خارج سمرقند مع بعض رجاله، هجم عليه اثنان من الأمراء الحانقين مع رجالهم وقتلوه، وفروا إلى التلال الواقعة في شرقي بالخ، وأما الأمراء الآخرون فقد تفرقوا في أنحاء شتى ولجؤوا إلى حصونهم القبلية، خوفاً مما قد يحدث بعد مقتل حاكم البلاد التترية.

فأسرع الأمير تيمور بيك إلى حيث وجد جثة الملِك كورغان، وشيَّعها إلى مقرِّها الأخير، ومن ثم دون أي تفكير بنفسه ومستقبله عاد فعبر نهر أموداريا دون إبطاء، وانطلق جنوباً للانضمام إلى ضباط صانع الملوك الذين كانوا يطاردون القتلة عبر الجبال، ولما تم العثور على القتلة واللحاق بهما، وهما يقاومان بشراسة عند الممرات الجليدية في (هندوكوش)[1]، بيد أن المجرمين القتلة لم يستطيعا أن يبديا أية مقاومة حين ظهور الأمير تيمور بيك، وقطعت رؤوسهما.

بعدها أسرع الأمير تيمور بيك عائداً إلى واديه، ليجد أن الأمور قد تغيرت أثناء غيابه، وأن الوضع السياسي قد تحول إلى نظام فوضوي جديد، يخشى أن يطيح بالبلاد والعباد إلى شفا جرفٍ هار.

---

[1] تشكل سلسلة جبال الهندوكوش الحاجز الطبيعي والإنساني بين العالم الإيراني في الشرق الأوسط والعالم الهندوسي في الجنوب.

الوضع السياسي والتنازع من أجل السيطرة

كانت العادة في أواسط آسيا أنه إذا مات ملك لا يستطيع ابنه أن يجلس مكانه إلا إذا كانت الحالة هادئة، والمملكة متحدة وكان ولي العهد قوياً يستطيع القيام بأعباء الملك، وإلا فإن رجال المملكة وكبارها يجتمعون لانتخاب خلف له.

أو يحدث حادث آخر وهو أن يحارب بعضهم بعضاً، ويجلس على العرش أقواهم وأكثرهم جنداً، وعندها تكون الطامة الكبرى، والبلية العظمى، حيث يُفني كلٌّ واحدٍ الآخر دون هوادة، ويقتتل المسلمون ويسفكون دماءهم على مذبح الدنيا، ويكون الفوز بالسلطة لصاحب العقل الأدهى، والذراع الأقوى، بعد إفناء البلاد والعباد.

عاد الأمير تيمور بيك إلى شهري سيبز ووجد الأمور في حالة هياج خطير، وظلت الأحوال في اضطراب شديد لمدة شهر كامل في جميع البلاد التترية، إذ خلف لاداخ أباه المِلك كورغان، وجعل بلاطه في مدينة سمرقند التي كانت أقوى حصن في جميع البلاد التترية. وأخذ الرؤساء والزعماء القبليُّون في كل مكان يتجادلون ويتخاصمون حول من سيكون الخلف للملك كورغان، لأن أحداً لم يكن يتوقع أن لاداخ سيظل يحكم لمدة طويلة لضعف شخصيته.

وحقاً فقد قام لاداخ بمحاولة قصيرة الأمد لاستلام أعنَّة السلطة، ولكن سرعان ما خفض يده وراح ملتجئاً إلى الجبال، مفضلاً الحياة بأمن وسلام على حياة مجد وجاه محفوفة ومحاطة بالمخاطر والمؤامرات.

وبرز على الأثر كل من جاجي برلاس وأمير جلاير، وقد قدما على سمرقند يدَّعيان السيادة على البلاد، وكان الأمير تيمور بيك مكروهاً من كليهما معاً، حسداً من عند أنفسهم.

وكان الأمير جلاير مدمناً على تعاطي الخمرة، لا يصلح لحكم البلاد، وضعيفاً لا يصلح لمواجهة الأزمات، كما أن الجاجي برلاس أناني، قليل الاكتراث بمستقبل البلاد، شديد الاضطراب.

ونتيجة لذلك انسحب أمراء كثيرون إلى حصونهم ليحشدوا محاربيهم، وليكونوا مستعدين ليدافع كل منهم عن ممتلكاته، وليغير على أملاك جيرانه.

هذا ما صار إليه وضع الإسلام بتلك البلاد.

انضم معظم رجال البرلاس حول جاجي برلاس بعد موت ترغاي والد الأمير تيمور بيك، وقد ساروا معه الآن إلى سمرقند، ووجد الأمير تيمور بيك نفسه في شهري سيبز معزولاً مع نفر من الرفاق والأتباع المخلصين.

قام بجهود لتوحيد صفوف بعض الأمراء الذين عرفهم في بلاط المِلِك كورغان، ولكن دون نتيجة، وحاول أن يحسِّن علاقاته مع الأمير جلاير وجاجي برلاس ولكنه لم ينجح، وبينما كان ينتظر عودة إيلشي وفرقته، وفوج الشيخ علي من هرات، قام بتوزيع رجاله على الأماكن الحساسة (البوابة الحديدية، والطرق الآتية من كارشي، وبخارى[1]، وضفاف النهر) لحماية المدنيين "رعاة وفلاحين" من الغارات المتوقعة، واحتفظ بعدد من الرجال كرديف احتياطي ليسدَّ به ثغرات الدفاع، ويساعد الحرس الشخصي في السيطرة على طريق سمرقند.

وجرى ما كان يتوقعه الأمير تيمور بيك، فقد أغارت عصابات من رجال البرلاس وخرجوا من مكامنهم في التلال للسلب والنهب، ليُغيروا على بعض الرعاة العزَّل الذين يطوفون بقطعان الماشية والخيول عند ضفاف النهر، فهبَّ الأمير تيمور بيك لدحرهم حيث اتجه نحو الممر الجبلي الذي سلكه المغيرون، واصطدم معهم بمعركة سريعة نظَّف فيها المنطقة من المعتدين اللصوص الغُزاة.

لقد كان الجاجي برلاس يعِدُ هؤلاء المغامرين والسفلة ويغريهم ويمنِّيهم بالمكافآت الثمينة، وبأنه سوف يستولي على شهري سيبز خلال الأسبوع، وسيوزع ممتلكات الأمير تيمور بيك وزوجتيه الأميرتين على ضباطه ورجاله.

لذا أعطى الأمير تيمور بيك أوامره للرعاة بالتوجه نحو مركز العاصمة. حيث أن الجاجي برلاس يهيئ الذخيرة والمؤن، وهو لن يخاطر ويهجم حتى يتوفر لديه عدد كبير من الرجال، رغم ما لديه من الأعداد الكبيرة.

وفعلاً كانت الطامة الكبرى أن توجه الجاجي برلاس متَّحداً مع أمير جلاير لإنزال ضربة قاضية بالأمير تيمور بيك، وضربوا حصارهم على شهري سيبز، وصبّوا جامَّ غضبهم عليها.

---

[1] بُخارى: خامس أكبر مدن أوزبكستان.

ولكن رجال الأمير تيمور بيك أبدوا بسالة وشجاعة نادرتين،كما أن ضباطه كانوا ذوي مقدرة في رسم الخطط وحسْن إدارة المعركة، وظلوا صامدين حتى ظهر الشيخ علي بفوجه، وإيلشي بفرقته، وهجم الفرسان والخيَّالة الفارسيون الشجعان، على قوات الجاجي برلاس وبيازيد جلاير ودحرهما بالحال.

وقد أعطى الأمير تيمور بيك أوامره بعدم اللحاق بالفارِّين، وبمن يحاولون الفرار والنجاة بأنفسهم واللجوء إلى التلال والجبال البعيدة، حقناً لدمائهم، ولو حاول لسيطر وهيْمن على التتر، لكنه لم يرغب بسفك دماء قومه لأجل الملْك والسيطرة.

لقد أسف الأمير تيمور بيك أشد الأسف على التصرفات العدوانية التي صدرت من المسلمين المحاصِرين لعاصمته، وتجدّد لديه الأمل والحميَّة في متابعة الكفاح ضد أولئك الأشرار والخبثاء الذين يملؤون العالَم.

وأخذ يردُّ الاعتبار لشعبه، وينهض بهممه، فراح يجيب عن أسئلتهم ومطالبهم، ويصدر الأوامر ويسمع الشكاوي، ويتَّخذ التدابير ويرسم الخطط العاجلة، من أجل تخفيف الكارثة، ومكافحة آثارها السيئة، وبالرغم من الخسارة الفادحة التي كان يشعر بها، لم يحاول أن يضخِّم بؤس وحزن الآخرين من قومه، الذين عادوه وقاتلوه بغياً وعدواناً.

وبعد أن أصيب بيازيد جلاير والجاجي برلاس بفشل ذريع، وهزيمة منكرة في هجومهما، من أجل الاستيلاء على مدينة الأمير تيمور بيك، أخذا يحشدان قوات جديدة ويتمركزان حول سمرقند. وقد انضم إليهما عدد من الزعماء والرؤساء القبليِّين، كما أن أكثر من نصف رجال الأمير تيمور بيك الانتهازيين هربوا وانضموا إلى قواهما. و لم تمض الأشهر حتى سقطت مدينة سمرقند في أيدي بيازيد والجاجي، فقاما بنهبها وسلبها، وأخذ اللاجئون يتدفَّقون لعدة أيام من جهة طريق سمرقند إلى شهري سيبز التي كانت تبدو مملكة حسنة التنظيم مهابة الجانب، وحيث الأمن والعدل والأمان.

وانشغل بيازيد والجاجي بإخماد العصيان والتمرد في بقاع أخرى، وكان ذلك يعوقهما عن أن يعودا ويهجما على شهري سيبز مرة ثانية.

وكانت شهري سيبز عاصمة الأمير تيمور بيك في تلك الأثناء، كواحة هادئة وسط صحراء تعج بالرياح، بينما كانت سائر القبائل تتحطم ويصيبها الدمار في الأمكنة المجاورة لشهري سيبز، أما شعب

الأمير تيمور بيك فكانوا ينعمون بالرخاء والعيش الهانئ في ظل أمير لا يُظلم أحدٌ من رعاياه. ولكن الأمير تيمور بيك كان يدرك تماماً أن العالم ليس إلا كُلاًّ مترابطاً، ولا يمكن أن يكون ثمة سلام في واد تحيط به الحرب من كل الجوانب، وها هو الحاجي برلاس يذيع بياناً يطالب فيه بالرئاسة الاسمية لقبيلة برلاس كلها، وكان جُلُّ غايته إشباع جشعه وضم شهري سيبز الوادي السعيد إليه، وبذلك ربما يعود إلى الحرب الأهلية، وإزهاق أرواح المسلمين، وفي تلك الأثناء:

الأمير تيمور بيك
وإجلاؤه المغول دون قتال

كان الخان «**طوغلوك**» ملك ملوك المغول، يرقب الحوادث، إذ لم يكن قد نسي بعد ما وقع من عصيان ضده منذ جيل مضى. وقد شجعته حالة الفوضى والاضطراب التي سادت مملكة المِلِك كورغان بعد اغتياله، فقدم بنفسه على رأس جيش لجب ليهبَّ منقضّاً على بلاد ما وراء النهر. وبات الخطر الجسيم يأتي من الأقوام المغولية الزاحفة من جهة الصحراء الباردة، وسقط بجنده على شمل المملكة الممزق، ليحاول كما هي عادته أن يضمها إلى أملاكه، وأن يمعن في أهلها قتلاً وسلباً ونهباً، إذ ما كان له دين يردعه عن الغي والعدوان.

وما أن رأى أمراء التتار المتقطعون جموع الخان تزحف نحوهم حتى انسحبوا جميعهم، وهرب قسم كبير منهم إلى خارج البلاد، ومن ضمنهم الحاجي برلاس الذي ظهر كعادته سريع الانفعال لا يثبت على رأي، وأرسل خبراً إلى الأمير تيمور بيك يعلمه بانسحابه وقومه وحاشيته فراراً باتجاه هرات في غرب أفغانستان. وأراد بذلك أن يعيده إلى جانبه، وأن ينسيه ما كان منه من جفاء وعداء ضدَّه، إذ كان يشعر بنمو شعبية الأمير تيمور بيك بين شباب القبيلة، وبازدياد المعجبين منهم بجرأته وكفاءته يوماً بعد يوم، رغم عمره الذي لم يتجاوز الأربعة والعشرين عاماً.

ولكن الأمير تيمور بيك لم يكن راغباً في الفرار، والتخلي عن شهري سبز، وتركها مفتوحة على طريق المغول المتوحشين، إذ لم يكن في قاموسه الهرب أبداً، فأجاب عمه:

(اذهب أنت إلى حيث تشاء، أما أنا فإني سأركب قاصداً بلاط الخان).

كان الأمير تيمور بيك يعرف ذهنية الخان زعيم المغول، ورغبته الملحة في السلب والنهب.

وراح يرقب الحوادث في المدينة الخضراء، وينتظر مجيء الخان وهو هادئ القلب مطمئن البال. وقد أثر هدوء الأمير تيمور ومتانة أعصابه ببعض الأمراء، فعزموا على البقاء مع ممتلكاتهم، وهرعوا يبايعون الأمير

تيمور على الولاء والطاعة، مطالبين بهذا حمايته. ولكنه رفض ولاءهم، فأصدقاء ساعة الحاجة ليسوا أصدقاء حقيقيين.

كان جوابه لهم كإجابة رسول الله ﷺ للمنافقين، الذين ابتغوا الفتنة وقلبوا له الأمور من قبل:

﴿ . .لن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا . . ﴾[1]، وطلب الشيخ علي الإذن من الأمير تيمور بالعودة مع رجاله إلى هرات، إذ أن أباه الشاه مالك يخشى الملك طوغلوك، وليكون بحالة الاستعداد كي يساعده وقت الحاجة.

كان الشاه مالك يدرك تماماً أن الأمير تيمور ماهر بالدبلوماسية، وعلى يقين أنه سيجد لنفسه مخرجاً.

وكذلك قام «**الأمير موسى**» بسحب قواته وضمها إلى «**الأمير حسين**» حفيد المِلِك كورغان، والترقب عمَّا سيفعله الأمير تيمور، وتقديم المساعدة وقت الحاجة.

ولكن الأمير تيمور لم يأذن بانصراف الفرقتين حتى يتم الجاجي برلاس انسحابه، خشية قيامه بعمل أحمق عدواني.

وزَّع الأمير تيمور جميع رجاله على طول طريق سمرقند استعداداً للمعركة المتوقَّعة.

وقابل الجاجي برلاس على رأس قافلته الذي كان ينوي أن يفرض على الأمير تيمور الانسحاب، لكنه أجابه بجرأة نادرة:

((**كلا لن أرحل**)).

مما أغاظه، وإذ ذاك خاطبه الأمير تيمور بصوت عالٍ، حتى تستطيع كلماته أن تصل إلى آذان رجال قافلة عمّه، وقال:

(إنني أنا الأمير تيمور بن ترغاي، ورئيس قبيلة البرلاس، أطلب إليك أن تسلم جميع ممتلكات القبيلة إلي لكي أحميها وأحفظها في عاصمة القبيلة، وإن الجبناء من أقاربي الذين يفضِّلون أن يهربوا، يستطيعون أن يفعلوا ما يشاؤون، ولكن واجبي يقضي عليَّ أن لا أدع ممتلكات القبيلة تضيع في فرارٍ أرعَن إلى الصحراء).

[1] سورة التوبة: الآية (٨٣).

استحوذت الدهشة التامة على الحاجي برلاس والحيرة الغريبة، ومن ثم انهار انهياراً تامّاً لمهابة الأمير تيمور، ورقَّ في لهجته بعد تمردته قائلاً:

(دعنا نبحث هذا الموضوع بتفصيل أدق، ومن المؤكد أنك لا تريد أن تسلب شعبك ممتلكاته).

فأجابه الأمير تيمور:

(طبعاً، إن كل رجل يستطيع أن يحتفظ بممتلكاته، ماعدا ما سأطلبه كأجر على حمايتي لقافلتك حتى البوابة الحديدية، ولكن جميع ثروات القبيلة التي أنا متأكد أنها لديك يجب أن تعاد وتسلَّم إليَّ).

فدهش الأمير تيمور إذ وافق الحاجي على طلبه دون أي شرط، لأنه كان جباناً رعديداً، شديد الاشتياق كي يتابع طريقه:

(وكما يقال باللغة العامية كان يريد سلته بلا عنب).

وقد غرز ذلك في نفوس الجنود ثقة تامة بالأمير تيمور، حتى أن أكثر من نصف رجال الحاجي برلاس رغبوا بالبقاء معه، فرفض الأمير تيمور خدماتهم، وصرفهم بكبرياء، وطلب إليهم أن يظلوا مع القافلة في سيرها بازدراء.

كما أن البعض من رجال الأمير تيمور رغبوا في أن ينضموا إلى الحاجي برلاس ويذهبوا مع قافلته فلم يمانعهم، بل فرح بخلاصه من الفارين الجبناء.

وهكذا عندما عبرت قافلة الحاجي برلاس مدينة شهري سيبز لم يبقَ لدى الأمير تيمور من الجنود سوى مئتي رجل فقط، بالإضافة إلى الرجال الذين كان من المقرر أن يذهبوا مع الشيخ علي ومع موسى ومن ثم ارتحلوا ولم يبقَ لدى الأمير تيمور سوى فرقته الشخصية، والممتلكات التي صادرها من عمِّه الحاجي، وأصدر أوامره بأن الأمور يجب أن تسير كما كانت تسير عليه من قبل في المدينة، وأن الحياة يجب أن تكون كالعادة، ومنع تمركز أية قوات خاصة للحراسة المشبوهة، وكانت شهري سيبز بذلك تبدو عادية وفي طمأنينة تامة، وكأن ليس ثمة أي تهديد، أو خطر هجومي، أو غزو مرعب قادم إليها.

عندها طلب إلى من تبقى من جنوده، أن يرتدوا أجمل ثيابهم الرسمية، كي يبدوا وكأنهم حرس خاص له، وإذا ما سأل أحدٌ عن الأحوال والجنود، كان يقال له:

(إن جنود الأمير تيمور يحرسون الحدود، وهو لا يخشى أحداً أبداً).

كما أن الأمير تيمور لم يفرض مكوثاً على المسافرين الذين يعبرون واديه، بل كان شديد الصلابة في رأيه، ورفض بكبرياء وإباء، أن يستقبل رجالاً فروا من وجه الخاقان.

ومن ثم قصد المستشار الروحي الحكيم «**الملاَّ زين الدين**»، وتحدث معه خلال الليل عن الخطة التي سيقوم بها مع طوغلوك ملك المغول الوثني الذي لا يؤمن بالنبي الكريم سيدنا محمَّد ﷺ، ويتبع شرائع جنكيز خان.

فشجعه على الخطة التي رسمها وأيَّده بكل إمكانياته.

كان باستطاعة الأمير تيمور الفرار، والعودة بقوات أكبر، واستعادة كل شيء فيما بعد، ولكن ثقل عليه عفاف النساء اللاتي قد يُغتصبن، إذ أن العفاف لا يُستعاد. كما أن الحياة للرجال الذين يموتون لا تعود،فرسم خطَّة يضمن بها سلامة بلاده، وعفاف نسائه.

في فجر اليوم التالي أرسل ساعياً إلى فسطاط الخاقان، يحمل رسالة قدَّم فيها الأمير تيمور ولاءه له، وأرسل عدداً من رجال الاستكشاف، متَّخذاً جميع الترتيبات والتدابير من أجل استقبال الضيوف المعادين.

وفجأة ظهرت الطلائع الاستكشافية المعادية من الشمال، وعددها مئتا رجل من خيرة الغزاة والمغيرين، وكانت دوابهم محمَّلة بالأسلاب والمنهوبات، وقد استقبلهم الأمير تيمور بودٍّ، وسخا في إكرامهم والحفاوة البالغة بهم.

وكم كان عجبهم شديداً لما رأوا الأمير تيمور أهدأ ما يكون جناناً، يستقبلهم استقبال الضيوف الكرام، ويذبح الخرفان لإطعامهم، فأذهلهم ما رأوه، وراحوا يعجبون من كرمه وسخائه.

ولما كان قائد الوفد قد وجد نفسه في موقف ضيف، وشعر بخيبة أمل، لأنه لن تتاح له الفرصة كي ينهب شهري سيبز، لذا أجاب الأمير تيمور بدهاء قائلاً:

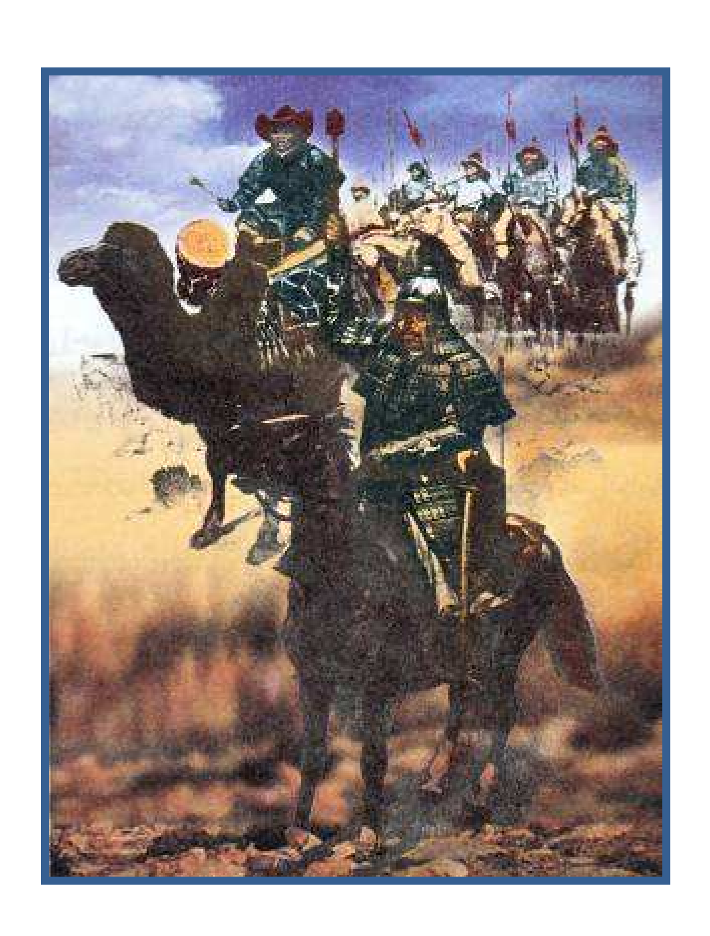
(**إن الخاقان العظيم يبعث بتحياته إلى أمير شهري سيبز، وإنني أشعر بفرح عظيم لأنني بضيافتكم**).

عندها أوهمه الأمير تيمور بجرأته، أن جنوده تحمي حدود الخاقان الجنوبية، وليس لديه سوى حرسه الخاص، لأنه لا يخشى أي شيء من الشمال حيث أن الخاقان العظيم يؤمِّن حمايته من أي معتدٍ أثيم.

وقد لاحظ القائد أن المدينة تنعم بالهدوء والسلام، وقد حمَّل الأميرُ تيمور هذا القائد بالهدايا الثمينة، حتى لا يقوم جنده بأعمال السلب والنهب ولا يغدره: عندها اطمأن القائد الجنكيزي.

ووزع أيضاً بدلات ثمينة وسروج وأسلحة على ضباط الخاقان، وأعطى كيساً من الذهب إلى كل ضابط منهم، كما لم ينسَ حظ الجنود العاديين، وقدّم بنفسه كمية من الجواهر للقائد، وأعلمه بأنه متوجه إلى مقابلة الخان العظيم.

وفي صباح اليوم التالي، كان كل شيء جاهزاً من أجل زيارة فسطاط طوغلوك، وخرج الأمير تيمور بضيوفه من مدينة شهري سيبز، إذ أصبح باعتقادهم أنهم أُرسلوا كي يرافقوا أمير شهري سيبز، ويحرسونه إلى فسطاط الخاقان، بعد أن اشتراهم بالمال والهدايا، ولولا ذلك لمكثوا جبراً في مدينة شهري سيبز.



قائد مغولي وضارب على الطبل

وفي الطريق عند (**نهر ظرفشان**) القريب من مدينة سمرقند، أوقف الركبَ قائدان من رجال الخاقان، لديهما فوجان كاملان من العساكر، إذ لا يُسمح لأي تتري بأن يجتاز هذا الحد الفاصل.

فأجابهم الأمير تيمور بلهجة واثقة:

(**ولكنني أنا الأمير تيمور، رئيس قبيلة البرلاس، وقد دُعيت من قبل الخاقان نفسه، ويرافقني ويحرسني صديقي الطيب قائد الفرقة «إيبيكو»**).

فنظرا إليه وقد عرفاه، ثم تابع كلامه وقال:

(**إنني أحمل هدايا ثمينة إلى طوغلوك العظيم**).

و لم يقتنع القائدان تماماً بما قاله لهما، بيْدَ أن الأمير تيمور لاحظ تعابير وجهيهما عندما ذكر الهدايا الثمينة، وفي الحال أردف قائلاً:

(**كما أنني أحمل الهدايا إلى قواده الشجعان**).

وأعطى إلى كل قائد كيساً من الذهب يحوي أكثر مما قد يناله الاثنان معاً، فيما لو ألقيا القبض على الأمير تيمور وساقاه إلى الخاقان.

اعترتهما الدهشة بالهدايا التي قدمها الأمير تيمور لهما.

عندها أمر قافلته بالمسير واجتياز الحد الفاصل، والاتجاه نحو فسطاط طوغلوك، وبعد عدة ساعات لاحت لهم الخيام.

وصل إلى مقر الخاقان الذي كان يجلس تحت الراية الكبيرة أمام فسطاطه مع مجموعة من النبلاء، وكأنه ينتظر قدوم الأمير تيمور، الذي ترجل بجرأة عن حصانه، وقام بفروض وطقوس التحية والسلام والاحترام الواجبة للملك، حيث قال:

(**يا أبي، يا مليكي، يا سيد الجيش، إني الأمير تيمور، قائد رجال البرلاس، من مدينة شهري سيبز، وقد جئت لكي أقدم إليك ولائي وطاعتي، ولكي أجلب لك الهدايا اللائقة، وإنني حقاً لسعيد جداً بأن أزورك يا طوغلوك العظيم**).

وفي تلك اللحظة فتح رجال الأمير تيمور الأكياس، وبسطوا ثروة وممتلكات القبيلة أمام الخاقان، وعند قدميه، وفي الواقع فإن الهدايا كانت رائعة ولائقة، حتى أن طوغلوك فغر فاه من شدة الدهشة

والاستغراب، وهو يحملق في الهدايا الثمينة، ومن ثم خاطبه الأمير تيمور بلهجة حانقة، ساخطاً غاضباً بصوت كالرعد:

(لقد كان لي هدايا أخرى كثيرة كنت أود أن أقدِّمها إليك يا خاقاني العظيم، ولكن ثلاثة من قوادك اللصوص قد سلبوني الذهب).

ثم بصق بازدراء فوق التراب، وأردف كلامه بسخط شديد قائلاً:

(حقاً، وإنني ما كنت أحسب أن كلاباً من هذا النوع يعملون في خدمتك يا سيدي العظيم، ولم أكن أتوقع أن أرى خاقاناً مثلك يقبل أن يضم إلى قواته مثل هؤلاء القواد الذين يسلبون من مال مليكهم).

وكان ذلك الموقف إبداعاً خالصاً من الأمير تيمور، إذ أخذ طوغلوك يفكر ويتساءل في دخيلته عن مقدار الثروة التي راحت من يده، وانتهى من تفكيره وتساؤله بأن أرسل سعاة على عجل مع أمرٍ إلى الضباط الثلاثة المسيئين بأن يعيدوا ما أخذوه وقال:

(إنك محق يا بني الأمير تيمور، وفي الواقع أن هؤلاء القواد الذين ذكرهم هم كلاب ولصوص، بل وإنهم شوكات حادة مغروسة في جسدي، لتقطع حبل هنائي وتقض مضجعي، وإني لأشكرك كثيراً لأنك قد كشفت عن مساوئهم، كما أني أشكرك جداً على هداياك الثمينة أيها الأمير النبيل).

ثمَّ أصدر أمراً بإعادة الأسلاب المنهوبة لقبيلة البرلاس من سمرقند.

أعجب الخاقان بجرأة الأمير تيمور وشجاعته إعجاباً عظيماً، وعرف أن الأمير تيمور لم يحتفظ لنفسه بشيء من الهدايا، فزاد ذلك في عطفه عليه وإعجابه به.

هذا وقد اكتسب الأمير تيمور لنفسه عدداً من الأصدقاء في مخيم الخاقان، وتحدث مغول الشمال فيما بينهم:

(إن أمراء سمرقند مشتتون الآن كطير السُمَّن تحت ظلال الصقر، والأمير تيمور هنا لوحده فقط!. إنه رجل حكيم ويجب أن نكتسبه ونحكم من خلاله).

وقد لاحظ طوغلوك الاحترام الذي صار يكنه أمراؤه وفرسانه للأمير تيمور، مما أكسب الأمير تيمور مزيداً من تقدير طوغلوك واحترامه.

وفي تلك الآونة، جاءت الأنباء تفيد أن القائدين اللذين كانا يعسكران بالقرب من نهر ظرفشان قد رفضا طاعة الملك وتسليم الهدايا الثمينة والذهب، وقاوما الأوامر وسارا بفوجيهما نحو أوطانهما، وهما ينهبان الأراضي، ويخرِّبانها في طريقهما، كما أن القائد إيبيكو فرَّ مع رجاله في الليل، كي ينضم إليهما، وعمَّ الاضطراب في أرجاء المعسكر بأسره.

عندئذ نقل طوغلوك بلاطه إلى مدينة سمرقند المحصنة، وأرسل أكثر من نصف رجاله كي يطاردوا العصاة، الذين أخذوا يحشدون قوات كبيرة في الشمال، وصاروا يهددون عاصمة طوغلوك مما جعله مضطرباً وقلقاً جداً، فاستشار الأمير تيمور الذي ارتأى أن يرجع الخان إلى الشمال على عجل، وقال له باحترام وتهيب:

(يا أبانا، إنك لن تواجه هناك سوى خطر واحد، أما هنا فإنك ستتعرض إلى خطرين: خطر أمامك وخطر خلفك).

اقتنع الخان برأي الأمير تيمور واستحسنه، فانسحب عائداً إلى بلاده للقضاء على العصاة.

كما رأى في الأمير تيمور الرجل الملائم ليكون خليفةً له في سمرقند، إذ رأى فيه الرجل الوحيد الذي بقي مخلصاً وصادقاً ثابتاً في ولائه وطاعته، في حين أن جميع أمراء ما وراء النهر قد تبعثروا وفرُّوا كعصافير وقع عليها حجر، لذا وثق بصدقه وحكمته وذكائه النادر، وشجاعته الفائقة، فعينه طوغلوك قائداً عاماً، وآمراً لعشرة آلاف جندي، وسلَّمه أختام السلطة الرسمية المحفورة على قطعٍ من الفولاذ، وتركه حامياً لسمرقند ومدافعاً أميناً عنها.

وبهذه الخطة الرهيبة فإنَّ الأمير تيمور بيك قد فرق صفوف العدو الكافر، فأوقع بين ملك المغول وقوَّاده الثلاث، وفرَّق شملهم، وشغلهم بقتل بعضهم بعضاً، وردَّهم خائبين مرعوبين عن بلاد المسلمين، فنجا المسلمون من النهب والسلب والأسر والهلاك، وحفظ بلاده بأمان واطمئنان

وهكذا فليكن الرجال، كالأمير تيمور بيك حامي حمى الإسلام وأموالهم وأعراضهم، في ربوع بلاد ما رواء النهر بكاملها.

(ذكـــرى)

(بنو النضير ومحاولة قتل رسول الله ﷺ)

محاولة اغتيال تيمور الأمير

تمَّ إنقاذ بلاد ما وراء النهر ومدنه من التدمير بفضل الأمير تيمور، وصار بتعيين من الخاقان رئيساً لقبيلة البرلاس، وذاع صيته وطارت أنباؤه، حتى شملت مملكة المِلِك كورغان المشتتة، وصارت له شعبية كبيرة للدور الذي لعبه في حمل الخان المغولي على الانسحاب، والحرب خدعة، فشملت سلطة الأمير تيمور جميع بلاد ما وراء النهر.

ولكن ما إن ذهب الخطر المغولي، حتى رجع أمراء التتار إلى انقساماتهم الداخلية، وخصوماتهم بنشاط شديد.

وكما يقال بالمثَل العامي: **(دود الخلّ منه وفيه)**.

وعاد الحاجي برلاس من منفاه، ليتحالف مجدداً مع رئيس قبيلة جلاير بيازيد، وقرَّرا أن يتخلصا من الأمير تيمور بقتله.

و لم يكن لدى الأمير تيمور النيّة باستعمال أعداء الله من كفرة المغول على المسلمين الحمقى من أبناء وطنه، لفرض سلطته، بموجب صلاحيات منصبه الجديد، وقد رفض أمير جلاير الامتثال لأوامر الأمير تيمور، وزادت الأوضاع سوءاً بذلك التحالف ضده، وكان عدد من الأمراء قليل يرسلون الخراج إلى الأمير تيمور، الذي حاول أن يحافظ على سلطته عليهم بتخفيض المطالب المفروضة على الرعايا، كونهم تعرضوا لنكبة إثر الزحف المغولي.

وأخذ الأمراء التتريون يصبحون أقوى فأقوى، وازدادت وارداتهم وصاروا: الواحد تلو الآخر يتمرد ويتغطرس تجاه معاملة الأمير تيمور الطيبة اللطيفة، وانسحبوا إلى قلاعهم وسحبوا فِرَقَهم من كتائبه وخدمته، فكانوا أمة ضحكت من جهلها الأمم.

استطاع الأمير تيمور التحالف مع الأمير حسين، بعد أن منحه مدينة شهري سيبز ليتَّخذ منها مقرّاً له، بعد أن جاء أمير مغولي من (**التيبت**)[1] واحتل مكانه واعتلى عرشه في كابول.

وظل الأمير حسين مخلصاً ووفياً للأمير تيمور، وحمى له الوادي بجدارة وتفان لأنَّه ضعيف وبحاجة للأمير تيمور.

وفي كارشي أعلن موسى عن ولائه.

وتظاهر الحاجي برلاس وبيازيد جلاير بالولاء، ومن ثمَّ أرسل الحليفان إلى الأمير تيمور دعوة لحضور اجتماع معهما للتداول في أمور البلاد، وتوطيد عرى الارتباط بينهما. فتحرك مع أنصاره إلى (**كش**)[2] حيث كانا يعسكران، وقد استقبله بيازيد لدى وصوله بحرارة، وأخذ بيده وأدخله إلى الخيمة العامة، ومن ثم قال له:

(**إننا سنجري محادثات سرية، والوقت قصير، فلنذهب إلى الخيمة الخاصة**).

وسار أمامه كمن يرشده إلى الطريق.

ولما دخلا الخيمة الخاصة رأى الأمير تيمور سجادة مفروشة في ناحية وعليها غطاء من لبَّاد، وقد جلس الحاجي برلاس على أحد جوانبها، وسارع بيازيد فجلس على الجانب المقابل، تاركاً مكان الوسط ليجلس عليه الأمير تيمور، بينه وبين الحاجي برلاس، ولكن الأمير تيمور فور أن أبصر بالسجادة وغطاء اللبَّاد، وطريقة جلوس الحليفين، أدرك ببصيرته الربانية، أن في الأمر مكيدة، وأن هناك بئراً تحت المكان المعد لجلوسه، وللحال تظاهر أن رعافاً قد حدث في أنفه، فأخرج منديله ووضعه عليه وأسرع خارجاً من الخيمة الخاصة، إلى الخيمة العامة، حيث كان أنصاره وكلهم مسلحون، وغادر الجميع عائدين إلى مكان نزولهم.

ولم تمض فترة من فشل هذه المؤامرة للتخلص من الأمير تيمور، حتى دبَّ الخلاف بين الحليفين، وانسحب بيازيد جلاير خَجِلاً إلى (**خوجندة**)[3] في الشمال، في حين تحرك حاجي برلاس مع أنصاره إلى شهري سيبز للاستيلاء على الوادي.

---

[1] تقع منطقة (التيبت) في المنطقة الحدودية بجنوب غربي الصين وجنوب غربي هضبة تشينغهاي.
[2] ومدينة (كش) هي اليوم مدينة (شهري سيبز)، أي المدينة الخضراء بالفارسية، وتقع جنوبي سمرقند في أوزبكستان.
[3] خوجندة: بلدة مشهورة في ماوراء النهر على شاطئ نهر سيحون في وسطها نهر جار.

لكن الأمير تيمور تمكن من الاتفاق مع الأمير حسين شقيق زوجته، واشتبك جيش ابن الأخ في قتال ضد جيش عمّه المعتدي، على طريق سمرقند وسرعان ما انفك جاجي برلاس عن القتال، وراح منسحباً من الميدان باتجاه الحاضرة الكبيرة، فتركه وجيشه وشأنه.

وهكذا عادت القبائل التترية الإسلامية إلى عادتها القديمة من الاقتتال، كلٌّ أمير ضد جاره، إما مدافعاً عن أملاكه، أو طامعاً في التوسُّع وبسط نفوذه على حساب جيرانه.

استاء الأمير تيمور من الأوضاع التي وصلت إليها بلاد ما وراء النهر، والحالة التي وصلت إليها البلاد، ومن ظلم الأمراء لعامة الناس، واضطرار هؤلاء إلى مغادرة أوطانهم التي غدت مقفرة من السكان.

وفي هذه الأثناء كان القتال مستمراً بين القبائل وأصحاب العساكر في جميع الأنحاء تقريباً، إلى أن ظهر الخاقان الكبير فجأة (كحجر يقع بين عصافير).

لقد أرسل الله هذا الطاغية لتأديب المستحقين، طالما لم يقدِّروا أميرهم المؤمن الرحيم.

فالعبد يقرع بالعصا، والحرُّ تكفيه الكرامة.

* * *

الزحف المغولي ثاني مرَّة

بعد أن أخضع طوغلوك الثورة التي قامت ضده في (**مغولستان**) قرب عاصمته (**ألماليك**)، وعلم بما حلَّ وراء النهر من الفوضى في البلاد، واختلال الأمن واقتتال أصحاب العساكر فيما بينهم، وسير الأحوال من سيء إلى أسوأ، تحرك من جديد عائداً إلى بلاد ما وراء النهر، ونجم عن ذلك الزحف الأخير:

أن قُتل بيازيد جلاير مع بعض أنصاره من قبل الأمراء الآخرين.

كما أن الحاجي برلاس هرب إلى خراسان مع أنصاره جنوباً، وقد قُتل بعد ذلك على يد قطَّاع طرق.

وقاد الأمير حسين رجاله ليشتبك مع مغول الشمال، ولكنه هُزم في نهاية المعركة وراح ناجياً بنفسه هارباً إلى التلال والهضاب القريبة من كابول، وقد طلب من الأمير تيمور أن يستعد للانضمام له، لكن الأمير تيمور رفض الهروب وأبى إلا البقاء في مدينته شهري سيبز.

وأخرج الأمير تيمور أختام السلطة التي أعطاه إياها الخاقان، مما جعل قوافل الخاقان الأولى تحترمه، و لم يُبد أية مقاومة، كما أظهر أنه كان يدافع عن إحدى مدن طوغلوك ضد المعتدين والمهاجمين من قادة التتر وعساكرهم.

وكانت الأوامر قد أعطيت إلى تلك القوافل من الجنود بالبحث عن الأمير حسين والقبض عليه مهما كلف الأمر، مما جعل تلك القوافل تتخذ من شهري سيبز ممراً لها دون أية إساءة.

وخلت الساحة من المتنازعين المحليين ضد الأمير تيمور، وتعززت مكانته في قبيلة البرلاس بعد مقتل عمِّه الحاجي، كما أن عدداً من رجال قبيلة جلاير الذين أصبحوا دون قائد انضموا إلى فرقته بقيادة الأمير موسى، كما أن عمَّه الثاني جاكو برلاس قاد معظم رجال فوْجه إلى الأمير تيمور.

و لم يكن الأمير تيمور يرفض أي إمدادات ولو شكلية آنية، ليتابع مخططه الجديد، وهكذا إلى أن جاء طوغلوك من سمرقند، وقد أصبح لدى الأمير تيمور جيش قوامه ألفا رجل، أي ما يعادل ضعفي عدد حراس الخاقان نفسه والمرافقين له.

أرسل الخاقان يستدعي الأمير تيمور إليه، وللحال عمد الأمير تيمور إلى جمع الهدايا والأموال من وجوه البلاد وزعماء القبائل ليقدِّمها إلى الخاقان، إنقاذاً للبلاد وحماية للسكان والأملاك من الإحراق والإتلاف على يد الزحف الوحشي.

وخاطبه الأمير تيمور بتحية الملوك وقدَّم له الولاء والطاعة والهدايا الثمينة.

وعندها شرع الخاقان يُمجِّد بخدمات الأمير تيمور الجليلة وأثنى عليه، ومن ثم أنهى حديثه مذكِّراً الأمير تيمور بالعرف المعمول به بعد جنكيز خان، وأن يكون الحكم بأيدي المنحدرين من جنكيز خان وزوجته الأولى «**بورتاري**»، وتعاهد مع الأمير تيمور على الصداقة والإخلاص الأبديين.

وأعلن ابنه «**إلياس خواجه**» نائباً عنه في حكم بلاد ما وراء النهر، ووضع تحت تصرفه جيشاً بقيادة الجنرال «**بيكجيك**» ليسهر على تأمين الطاعة له.

وعيَّن الأمير تيمور أميراً على منطقة شهري سيبز تحت إشرافهما.

ولم يغادر البلاد حتى أخضعها للحكم المغولي، بعد القضاء على الثورة في بدخشان بقيادة الأمير حسين حفيد المِلِك كورغان، وأتبع انتصاره بعملية تأديب واسعة وقاسية.

كما أنه قتل «**بايان سلدوز**» الذي فرض نفسه حاكماً على البلاد فيما سبق.

* * *

ثـورة الأميـر تيمـور

غدا الأمر جلياً أن الخاقان لا يخشى أو يحترم أي قائد تتري، إذ كانوا متفرقين مشتتين، ولم يستطع أحد منهم أن يُخضع المتمردين إلى سيطرته وسلطانه. وبعد اغتيال المِلك كورغان لم يعد بمقدور أي رجل الوقوف بوجه جشع وضراوة رجال طوغلوك البرابرة، فبعد أن نجحت خطة الأمير تيمور الأولى وأجلاهم دون قتال، لم يعد بالإمكان الدخول بخطة مماثلة، لما سبّبه قومه التتر من أطماع واقتتال وفوضى وتفرقة وعداوات، لم توقفها إلاَّ عصا المغول الكفرة وظلمهم وضراوتهم[1]، لذا انتظر الأمير تيمور ليرى عما تتمخض عنه الأمور الجديدة، وحاول وسعه التعايش مع الظروف المستجدة. إذ أن الحاكم المغولي والحامي كان له مهمتان:

الدفاع عن هيبة الخاقان، وعن ممثله في سمرقند.

ولكن لم يكد بيكجيك يتسلم زمام السلطة، حتى أخذ ينهب ويخرِّب ويعيث في البلاد فساداً، سواء أدفع زعماء القبائل ورؤساؤها الضرائب أم لم يدفعوها. وكان أشبه بلصٍّ نَهِمْ.

ولم يكن في عهده أي أثر لحماية السكان من الأمير الفاسد الذي يمثل الخاقان في سمرقند، إذ كان إلياس خواجه قليل الخبرة عاجزاً عن كبح تصرفات هذا القائد ومنعه عن التعرض للفلاحين والسكان بالسوء والأذى.

وما أن تناهى الخبر إلى الأمير تيمور، حتى رفع إلى طوغلوك الخاقان، تقارير حول الأعمال العدوانية التي يقوم بها قادته، ويستحثه على التدخل لوضع حدٍّ لها ومعاقبة المسؤولين، ولكن الشكوى لم تأت بنتيجة، ولم يحرك طوغلوك ساكناً.

قدم الإمام زين الدين إلى شهري سيبز من سمرقند، ووصف للأمير تيمور الويلات والكوارث المرعبة التي حلَّت بشعب سمرقند، من جراء جور حكام المغول، وعلى أثرها بعث الأمير تيمور شكوى شديدة اللهجة إلى طوغلوك، مستنكراً المظالم التي وقعت على الشعب وشجب أعمال القسوة والنهب فيها،

[1] وتلك الأيام يداولها الله تعالى بين الناس، ليتوب الظالم ويرجع عن غيّه ثم يسلطه على الظالم الذي تسلط عليه سابقاً ليردعه عن طغيانه.

ولكن الخاقان طوغلوك لم يكترث لرسالة الأمير تيمور وشكواه، وعندما لم تُجدِ السبل السلمية، رأى الأمير تيمور أن الوقت حان لاستعمال القوة مهما كانت ضئيلة، في سبيل جهاد مقدَّس يحفظ الأعراض والأموال للمساكين وينصر المظلومين.

ولما توافد إليه نبأ اختطاف المغول مائة من بنات سمرقند العذارى، وأنهم نهبوا الجوامع وبيوت مال المسلمين، وازدروا الأئمة، واستاقوا عدداً من رجال الدين للبيع في سوق الرقيق، توجه لمقابلة إلياس خواجه والجنرال بيكجيك، ليطلب منهما أن يتدخلا لإطلاق سراح المختطَفين، ولما لم يلق أذناً صاغية. ثارت ثائرته و لم يكن لديه من العُدد والرجال إلا قليل. فطلب من الإمام زين الدين أن يشجع الرجال ويقوي قلوبهم، وقام الأئمة والمشايخ والدراويش يرددون اسم الأمير تيمور في خطبهم ليجمعوهم عليه، ويفندون خطايا بيكجيك ويشجِّبونها، وأخذ المسلمون الغاضبون يتدفقون للانضمام إلى قوات الأمير تيمور والانخراط بخدمته، وسرت فيهم حميَّة ثائرة.

وهكذا قام الإمام زين الدين وصحبه من رجال الدين، بتهييج جميع المحاربين، وقاد الأمير تيمور بعدها ثلاثة آلاف جندي، وسار بهم نحو الشمال وتحت جنح الليل، حتى وصل إلى ما وراء سمرقند، حيث كان يعرف قلاع المغول في (**طشقند**)[1] وفي (**أوترار**) وأمكنة زجِّ الأسرى والسجناء، ليحرِّر بالقوة كل أسير يصادفه. وكان قد انضم إليه الأمير حسين بألفين من الرجال الجبليين، الذين أصبحوا أشد ضراوة عندما سمعوا رجال الدين والدراويش يصرخون ويدعون للدفاع عن كلمة الله.

وسقطت طشقند خلال ليلة واحدة في يد الأمير تيمور بيك، و لم يترك أي عدو حيّاً، وأعتق رجال الدين، وأعاد الفتيات إلى ذويهن، وأرجع أموال بيوت المسلمين.

ومن ثم سار بجيشه إلى أوترار، حيث ضرب حصاره حول المدينة المسوَّرة التي سقطت بسهولة غير متوقعة، وتمَّ تحرير الشعب التتري المستعبد بالأعمال الشاقة.

وتوقف جيش الأمير تيمور لتقديم الشكر لله.

ومن ثم عبر نهر سيرداريا، وسار باتجاه منحدرات (**كيرغيزيا**)، حيث كانت القبائل المغولية لا تزال تسيطر على عدد كبير من الشعب المظلوم: وشن هجوماً خاطفاً أوقع برجال تلك القبائل الهزيمة والموت،

---
[1] طشقند: عاصمة أوزبكستان. كانت محطة على طريق الحرير.

وحرر ما وجد من أسارى، ومن ثم التقى بكتائب سمرقند وفِرقها التي يعززها جيش طوغلوك، دُهش القادة المغوليون واتَّسعت عيونهم استغراباً عندما رأوا قوات الأمير تيمور الرائعة، والمحاربين البواسل والجنود الشجعان الذين يواجهونهم. كان كل واحد منهم في أشد الشوق لتحطيم القوات العدوَّة وإلحاق الهزيمة بها.

على نواياهم يرزقون

وأخذت الأمطار بالتساقط بغزارة، وظلت تنهمر طيلة الليل والنهار، وكانت الأرض منحدرة لينة رخوة.

وغرقت الخيول في الوحول الطرية اللزجة،بيد أن المغول كان لديهم عربات ذات عجلات كبيرة مرتفعة عن الوحول، ومستورة بأغطية سميكة. وهكذا تمت المواجهة مع الأعداء وهم في ارتياح تام وقوة متفوقة بالعدد والعُدد.

بدأت المعركة بشكل بطيء وملتوٍ، حتى أن كل محاولة لإطلاق النبال والسهام من قبل الفوج الاحتياطي الخلفي كانت عقيمة تماماً. وكانت المعركة معركة قراع بالسيوف فوق الخيول التي تغرق في الوحل، ومعركة ضرب قاسٍ بالفؤوس والبلط والرماح. وظل الرجال يصمدون في القتال حتى الموت، إذ لم يكن باستطاعة أحد أن يستدير وينتقل في الوحول. مما جعل حماس رجال الأمير تيمور يفتر،وتحدث ثغرة في صفوفهم ليندفع المغوليون ويتقدموا نحوهم بشراسة.

لكن الأمير تيمور أخذ يبحث عن راية قائد جناح المغول الأيمن، وتوجه نحوه ليرديه جثة دون رأس، بعد أن خيِّل له أن النصر صار بحوزته.

وهكذا سقطت راية المغول مع سيِّدها، وعلى الأثر أصدر الأمير تيمور المنتصر أوامره لقرع الطبول، فجذبت الأصوات أنظار الرجال نحو الراية، وأخذ الجنود المغوليون ينسحبون، إذ أصبحوا دون قائد. ومن ثمَّ صعد الأمير تيمور إلى مكان مرتفع من الأرض، وجال بنظره في أرض المعركة، وكان المحور لا يزال غامضاً، فالأمير حسين قائد الجناح الأيمن تراجع كثيراً إلى الخلف منهزماً، وبقي الرديف الاحتياطي يصدُّ هجمة الأعداء كي ينجو من الهزيمة التامة.

فجمع الأمير تيمور رجاله، وهجم على جناح المغوليين بالقرب من المؤخرة، وأوقع الاضطراب بينهم، وبعث بضابط إلى الأمير حسين كي يدعوه إلى اجتماع معه، ولكن حسين كان حامي الرأس، سبَّ

وضرب مبعوث الأمير تيمور إليه، واغتاظ من نصائح الأمير تيمور له، تعالياً وتكبُّراً عليه، وإذ ذاك انهزم رجاله تحت ضغط المغول، وهرب الجبان المتكبر الأحمق، عبر الوحول.

عندها دبت الشجاعة في قلب قادة المغول من جراء هزيمة حسين، وعاودوا ضغطهم الوحشي وهجومهم الشرس، وغدا الأمير تيمور وهو حيران، وأسقط في يده ما سبَّبه الأمير حسين.

ظلت المعركة حتى جاء الليل وعمَّ الظلام، وآنئذ تفرقت قوات الأمير تيمور، ووجد نفسه مجبراً على الانسحاب، مع إحساسه بألم مرير ووجع يقض قلبه من صنيع حسين، بعد أن كان النصر حليفه. لكنَّه كِبْر إبليس اللعين عبَر في صدر حسين فأغواه الشيطان، بلعنة إبليس اللعين:

﴿. .أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ. .﴾[1]، أنا حفيد الملك كورغان ويدعوني إليه، فاستكبر وقلبَ النصر المحقق، إلى هزيمة لا يعلم مدى كارثتها على المسلمين إلاَّ الله.

حقّاً كان حسين المعجب بذاته لعنة على البلاد والعباد.

* * *

---

[1] سورة ص: الآية (٧٦).

واجه ألفاً بستين جندياً

وفي تلك الأثناء، أصدر إلياس خواجه أوامره بإعطاء لقب الإمارة، لأي رجل يجلب له رأس الأمير تيمور.

فقرر الذهاب إلى أحد الجبال في جنوب سمرقند، إذ تشتت رجاله وصعب تنظيم القوات من جديد، والغدر متوقع من كل الجهات.

فكم وكم من الذين كانوا معه بالأمس، وقد أصبحوا له أعداءً فيما بعد بسبب التفرقة، وأشدُّكم بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل.

عندها ارتدى ثياب جنديٍّ عادي، وسار نحو النهر والصحراء البعيدة. رأى جماعات وشراذم من الفارين، بيد أن كل شرذمة تخاف الأخرى وتتفرق عنها، إذ ذاك جاء رجل من قبل زين الدين، يحمل إليه رسالة تشجيع، ونصيحة بالتوجه إلى خوارزم، والانضمام إلى الأمير حسين المهزوم، شقيق زوجته رغم كلِّ ما فعل.

وكان حسين يقيم مشرداً في خوارزم بعد هزيمته، واتجه الأمير تيمور إلى خوارزم ومعه نفر من الأتباع الذين اختاروا أن يواجهوا معه الشدة وشظف العيش، وكانوا يذهبون من بئر إلى بئر، إلى أن عثروا على الأمير حسين عند أحدها.

ولما اجتمع الأمير تيمور بالأمير الخبيث حسين، وبالرغم من أنه كان غاضباً منه إلا أنه لم يبدِ شيئاً من ذلك، وكان حسين متجهم الوجه جافاً كعادته، ضعيف العقل كثير التقلب، إلا أن الأمير تيمور كظم غيظه، وكان لطيفاً في سلوكه معه، ذلك أن حسين حفيد الملِك كورغان، لذا فالعمل معه يعطي الأمير تيمور وثورته نوعاً من الشرعية. وبما أنه لم يلتحق به إلى الجبال عددٌ كافٍ من الأنصار يمكِّنه من العمل الثوري بفائدة وفاعلية، لذا سار بنصيحة الشيخ زين الدين. وهناك أشار حسين على الأمير تيمور بالذهاب إلى (**خيفا**)، حيث اجتمعوا بحاكم المنطقة "**توكيل بهادور**" عارضين عليه الاشتراك معهما في

الثورة ضد مغول الشمال، ولكن هذا الحاكم لم يكتف برفض عرضهما فحسب، بل سعى للغدر بهما واعتقالهما ثم بيعهما للمغول.

وبناء على ذلك فقد أسرعا بمغادرة المكان إلى (**أوركِنج**) المدينة الثانية في خوارزم، ولكن توكيل بهادور تعقَّبهما بألف من فرسانه، وبعد معركة جرت عند سفح أحد التلال الصحراوية، تمكن الأمير تيمور وحسين من الإفلات والفرار من مطارديهما، وكاد حسين أن يُقتل في المعركة لولا أن أنقذه الأمير تيمور من الموت بحركة جريئة، وتوغل الجميع في الصحراء، ولم يكن قد بقي معهم حيّاً من الأتباع الستين سوى ثلاثة أفراد.

بالرغم من أن حسين كان يرى نفسه متفوقاً على الأمير تيمور الذي يصغره سناً، إلا أنه أصبح يعترف بكفاءته العظيمة للكفاح والصراع، بعد أن نجح بستين رجلاً من أتباعه ضد قوات (بهادور) الألف الذين بدؤوا هجومهم بشكل علني وسريع.

تفصيل الصدام:

وكان الأمير تيمور على أشد الاستعداد برجاله، إذ قام بتحرك ومناورة سريعة أطمعت المعتدين بأخذهم أسرى، ومن ثم أطلق السهام والنبال إلى خلفهم، وأوقع الاضطراب والارتباك بين صفوف مطارديهم الذين لا يعبؤون بهم، والذين لم يكونوا قد تعلموا طرق فرقة الأمير تيمور في استعمال السهام والنبال.

وفي تلك الآونة التف برجاله واستدار منقضّاً بشكل هجوم صاعق على الحرس الخاص للحاكم بهادور،والذين يشكلون القوة الرئيسية بين رجاله، وسدد سهامه نحو الحاكم، وقام بطعنه وتركه مستلقياً على الأرض لا يقوى على الحراك، مما أثار الاضطراب داخل الصفوف. وقد لمح الأمير تيمور أن حسين منفصلٌ عن الرجال، وصار على مدى سهام الأعداء فقام بحركته الجريئة التي أنقذه فيها من الموت.

وبعدها دامت المعركة حتى حلول الليل وهبوط الظلام، حيث تمكن الأمير تيمور وحسين من الإفلات والنجاة بنفسيهما مع ثلاثة أفراد، ولم يُدْرَ ما جرى مع الأتباع الباقين المتفرقين لقلة عددهم حتى ذلك الحين.

ضرب الأمير تيمور ورفاقه في الليل على غير هدى، ومن ثمَّ استعرض مع حسين الموقف واتفقا بالنتيجة على الافتراق، تجنباً لاحتمال اكتشاف أمرهما، ومن ثم اللقاء ثانية إذا أمكن في خراسان.

استفسر الأمير تيمور من الرعاة عمَّا إذا كان هناك درب يؤدي إلى خارج الصحراء، فأرشدوه بعد أن رأوا حُسن معاملته، إذ اشترى عدداً من الماعز وكان سمحاً معهم، وقالوا له: (**إن هذا الطريق يؤدي إلى بعض أكواخ يسكنها التركمان**).

وصل الأمير تيمور إلى أكواخ بدت وكأنها مهجورة، وما كاد يفعل شيئاً حتى تعالت الصيحات حوله. إذ كان التركمان يعقدون اجتماعاً لسبب ما في أحد الأكواخ. وقد ظنوا أن الأمير تيمور ورفاقه من اللصوص فهجموا مبيِّتين الأذى والشر، ولكن الأمير تيمور شهر سيفه ورفاقه أمام المهاجمين وتقدم للقائهم، وبحركته هذه وضحت صورته الشامخة لهم، فعرفه زعيمهم، وكان قد رآه في شهري سيبز، فأوقف جماعته وتقدم منفرداً ليعانق الشاب الأمير، وهو يهتف دهشاً:

(**إي والله إنه سيد ما وراء النهر**)!..

تحلَّق القوم حول الأمير تيمور يسألونه الصفح عمَّا بدا منهم، ثم أَوْلَموا وذبحوا الخراف وأحسنوا ضيافتهم، وفي صباح اليوم التالي قبل التحرك للمسير أعطى الأمير تيمور زعيمهم هدايا ثمينة، كما قابل التركمان هذا الكرم بتقديم ثلاثة من أحسن خيولهم للأمير تيمور.

* * *

الأسير الكبير

بعد اثني عشر يوماً ضرب بها الأمير تيمور في الصحراء، بحثاً عن طريق خراسان، ولما بلغوا القرية الأولى، كانت خرائب مهجورة، وفي تلك الآونة وجدوا رجالاً فارسيين يملكون خيولاً قوية، يعسكرون حول أحد الآبار، ولما كان الأمير تيمور ورفاقه[1] يرتدون ثياباً تشبه ثياب الفلاحين، فإنهم لم يثيروا أي اهتمام لدى أولئك الرجال.

ولما أخرج الأمير تيمور كيس مجوهراته، شاهد قائد الرجال الكيس الذي أخرجه الأمير تيمور ليشتري بعض الطعام والمؤونة منهم، وهنالك سأله قائد أولئك الرجال بلهجة الشك والريبة:

(أنّى لك هذا)؟!.

فأجابه الأمير تيمور:

(لقد أعطاني إياها سيدي الأمير).

وأخذ ذلك الرجل يفتح الكيس الذي حمله إليه وقال له:

(إنك قد تكون سرقت سيدك أيها الرجل).

وبدت عليه دهشة غريبة، وتطلَّع بنظرة حادة وقال:

(ليس لدي الحق في أن أبيعك، وإن الأفضل لي أن آخذك إلى رئيسي علي بيك).

ولما وصل الرجال القبيلة، خرج علي بيك ليسأل الأمير تيمور قائلاً:

(من أين حصلت على هذه الغنائم أيها الرجل)؟!.

- **(لقد حصلت عليها من سيدي الذي يُحبني كثيراً).**

- **(ومن هو سيدك هذا)؟.**

- **(إنه الأمير تيمور، رئيس قبيلة البرلاس، وخادم الله).**

فأجاب رئيس القبيلة بجشع:

---

[1] ملاحظة: تقول المصادر أن زوجته وخادمه كانا معه فقط زوراً، فضربنا عنها صفحاً من الذكر لأنها لا تحمل إلا التقليل من شأن المدبِّر والسائس الأول للعالم، لاسيما أن تلك الأقوام القاطنة وراء النهر لا يقدمون على ذكر امرأة فكيف بسيِّدهم؟!. وهذا ما أورده الأعداء عن السلطان العظيم.

(لقد سمعت به، ولكنه ربما يستطيع أن يدفع كمية أكبر من أجل فديتك). واستولى على كل ما كان مع الأمير تيمور. واستودعه أسيراً عنده، وصار يحاول إيجاد طريقة كي يحصل على الفدية من شهري سيبز، وشرع يبحث عن أحسن السبل للمساومة على أسراه، ومن ثم أدرك صنيعه إذ عرف أن أسيره هو سيد شهري سيبز.

وقد أشاع الأمير تيمور أنه مسافر ومتخفٍّ كي يدرس ويعرف المشاكل المؤلمة القاسية التي يعاني منها العبيد والطبقات الفقيرة الكادحة، عندما تحقّق أن علي بيك لم يسمع بمطالبة الخاقان برأسه، ووعْده بأنه سيعطي جائزة كبرى لمن يجلب له رأس الأمير تيمور.

أحسَّ علي بيك بمضاعفات عمله وخشي النتائج، لذا أخذ يسعى وراء مساعدة أخيه «**الشيخ ابن سعيد**» الذي كان رئيساً لفرقة من الرجال، وصديقاً للشيخ علي بن الشاه مالك.

وفي الحال أرسل ابن سعيد الهدايا إلى الأمير تيمور، وأمر أخاه علي بيك أن يطلق سراح أسيره، وإلا فإنه سيجلب على نفسه غضب شعب البيجوم شيرزا، زوجة الأمير تيمور. وقام علي بيك بالمعاملات الودية التي تنم عن روح المصالحة، وخاطب الأمير تيمور بلهجة ليِّنة: **(لقد ارتكبت بحقك خطيئة أيها الأمير تيمور، ولكن كان يتوجب عليك أن تخبرني أنك أنت الأمير زوج سيدتنا المبجلة البيجوم شيرزا)**.

فأجابه الأمير تيمور: **(لو قلت لك ذلك فإنك ما كنت لتصدقني، ولكن بما أنك قد عرفت الحقيقة الآن، فأطلق سراحنا في الحال، ثم أعد إلي مقتنياتي، وأعطني خيولاً جيدة)**. فقـــال: **(طبعاً إنني سأطلق سراحك، ولكن يجب عليك أن تعلم أن استضافتي لك خلال الشهرين الماضيين قد كلَّفتني غالياً، لذا فإن جميع ممتلكاتك ومقتنياتك وحتى الهدايا التي استلمتها من أخي لا تكاد تفي بالتكاليف التي أنفقتها عليك. إنها ليست مترفة وأنيقة كقصرك أيها الأمير، ولكنها أحسن ما أستطيع تقدمته، وإنك ستكون أكثر لطفاً وتكرماً مني، وإنني سأقوم بتجهيز حوائجكم لمتابعة رحلتكم الميمونة)**.

علم الأمير تيمور أن هذا الرجل علي بيك يستعد أن يخوض حرباً ضروساً لقاء تلك المقتنيات، إذ كان عمله جزءاً من عمليات السلب والنهب وقطع الطرق التي توقفت بفضل زواج الأمير تيمور بيك من البيجوم شيرزا. لذا تركه وشأنه يحتفظ بما أراد إذ لم تكن الفرصة أبداً سانحة لتأديبه.

وانصرف الأمير تيمور إلى سمرقند كي يجمع بعض الرجال حوله، إذ من الخَطر أن يظل وحيداً فريداً، وخصوصاً أنه اتفق مع الأمير حسين على الاجتماع في مكان عيَّناه، بعد أن يجمع كل منهما بعض الرجال ليكون بطوقهما مقاومة القوات الكثيرة التي تحاول قتلهما.

* * *

في ضواحي سمرقند

عبر النهر بسرعة، ووصل إلى الحقول الخصبة، حيث كان الناس لا يزالون يذكرون أيام عيشهم الرغيد في ظله. وقد وجد معاملة لطيفة من الفلاحين طيِّبي القلوب، ولم يجد أية صعوبة في ذهابه إلى كومرود، وخلال الأشهر التالية أرخى الأمير تيمور لحيته، حتى جاء فصل الشتاء، وأخذت الثلوج تتساقط، ومن ثمَّ عبر الممرات والمضائق الجبلية، حتى وصل إلى التلال القائمة فوق مدينة سمرقند، عندئذ لبس مرة ثانية ثياباً تشبه الرعاة، وحمَّل أمتعته على حمار صغير، ومر إلى داخل سمرقند دون أن يهتم الحراس بأمره، رغم أن بعض أولئك الحراس قد خدموا وعملوا في فرقته الشخصية، وأقام في المدينة طيلة ثمانية وأربعين يوماً، ومغول الشمال منتشرون فيها، ودائبو البحث عنه في كل الأنحاء.

اختار منزل أخته (**قتلغ توركان**) كمقر له، وكان يذهب في الليل إلى الخانات ليلتقط الأخبار. واجتمع بعدد من أصدقائه المخلصين، حيث كان يفكر بقيادة انتفاضة فجائية في المدينة. نعم لقد خاطر بحياته ولكن دون جدوى. إذ لم يكن بالمستطاع عمل أي شيء ضد سلطة الخاقان في ذلك الوقت. فقد كان الزعماء وشيوخ القبائل حول سمرقند معتادين على السير خلف زعيم عسكري، وكل رجل يستطيع أن يذيقهم طعم الانتصار وثماره، سيكونون أوفياء له.

ورغم أن مغول الشمال يحكمون قبضتهم على المدينة، ويعتدون على الناس ويفرطون في أعمال السلب والنهب، فإنهم كانوا يَعتبرونهم الممثلين الشرعيين لسلطة جنكيز خان، وعلاوة على ذلك كانوا منتصرين، وحفيد المِلك كورغان حسين مشرَّد هارب. ولم يجدوا أي أمل في السير وراء الفتى الأمير تيمور بيك الأعزل من الجند.

إلا أن الأمير تيمور لم يرحل ويترك سمرقند حتى رأى الإمام زين الدين ليتفق معه على خطط جديدة، وقد اجتمع الأمير تيمور بالإمام زين الدين، الذي خاطبه بلهجة مؤثرة عن الأحوال في سمرقند قائلاً:

(أما الأوضاع هنا فهي من سيء إلى أسوأ من أي وقت مضى، وحتى أنا الإمام العجوز، فإنه يتوجب علي أن أعيش مختبئاً، وإن الأحوال التي نعاني منها هنا تسود أيضاً في بخارى وخوجندة

وكارشي، وفي كل مكان وراء النهر، وليس ثمة أمير تتري يستطيع أن يقودنا، وإنك أنت الأمير الوحيد الذي جَرُؤَ على الاقتراب من قلاع المغول، وإن الله يختار قادته يا تيمور بيك، ولا يستطيع أي إنسان أن ينكر الله، وما عند الله خير للجميع. ثم إن مجيئك إلى هنا ليس إلا من تدبير الله ومشيئته، ولقد صلَّينا وتوسلنا من أجل قائد مناسب، وها أنت قد عدت الآن إلينا.

وإن المؤمنين لا يزالون يثقون بك، وقد استطعنا أن نقنعهم أن الله قد أنزل المطر فوق المنحدرات كي يدعوهم من أجل التوبة عن الكبرياء العنيفة التي سرت فيهم إثر انتصاراتك الأولى).

وكشف الأمير تيمور بيك عن خطته للإمام زين الدين، وطلب منه أن يصلِّي كي يترل سوط الله على خيول المغول ويبيدها، إذ أن قوة المغول تموت عندما تموت خيولهم.

وارتحل الأمير تيمور مع أربعين من رجاله سعياً وراء عشب مميت في صحراء (**كيزيل كوم**)، وقد وجد المكان بسهولة تامة، وعسكر بالقرب من البئر، وأكلت ثلاثة خيول بعض العشب المميت، وبدا تأثيره واضحاً، إذ أخذت الخيول الثلاثة تترنح وتكاد تسقط، واغتبط الجنود وشعروا بالفرح والنصر القريب، ورجع بقافلته المحملة بأكياس العشب المميت وبذاره، إلى قلاع المغول.

انطلق مع عشرة من خيرة رجاله إلى شهري سيبز، وقاد القافلة عبر مضيق للهرب "سرداب" تحت جدار القلعة، يصل إلى مكان منعزل في الحديقة الخاصة بالخيول، ونثر البذور، وكذلك قام بزراعته بالمناطق الأخرى التابعة للمغول، وباتت المسألة مسألة انتظار حتى الربيع.

انكشف أمر وجود الأمير تيمور في سمرقند، وجاءه من يحذِّره، فخرج راحلاً حتى عبر أموداريا إلى الضفة الجنوبية، ونزل في إحدى القرى القريبة من النهر التي اتفق مع أتباعه على التجمع فيها واللحاق به.

وخلال شهر أقامه الأمير تيمور يرسم الخطط. أخذ الأنصار يوافونه يوماً بعد يوم، إلى أن بلغ عددهم ألف رجل وهم بازدياد، وكان الجامع بينهم الجهاد المقدس ضد الحكم المغولي المغتصب، والحفاظ على كرامة رجال الدين، وبعدها قرر الأمير تيمور الذهاب إلى قندهار، للاجتماع مع الأمير حسين كما أشار الشيخ زين الدين من قبل، وسلك بفوجه الطرق المتعرِّجة بين الجبال، وقد تعرضوا أكثر من مرة إلى غارات الأفغانيين الذين كانوا يجهلون من يهاجمون، حيث كان النصر دائماً حليف الأمير تيمور بيك.

ولما تجاوز بفوجه الجرف المؤدي إلى وادي كابول، دار حول المدينة دون أن يصطدم مع حاميتها.

واشترى من القرى خيولاً وغنماً، ومن ثم استلم طريق قندهار ليجد الأمير حسين في انتظاره مع جيش كان مماثلاً لجيشه كمّاً، وبلغ مجموع عدد قوات الحليفين ستة آلاف رجل.

* * *

سفاهة الأمير حسين ونتائجها السيِّئة

استنجد حاكم منطقة سيستان «**جلال الدين محمود**» بالأمير تيمور وحسين إثر ثورة اندلعت ضدَّه، ووافق الحليفان، وتحركا إلى ميدان القتال واقتحما معظم معاقل الثوار الحصينة، إلا أن حسين وجنده أخذوا يسيئون إلى السكان، فيسلبون القرى ويشغلونها بحاميات مقيمة، مما أثار ندم جلال الدين محمود على تعاونه مع حسين وحتى مع الأمير تيمور بالتبعية. ونزل عند رغبات رعاياه الثائرين مقابل أن يقفوا معه ضد قوات حسين والأمير تيمور.

وتحرك حاكم سيستان ليلاً لينضم للثوار ويشتبك بمعركة فيها الأمير تيمور بيك ضده، وقد مُني بهزيمة منكرة وكسر فيها.

توجه حسين يقصد الشمال مع قواته، وبقي الأمير تيمور في تلال أرصوف، وشرع يعيد تنظيم قواته ويعدُّها للقتال ضد المغول.

كانت هذه القوات بازدياد مستمر بسبب هجرة السكان المحليين المتزايدة جراء طغيان المغول فيما وراء النهر، وسعى الأمير تيمور تأميناً لحاجات الجند إلى مد نفوذه دون الإضرار بالسكان، ومع الحرص على مصالحهم ولاسيما المزارعين منهم، عكس ما فعل الأمير حسين لسكان منطقة جلال الدين محمود السالف الذكر.

ولما أنس هؤلاء بالأمير تيمور وجنده أخذوا يجلبون إلى معسكره ما تنتجه مزارعهم من محاصيل ويتلقون أثمانها بكل أمانة.

* * *

حماقة الأمير حسين

غالى الأمير حسين في تقديراته، فهاجم خصومه بمفرده لينال الفخر، متحرشاً مع أقرب جيش لمغول الشمال. فتلقى ضربة زلزلت كيانه وبعثرت قواته، وقد فعل ذلك مخالفاً لرأي الأمير تيمور بيك.

واتخذ الأمير تيمور بيك الإجراءات المناسبة، وغادر أرصوف متوجهاً إلى الشمال، ليلمَّ شعث أتباع حسين الذي أغضب الأمير تيمور بإقدامه على معركة فاشلة غير متكافئة.

وكان هذا الفشل يعني جمع الرجال من جديد، وبث روح الجرأة في قلوبهم وليس أحرج من الفشل في مثل هذه الظروف الحرجة.

وتحرك بجماعته الصغيرة على حذر، منقبض النفس لاجئاً إلى الصيد من أجل الطعام.

وعسكر ينتظر حسين قرب نهر أموداريا الأعلى، حتى عيل صبره.

وذات يوم إذ به يرى جماعة تتقدم نحوه، فأسرع نحوهم بمفرده وصاح بصوت عال:

(من أنتم... وإلى أين تقصدون)؟.

وكان يقوم في الجهة التي جاؤوا منها حصن لجند الخان من جهة بالخ، فظن الأمير تيمور أنهم أعداء وحينذاك أجابه رجل:

(نحن من رجال الأمير تيمور وقد بلغنا أنه في هذه الجهة، فجئنا في طلبه).

وكان الصوت غريباً لم يستطع الأمير تيمور معرفة صاحبه، وكذلك كان يجهل أشكال الجماعة التي كانت تتقدم نحوه في جنح الظلام، ولكنه راح يقول:

(وأنا أيضاً من رجال الأمير تيمور، فإذا أردتم مقابلته فإن باستطاعتي أن أدلَّكم على مكانه).

وأبدى الرجال فرحاً لوجود دليل يقودهم إلى مقر الأمير، وعندئذ تقدموا مغتبطين، فلما أبصروه وعرفوا أنه الأمير تيمور نفسه، سقطوا أمامه راكعين، وانحنوا يقبلون ركابه. كانوا ثلاثة من قادة قبيلة البرلاس، ومعهم ثلاث كتائب من الخيالة.

أخذ القوم يتحدثون إلى الأمير تيمور بما جرى ووقع في غيابه.

وفي تلك الأثناء جاء أحد رجال الاستطلاع يقول أنه شاهد فرقة من جنود الخاقان تتقدم وهي تنهب وتحرق كل ما في طريقها، ويقدر عددها بعشرين ألفاً بقيادة الجنرال بيكجيك القدير.

أثار هذا الخبر عواطف الأمير تيمور، إذ كان يعلم عادات مغول الشمال، وكيف أنهم لا يعرفون من أمور الحرب إلا السلب والنهب وحرق المدن وتدمير المزارع. وآلمه أن تنال قومه والمسلمين الأرزاء والمصائب، وأن يصابوا في أرضهم ومنازلهم وأهلهم. مع علمه أن تفرقتهم لضعف إيمانهم هو السبب بما أصابهم، ولكنه صبر.

بلغ جيش الأمير تيمور خمسة آلاف فارس، وكان يعلم أن القبائل المحلية المقيمة عبر نهر أموداريا مستنكرة لأعمال هذا الجيش المغولي، وباستطاعته أن يجمع حوله قوة يستطيع معها مهاجمة المعتدين وردَّهم، لذا قرر العبور إلى الضفة الثانية للقتال، إذ أن القتال بمن معه كثير الخطر.

قام الجنرال بيكجيك بتحريك قواته على الضفة الشمالية لتغطية جميع نقاط العبور الممكنة، وقام الأمير تيمور بمشاغلة الجيش المغولي عن عمليات السلب والنهب بتحركه على طول النهر شهراً كاملاً، وبيكجيك يتابعه ويتحرك على موازاته في الضفة الأخرى، وقد كسب الأمير تيمور خلالها فرصة لانضمام عدد أكبر من الفرسان إلى معسكره. وراح يطاول خصومه ويماكرهم، حتى استقامت الأمور، والخطة التي اعتزمها: تهيأت لها المنطقة الجبلية المناسبة.

* * *

خدعة بالنار

وهناك عند جسرٍ حجري حطَّ رحاله متظاهراً بالتحدي وعدم المبالاة، وفي إحدى الليالي والجيش المغولي المتفوق بالعدد والتجهيزات، والوضع النظامي مطمْئِن للبال. أفرز الأمير تيمور خمسمائة خيال بإمرة ضابطين يعتمد عليهما، وترك هذه المفرزة لحراسة المعسكر والجسر، وركب وبقية الجيش وانطلقوا في جنح الظلام من وراء الجبل حتى أصبح وراء العدو، وتابع السير إلى داخل التلال التي كانت تشكل نوعاً من نصف دائرة مواجهة للنهر، واكتشف المغول آثار العبور الليلي، وعرف بيكجيك أن قوة كبيرة قد عبرت النهر وصارت في مكان خلفه، وكان واضحاً أن المعسكر التيموري عند الجسر باقٍ لم يتغير فيه شيء و لم يُنتقص منه أحد.

كانت خطة الأمير تيمور إذا هاجم المغول الجسر والمعسكر القائم عنده، فعلى المفرزة أن تتصدى لمقاومتهم والصمود، في حين يقوم الأمير تيمور بالانقضاض على المغول من خلفهم.

بيد أن بيكجيك بقي ساكناً طوال النهار، فعمد الأمير تيمور إلى توزيع قواته إلى جماعات صغيرة على المرتفعات، على شكل نصف دائرة باتجاه العدو، آمراً كل مجموعة بإشعال عدد من النيران.

وكان لمرأى هذه النيران على الجيش المغولي أثره الكبير، إذ أسرع بيكجيك بقواته لمغادرة موقعهم ليلاً في حركة تراجعية نحو الشمال، وعندها انقض الأمير تيمور عليهم بهجومه الصاعق في هجمات على جانبيه من يمين وشمال، حتى أفلت زمام الأمر من يد الجنرال المغولي، فدبت الفوضى في صفوف الجنود، وتقهقروا منهزمين، ورجال الأمير تيمور تطاردهم دون هوادة. وقدم الأمير حسين برجاله متأخراً، ينتقد الأمير تيمور لمهاجمته عدواً منكسراً هارباً، ولكن الأمير تيمور قال له:

(إنهم لم يفشلوا حتى يصحَّ فيهم هذا الوصف، ولكنهم تراجعوا لما انطلت خديعتي عليهم، وأحسوا بأن هناك قوة أمامهم).

ومن العجب أن ينتقد المهزومُ المنتصرَ، وما ذلك إلا لشدة جهله بالتكتيك القتالي.

وعلى كلٍّ لم يأبه الأمير تيمور به، واستمر على المطاردة.

وانسحبت قوات المغول تجاه شهري سيبز لتعسكر في (قبي - متن).

* * *

وخديعة أخرى بالغبار
فالنصر الساحق

التحق عدد كبير بالأمير تيمور بعد أن فشى أمر انتصاره، ولكنهم لا يزالون دون حجم عدوهم عدداً وعدَّةً، فكان عليه أن يتحرك بسرعة، قبل أن يكتشف العدو ضآلة قواته بالنسبة لقوته.

رتب أموره، وانتخب قادته، وعوَّض أهل القتلى والجرحى، وظل متأهباً حذراً، واتجه بمن معه نحو باب الحديد. وبينما هو في الطريق، اختار ستمائة فارس وجعل قيادهم لأحد أقربائه، وأمرهم بالتقدم نحو شهري سبز، ولما بلغ هؤلاء ضواحي المدينة، أخذوا يطوفون حولها وهم يسحبون على الأرض أغصان أشجار مورقة، وأثاروا بذلك غباراً كثيفاً.

كما أنه أمر عدداً من الجند المترجِّلين بالتسابق في شبه دائرة، بعيداً عن حصون المدينة، وإثارة الغبار خلفهم، ما يبعث على الظن بأن المحاصِرين كثيرون، وقد نجحت هذه الحيلة أيَّ نجاح، إذ الهزم المغول وتركوا المدينة على عجل، لاعتقادهم بضخامة المهاجمين، وخلت إلا من ساكنيها المحليين.

ومن ثم أسرع الأمير تيمور إلى موقع **(قبي - متن)** حيث كانت حشود المغول، واجتمع مع الأمير حسين، وكان أنصارهما في تزايد مستمر، بعد أن أخذ المجندون من أهل البلاد في جيش المغول بالفرار والالتحاق بقوة الأميرين المتحالفين.

كان إلياس خواجه يثق بجيشه وبقادته، نظراً للتفوق الكبير في العدد والتجهيزات، ودارت المعركة وتحولت ضده هذه المرة أيضاً. واستطاع الأمير تيمور بفضل هجماته التي كان يقودها بنفسه، والتكتيكات الحربية الإبداعية، أن ينتزع النصر، حتى أنَّ المعركة انتهت بأسر إلياس خواجه نفسه، مع أغلب قادته ومنهم بيكجيك.

عامل الأمير تيمور أسيره إلياس خواجه باحترام وأطلق سراحه. واحتفظ بالقادة الآخرين في الأسر، إذ كان يعلم ما ستصل إليه البلاد من الفوضى بعد قتله، وخصوصاً أنه أصبح خاقاناً بعد وفاة أبيه

طوغلوك. و لم يرد أن تصبح الشعوب المجاورة ولو كانت معادية في حروب محلية، كما آلت إليه شعوب ما وراء النهر قبلها بعد مقتل المِلِك كورغان.

كما أنه لا يريد تعريض بلاده إلى مزيد من أعمال التنكيل، إذ الاحتفاظ به أو قتله سيكون دافعاً إلى مجيء المزيد من قوات المغول الشمالية.

أسرع إلياس خواجه إلى العاصمة (ألماليك) لاستلام عرش أبيه قبل أن يحلَّ به أحد المغتصبين، وقد عرض الأمير تيمور على القادة المغوليين الأسرى ومعهم بيكجيك الذي كان أشد أعداء الأمير تيمور الانخراط في صفوف قواته، بعد إكرامهم، ولكنهم لم يقبلوا، فأطلق سراحهم، راجياً بذلك كسر حدَّة العداء لدى المغول، وقد تحقق رجاؤه بعد ذلك، إذ التحق عدد كبير من القادة وأبناؤهم بالأمير تيمور «**ليُعلنوا إسلامهم**»، ومنهم «**ابن القائد بيكجيك**»، الذي أصبح من أشد أنصار الأمير تيمور.

وكما أصدر الأمير تيمور أمراً إلى بعض قادته بالتقدم إلى سمرقند، واندفع هو وباقي القوات والأمير حسين نحو الشمال، حيث كانت قوات مغول الشمال تحتشد في نواحي خوجندة، فلما علمت بتقدم الأمير تيمور ومعه حسين عبرت النهر مبتعدة نحو الشمال.

عادت حليمة لعادتها القديمة[1]

ما إن زال خطر (مغول الشمال) عن بلاد ما وراء النهر، حتى عادت الخلافات تظهر بين الأمراء ورؤساء القبائل، ورغبتهم في الانفصال عن الحكومة المركزية.

ووطَّد كل واحد منهم العزم على تحقيق ذلك، وكلُّهم حاولوا الوقوف بوجه «**الأمير تيمور**»، ومنعه من الانفراد بحكم البلاد، ونادوا بأحد أفراد أسرة «**جغطاي**» بن «**جنكيز خان**» ويدعى كابول على عرش ما وراء النهر.

* * *

[1] مثل شعبي يُضرب لمن اعتاد على عادة سيئة ما أن ينتهي عنها حتى يعود إليها.

عودة الخاقان إلياس خواجه

توجه إلياس خواجه على رأس جيش لجب إلى بلاد ما وراء النهر، حوى كل قوى الشمال من جموع المحاربين المنضبطين المتمرسين، على متن أفضل خيول آسيا، لأخذ الثأر وكشف عار هزيمته السابقة.

كان الأمير تيمور ينتظر منه هذا، فكان يستعدُّ له ويبعث طلائعه وعيونه ليقف على حركات الخاقان وعدَّة رجاله.

وعمد إلى توحيد جماعات التتار من البهاتور والبرلاس وقبائل الأفغان وجماعة الجلاير وغيرهم، وكانوا كلهم فرساناً، كما أدخل الخدم والعبيد مشاة في الجيش. وكلف الرعاة بحراسة المخيمات.

تحرك الأمير تيمور بقوّاته إلى الشمال وعبر سيرداريا قرب خوجندة، وتبعه الأمير حسين فعسكر بقواته بمنأى عن الأمير تيمور، رافضاً العمل وفق خطة الأمير تيمور بيك.

وقف الأمير تيمور ورجاله في القسم المعرَّض للخطر أكثر من سواه، حيث كان يعرف في رجاله الجرأة والشجاعة، والتضحية والثبات، وهم رأوا في قائدهم الشجاعة التي لا تماثل، والبراعة التي لا تبارى، لذا كان الفرح يغمرهم، واليقين بالنصر مرآهم، وكانوا يقدمون إلى المعركة وصليل السيوف يتعالى، باسِمي الوجوه، كأن أحدهم في ليلة فرحه، كيف لا وإحدى الحسنيين قبالهم، إما الشهادة أو النصر.

هاجم المغول حسيناً في بادئ الأمر فشتتوا قواه، ولكن الأمير تيمور بيك أنقذ الموقف إذ لمع في ذهنه خاطر جريء... فأصدر أمره بالتقدم والاندفاع غير النظامي، ومرق بين جنوده كالسهم الخاطف إلى قلب الجيش المغولي، بفرسانه من البرلاس، وسيفه مشهور في يده، يقطع ما أمامه من رؤوس وخيل ورجال. حتى وصل إلى حامل الراية، فسقط هذا تحت ضربة من أحد رجال الأمير تيمور، وأُسقط في يد المغول، لما رأوا صاحب علمِهم قتيلاً، وأخذ بعضهم يولُّون الأدبار، وتعالت صيحات التتار، ودقّات الطبول، فارتج على قيادة المغول أمرهم، وظنوا أن النصر لخصومهم، فاضطرب تماسك صفوفهم، وشرعوا في الانسحاب.

ورأى الأمير تيمور أن هذا الانسحاب الافرادي يكون عاماً إذا اندفعت جموع التتار تتأثرهم، ولكن حسيناً أبى الاستماع إلى نصيحة الأمير تيمور، ففاتت الفرصة.

ثم عاد المغول بجموعهم لما وراء النهر، ولو أن الأمير حسين تولاه بالمساعدة، لتم إنقاذ بلاد ما وراء النهر من المغول. ولوُطِّد مُلك التتار فيها، ولكن حيث عاد الاختلاف بسبب التنافس على العلوِّ في دنياهم، فإن المغول بجموعهم عادوا مهاجمين.

(**والظالم سيف الله ينتقم به ثم ينتقم منه**).

* * *

العشب المميت

وعرض الأمير حسين بلا حياء على الأمير تيمور الذهاب إلى جهات الهند فأبى، وقال له إذهب وحدك إذا أردت، أما أنا فسأبقى في بلادي.

وعاد إلى المدينة الخضراء (شهري سيبز) يجمع جنوده، وهو يشحذ همم الرجال من جديد إذ أن شهر الربيع قدم، والعشب المميت سيفتك بخيول الأعداء.

وكان المغول في هذا الوقت قد ذهبوا إلى سمرقند ليحتلوها. وضربوا الحصار حولها. وما حصل في هذه الأثناء أن رجال الأمير تيمور أخبروه بأن رجال الخاقان لم يتمكنوا من الدخول إلى سمرقند، إذ تصلب سكانها في الدفاع عنها وردوا للمغيرين سهامهم إلى نحورهم، وقد وُفقوا إلى حد كبير في ذلك، وكانت هذه خطته بالصبر والمقاومة بانتظار أكل خيل العدو العشب القاتل، ثمَّ علم أن الطاعون قد نزل بخيل المغول فأرداها،والخطة قد نجحت.

سُرَّ الأمير تيمور بهذا الانتصار، حيث لم يعد بمقدور المغول المكوث مع الجثث المتعفنة للخيل، كما أنهم لا يستطيعون قتالاً دونها، ولم يكتشفوا سر ترنحها وسقوطها ميتة،وظنوها لعنة من الآلهة حلَّت عليهم، وهكذا شُلَّت حركة المغول، وأخذوا يتدفقون نحو الشمال مشياً على الأقدام.

وهبَّ رجال السهل البسطاء وحملوا السلاح دون أن يكون ثمة أمير يقودهم، وطردوا أعداءهم.

كما أنهم طلبوا العون من الأمير تيمور، فهرع إلى نجدتهم وأخذ يطارد الغزاة المنسحبين ويدفعهم إلى مغادرة البلاد بسرعة.

واحتفلت سمرقند بالنصر فتعالت التكبيرات من المآذن، وأقيمت صلوات الشكر، ودخل الأمير تيمور سمرقند، واستقبله أهلها بحماسة.

ولما علم الأمير حسين الهارب بذلك ساوره الحسد، لذا عاد إلى سمرقند على رأس جيشه ودخلها دخول الفاتحين.

بحث عن أحد حفدة جنكيز خان فأقامه (**خاناً**)، وراح يحكم باسمه كما كان الحال مع جدّه المِلِك كورغان.

لم يكن يخفى على حسين عمل الأمير تيمور ويده الكبرى بطرد المغول.

ولم يجد الأمير تيمور بذلك الوضع المتردي والاختلاف سبباً وجيهاً كي يدع جميع البلاد التترية تعلم من هو الذي هزم المغول ودمَّر قوة فرسانهم، بل إن ذلك يزيد في الصعوبات أمامه. ذلك أن الأمراء الطموحين الذين يتحدُّون بعضهم من أجل العرش سيقومون بمحاولات لقهره، إذ سيعتبرونه المنافس الأول، ولا بدَّ أن حفيظة حسين ستزداد حنقاً وغضباً بسبب تعظيم الشعب للأمير تيمور بيك.

هذا وإن سوء التفاهم كان يزداد قوة بين رجال حسين وفِرَق الأمير تيمور، إذ كان حسين يكره الأمير تيمور ويحسده على ما يناله من أمجاد، وما تحمله إليه فتوحاته من احترام رجاله له، والامتثال لأمره.

وأصبح الأمير تيمور شخصاً من الدرجة الثانية بسبب تدبيرات حسين، وصار عليه حق الطاعة لحسين، وهو أمر لم يكن يسرُّه لعلمه بحماقة حسين ولجَاجه.

ولكنه سلك معه بنُبلٍ واعتزاز، إذ لما أراد حسين أن يأخذ الضرائب من أرض الأمير تيمور اعترضه الأمير تيمور قائلاً:

(**إن الأرض لي حتى النهر**).

ولما أراد أن يضع ضريبة على البرلاس أجابه الأمير تيمور، أن قومه في حالة عوز شديدة، وقد خسروا كل أموالهم في الحروب المتأخرة.

ورغم ذلك راح الأمير تيمور يدفع من خزينته ما على البرلاس، وساق لحسين المال وضم إليه مجوهرات زوجه «**إلجي**»، وقد عرف حسين مجوهرات شقيقته، ولكنه تقبَّلها بجشع، ثم أعطى الأمير حسين الأمير تيمور فرقة قوامها ثلاثة آلاف رجل، ولكنه رفض، إذ كان يعلم أية ضريبة سوف يجبيها حسين منه. وبهذا لا يكون بنظر الأمراء المحليين منافساً جديراً بالتحرك ضده، إذ ما عساه أن يفعل بمائتين من الفرسان التي لديه الآن تجاه ألوفهم المحتشدة؟. تنافس مقيت.

لذا فضل فرقة صغيرة، حيث يستطيع أن يوسعها ويقويها دون أن يجلب المصاعب إلى الوادي الذي يعيش فيه، ودون أن يعرض نفسه للخطر، وبالرغم من ذلك فقد فرض حسين على الأمير تيمور ضرائب باهظة جداً، راغباً بإضعاف قوته.

وظلَّ الأمير تيمور يعيش في شهري سيبز بهدوء وأمان، ينتظر فرج الله دون نزاع مع قومه، بينما كانت الفتن والقلاقل لا تزال محتدمة، والأمراء الآخرون لا يزالون يتذمرون من جشع حسين وشراهته في جمع المال.

وكان خلال ذلك كلِّه صبوراً ولطيفاً هادئاً، وكان يترقب الأحداث وعمَّا تتمخض عنه، وما يخشاه هو عودة الانقسامات من جديد والاقتتال بين الأمراء، وقد تنازل لحسين عن كل شيء ليضبط أمر البلاد، ولا تصل إلى ذلك الاقتتال المحلِّي الذي يخشاه، وتعود الانقسامات والاضطرابات ممّا يطمع المغول بالعودة لتدمير البلاد والعباد، فصبر جميل.

حقّاً: (**لقد أشقاه قومه فرحمهم**):

رحم الأمير حسين، ورحم عمَّه، وصبر على أذاهم.

ما كلَّ وما ضعُف، وما هجرهم، كما فعل أبوه الطيِّب المؤمن الورع، بل كان الأمير تيمور يتحفهم دوماً بالنصر على الكفرة الفجرة بخططه لا بالجيوش الزاحفة، وبنو قومه بعد نصره إياهم، عليه يتعالون، وله ينكرون، ويلحقون بمن لم يزدهم إلاَّ إرهاقاً وخسارة، ويتفرقون، فيعود عليهم العدو الوثني فيفشلون أو يفرُّون هاربين كالأرانب البرِّية، ثم ينصرهم، فيتجاهلونه وينكرونه، وهو مع ذلك صابر مثابر، لا ييأس ولا يقنط، بل يهبُّ لنصرة الضعفاء، ويبدأ من جديد، بعزم أصلب من الصخر الصلد، فينقذهم مراراً، ويتعرَّض للبلاءات، فلا تصدّه عن الإصلاح والمكرمات، وفقاً لقول رسول الله ﷺ:

«**اللهمَّ اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون**»[1].

فكم تحمَّل رسولنا ﷺ أيضاً من عنت قريش وصلفهم، فما من نبي إلاَّ وتحمل الكثير من قومه وصبر عليهم، كذلك الأمثل فالأمثل، وبذا رفع تعالى شأنهم بالدنيا والآخرة. وهكذا فلتكن الرجال.

[1] الجامع الصغير رقم/١٣١٩.

خلاف من نوع جديد

انتظر الأمير تيمور بيك الفرصة التي يأذن بها الله ليتدخل لإيقاف الأمير حسين عن صنائعه مع شعبه وأمرائه. ولكنه أراد أن يحافظ على قوة المسلمين وشكيمتهم، في وجه العدو المغولي المتربص في الشمال، لذا كانت حرباً باردة، وزادت الحالة شقاء وتعاسة، عندما سمح الأمير حسين بتدخل المغول في الحكم، بسبب أن الخان أجلسه على العرش، وهذا ما كان يدعو المغول إلى اعتبار البلاد تابعة لهم، إذ أن الخان منهم، وهو الحاكم الاسمي للبلاد، وهم رجاله.

و لم يكن ليتفق الأمير حسين مع الأمير تيمور إلا على مقاومة العدو المشترك الجبهي، وكثيراً ما كان يقطع الأيْمان المعقَّدة على الإخلاص للأمير تيمور والوفاء، ومن ثم يحنث بأيْمانه بشكل متكرر، ويخلف بوعوده التي يقطعها، لقاء مساعدات الأمير تيمور له ووقوفه إلى جانبه في وجه الثورات التي كانت تقوم ضده، بين وقت وآخر.

واغتنم بعض الأمراء المحليين علاقة حسين المتوترة مع الأمير تيمور واحتفظوا باستقلالهم وولائهم وفقاً لمصالحهم.

ولذلك كان الأمير تيمور يسعى لإيصال عيونه إلى حاشية الأمير حسين ليزوِّدوه بأخباره، وبما قد يحيك ضدّه من مؤامرات، وقد عمل الأمير تيمور جهده ليظهر ضعيفاً أمام حسين، واضطر في كثير من الأحيان أن يغادر البلاد وحيداً إلى صحارى خراسان، وقد ظهر للشعوب أن الأمير تيمور:

(عصاميٌّ قوي الشخصية، وأظهرته عملياته الكثيرة الفذّة، مغامراً مقداماً متفوقاً جريئاً، كريماً بكل ما يملك حتى بأمتعته الشخصية.

وكان يعرِّض نفسه للموت، يطلبه مضحياً بحياته في سبيل جهاده المقدس، وفي سبيل النهوض برجاله، مما زادهم به تعلقاً وله حبّاً. حتى ولو صرفهم وسمح لهم بالذهاب إلى أُسَرِهم، تظلُّ قلوبهم متولهة به، مشغوفة بالوقوف جنبه، للجهاد المقدس ضد الأشرار.

كان حقّاً لا يعمل لمصلحته الذاتية، بل يعامل الناس على حسب ضعفهم وعقولهم، صابراً محتسباً لرضاء الله).

حتى أن شعوب آسيا كلَّها كانت تتحدث عنه، كيف طرد المغول الشماليين شرَّ طردة، مرة بالنار، ومرة بالغبار، ومرة بقرع الطبول، وكيف أنه يخاطر دون اكتراث واهتمام بسلامته، لأجل نصرة الضعفاء والمساكين، ويده مفتوحة كرماً وعطاءً، وكل ذلك يزيد حفيظة حسين حنقاً وحسداً.

والأمير تيمور لا يعبأ بكل هذا ولا يأبه له...

ولكن جاءته أخبار مفادها أن الظروف والأحوال في إمبراطورية حسين سيئة جداً، والأمراء التتريون على أهبة الاستعداد لرفض دفع الضرائب الباهظة، والتمرد على حسين، وشق عصا الطاعة، بيْد أن أحداً منهم لم يكن لديه القوة الكافية بعدُ ليقوم بذلك، ولكنهم في سعي دؤوب للقيام بالإنقضاض، ويعني ذلك رجوع الحرب الأهلية في أية لحظة.

وهنا هرع الأمير تيمور ليعقد مجلس الحرب مع ضباطه القدامى، ودراسة الوضع قبل انفجار البركان، واستقدم معهم المستشار الروحي(زين الدين) ممثلاً عن رجال الدين.

وقد اتفق الجميع على تقدير الظروف والأحوال والأوضاع في البلاد التترية، وأن المثالب والعيوب الكثيرة في حكم حسين ستسبب الاضطرابات الداخلية والاقتتال من جديد، ولا بدَّ من الخروج من هذه الورطة التي ستعمُّ البلاد التترية، ووجد الأمير تيمور بيك نفسه مضطراً معها إلى محاربة حسين، ومراقبة تحركات الجتة في الشمال بعين يقظة في الوقت نفسه.

ولكن كيف والأمير تيمور ليس لديه جيش كبير،وإذا ما شرع الضباط بجلب قواهم "وهي ليست كبيرة" فإن حسين سيتحقق من أن ثمة خطة لإثارة القلاقل والتمرد، وسيزحف بأفواجه ليستولي على شهري سبز قبل أن يستطيع الأمير تيمور حشد ألف رجل.

لذا قرر الأمير تيمور الاستيلاء على قلعة محصَّنة أشد من شهري سبز تحصيناً، إنها قلعة (**كارشي**) وفيها الألوف المؤلفة، وكان رأيه أن يحتلَّها برجاله المائتين، وذلك ما لا تدَّعيه الضراغم.

* * *

((المـــعـــجـــزة))
بمائتي رجل انتزع حصن كارشي الحصين بألوفه المؤلَّفة!..

عمد رؤساء القبائل وزعماؤها الصغار إلى الانقسام على أنفسهم، وشقوا قبائلهم، لتخفيف وطأة الضرائب عليهم، ما عدا رؤساء قبائل جلاير الذين كانوا يتمركزون في سمرقند مع حسين، وفي كارشي مع موسى جلاير.

ولما كان حسين يحتقر مقدرة الأمير تيمور، فإنه لم يكن يخشاه، ولكن موسى جلاير الذي عمل تحت راية الأمير تيمور فيما مضى، يعتبر الأمير تيمور بيك الخطر الرئيسي الذي يتهدَّده، إذ كان يقضي أيامه في اللهو بين الكاس والطاس، وكان لديه أربعة آلاف رجل ومدينته كارشي محصَّنة جيداً[1].

وفي الواقع أنها كانت قلعة أقوى وأحصن من سمرقند، بالرغم من أنها أصغر، وقد أقامها الأمير تيمور فيما مضى قلعة من حجر، ويعرف جيداً قوة المدينة، ومتانة دفاعها.

وكان موسى عسكرياً خبيراً متمرساً موثوقاً به، ويعتمد عليه عند الأزمات، ولكنه كان عاشقاً للخمرة، ولكل أطايب المائدة، ميَّالاً إلى الإهمال.

فغرت الأفواه، وجحظت عيون القادة، لما سمعوا من الأمير تيمور بيك أنه سيستولي على كارشي بمن معه من الرجال المائتين، وقال عمُّه جاكو برلاس:

(هذا مستحيل، فإن موسى باستطاعته حماية قلعته حتى ولو قدمت إليه بقوة تماثل قوته. فكارشي قلعة حصينة، وأنت تعرفها جيداً، ولن تنجح بذلك إلا إذا اتفقت مع موسى أن يبادلك الأمكنة، فتعطيه مدينتك، وتأخذ مدينته، وهو لن يقبل).

فأجابه الأمير تيمور:

---

[1] علماً أنه ورد في كثير من الروايات أن حصن كارشي يحتوي على اثني عشر ألف جندي لا على أربعة آلاف فقط، ومع كل ذلك استنقذه الأمير تيمور بمائتي رجل بالعملية الإعجازية.

(ولكني أستطيع أن أستولي على كارشي).

ومن ثم أجال نظره متفرساً بالرجال، ولاحظ أن بعض الأمراء كانوا يقاسمون عمَّه جاكو شكوكه، بيد أنه رأى الأمراء والمحاربين البواسل الذين يعرفونه جيداً، ينصتون إليه، ويعيرونه انتباههم الكلي.

وتابع كلامه:

(وإذ ذاك تكون لديَّ قلعة حصينة أحفظ فيها عائلات رجالي، وأستطيع أن أبني قوة عظيمة من القبائل المضطهدة، وأتحدى بها حسين نفسه، وإن هذه هي خطتي الحقيقية).

ومن ثم تكلم الإمام زين الدين:

(وسيكون تأييد الله لنا وعطفه ورعايته، فإن حسين اعتدى حتى على صناديق أموال الجوامع باستمرار في الفترة الأخيرة).

وعندئذ خاطب الأمير تيمور الأمراء المجتمعين قائلاً:

(فكروا بالأمر جيداً، وإلا سأذهب وحدي، وأنتم اذهبوا إلى حريمكم، والزموا جانبهن بالبيوت).

ومن ثم خرج من الخيمة ممتطياً حصانه ليعدو نحو الوادي.

وجلس الرجال يتشاورون في الأمر وهم على يقين أن الأمير تيمور إذا اعتزم أمراً فلا سبيل إلى إقناعه بالعدول عنه، وسيستولي على المدينة لا محالة بأعوان آخرين، ولن يصيبهم إلا الخزي والعار بالتنحي عن القتال معه، والأمير تيمور لا يلقي برجاله إلى التهلكة، وله من الحيل الحربية والتدبيرات القتالية المبتكرة، ما يضمن النصر في كل ما يقدم عليه.

ارتاح الرجال لهذه الآراء، وثارت حميتهم، وعاد الأمير تيمور ليجد أنهم وصلوا إلى القرار النهائي، حيث تجمهروا حوله.

وتحدث باسمهم «**سيف الدين**» العجوز قائلاً:

(إننا اتفقنا على أن نسير معك، بالرغم أننا لم نفهم خطتك، فإننا نتذكر نجاحاتك وانتصاراتك في الماضي، ونرغب في السير وراءك).

وعندئذ رفع الإمام زين الدين القرآن الكريم بيده، وأخذ الأمراء يمرُّون من أمامه واحداً فواحداً، يقسمون أنهم سوف يكونون على أتم الطاعة والولاء.

وحذَّرهم الأمير تيمور من التحدث بهذا الأمر ولو لأقرب المقرَّبين، والاستعانة على إتمام النصر بالكتمان.

واتَّخذ أساليب التعمية قدر الإمكان، حتى أن أمراءه لم يدركوا ما هي خطته.

وبذلك ضمن عدم التحرك من قبل حسين ضده بشكل علني، ومن ثم وقوع المجازر بين المسلمين، كما أنه أوقف البحث في موضوع كارشي، ومضت الأيام، وبدا وكأنه قد عدل عن رأيه بالقيام بمحاولة ضد المدينة الحصينة.

وأرسل سعاة إلى الشاه مالك هرات، يحملون الهدايا والتحيات، وينبئونه بزيارة الأمير تيمور إليه، لرؤية زوجه البيجوم، وأشاع ذلك، وأتاح للناس أن يعتقدوا أنه قد يغيب عدة أشهر، وطمأنهم بألا يخافوا أو يقلقوا لقرب حماية قوات حسين منهم، إذ كانت شهري سيبز قريبة من سمرقند لدرجة كافية لتشملها الحماية.

ومن ثم تحرك جنوباً بجنوده، وكان يعسكر بهم بالقرب من القرى، وأمرهم بالتحدث بحرّية عن زيارتهم إلى هرات، وسبقت أخبار الرحلة أصحابها، وانتشرت في كل مكان، ووصلت إلى كارشي وإلى ما وراءها، ولما عبر الجنود البوابة الحديدية، ومرَّ بالقرب من كارشي، لم يتصدَّ لهم أحد، ومن ثم أقام عند (**بئر إسحاق**) شهراً، وأمر رجاله بأن يصرفوا وينفقوا ما يشاؤون من المال كي يشجع القوافل التي تسير على طريق خراسان بالمكوث معهم قرب البئر، ومرت ثلاث أو أربع قوافل من التجار من أمامهم بعد أن سمعوا بأخبار زيارة الأمير تيمور بيك للشاه مالك، ولكن عدداً من القوافل الأخرى التي رأت كيف ينفق رجال الأمير تيمور المال بكثرة مكثت معهم.

وكان الأمير تيمور في تلك الأثناء ينتظر التحاق قسم من جنده به، ولما تمَّ له ذلك توقفت حركة البيع والشراء، وجاء السعاة ومعهم رسالة الحب والتقدير من ملك هرات.

ولما هدَّ الخيام للرحيل، طلب منه التجار جنوداً من أجل مرافقتهم إلى كارشي لحراسة قوافلهم، بينما يثابر هو على مسيره إلى هرات، وبذا ينخفض عدد جنوده إلى النصف تقريباً.

ولكنه أصر أن جميع رجاله ضيوف على الشاه الكريم، ولا يمكن أن يفكر بإغضابه بسبب تخفيض عدد حاشيته. إن بعث عدداً منهم مع القوافل لحمايتها.

وانطلق بفرقته يسير نحو طريق خراسان وظل يسير باتجاه هرات حتى هبط الظلام وحل الليل، عندها توغل في الصحراء عدة أميال، وعسكر في مكان لا يُرى من فوق الطريق.

وانتظر أسبوعاً آخر، وبذلك أعطى للقوافل الوقت الكافي لأن تصل كارشي وتؤكد لموسى جلاير أنه ذهب إلى هرات كي يرى زوجته البيجوم وأبناءه.

وإلى ذلك الحين كان رجاله يعتقدون أنهم حقاً ذاهبون إلى هرات، وقد اضطربوا وسألوه عن الزيارة،وعندها أعلمهم بأنه ذاهب إلى كارشي.

وفي كارشي استجوب موسى جلاير رجال القوافل، وعلم منهم أن الأمير تيمور قد ذهب إلى هرات، وأكَّدوا له ذلك.

ولما كان الحرُّ شديداً لا يطاق في ذلك الوقت من السنة في كارشي، لذا سارع موسى إلى مغادرة المدينة، والانتقال إلى السهل الممتد أمام مدينته، حيث الهواء المنعش الطلق، وأقام لنفسه خياماً صيفية.

أما فرقة الأمير تيمور ورجاله ما أن علموا بالاستيلاء على كارشي، حتى سرى العنفوان في عروقهم، ودبَّت الشجاعة في قلوبهم، وسار بهم الأمير تيمور نحو كارشي بانتظام سرِّي، وأسرع هو وأربعون نفراً ليجتازوا (**نهر جيحون**)[1] سباحة، وقد أعطى الأمير تيمور تعليماته لهم ليتعلق كل منهم بعنان فرسه بمعرفته، وليلقِ نفسه في الماء، وواعدهم إلى مكان كي يقدم بالقوارب لعبور البقية، فألقى بنفسه وألقوا بنفوسهم والنهر أيام فيضانه، وتهافتوا هم وخيولهم تهافت الفراش على السراج، وكابدوا المشقة ونجوا، و لم ينقص منهم أحد، واجتمعوا إلى ذلك الموعد، حَذَرَ أن يُغدر بهم، وبذا أمَّن سلامة عبور قواته الباقين بأمان وسلام.

بعد أن اطمأن إلى سلامة الطريق وحفْظه للباقين الذين استقدمهم بالقوارب، سار بهم باطمئنان وحذر، حتى وصل إلى بئر منعزلة تخفيها التلال والهضاب المحيطة بها التي تكسوها النباتات والشجيرات المختلفة، وعسكر بهم هناك، وأرسل طلائع استكشافية عادت بأنباء تفيد أن موسى اغتنم الفرصة كي

---

[1] **نهر جيحون**: نهر ينبع من الهند، واسمه حالياً (أموداريا) ويصب في بحيرة آرال.

يخرج للاستجمام بجميع قواته، وعسكر بهم خارج الأسوار، ما عدا فرقة صغيرة جعل عليها ابنه، تركها في القلعة تحسُّباً للطوارئ.

وعمد إلى تمضية وقته بإقامة الولائم وشرب الخمرة، يترع فيها وأصحابه حتى الثمالة، «**كمسلمي آخر زمان**»!.

وعند حلول الظلام، انطلق بهم بهدوء وحذر، عبر التلال والهضاب، حتى وصل إلى تخوم القلعة، وضوء البدر ساطعٌ، ممَّا مكَّن رؤية الحرَّاس بوضوح تام.

ومن ثمَّ قام الأمير تيمور، بالطواف حول السور، مفتشاً عن منفذ، فوجد ثغرة يمكن للرجل أن يدخل منها، ومن ثم عاد إلى رجاله الذين كانوا ينتظرونه عند الخندق، وعبر بهم من الثغرة الموسَّعة، حيث وجد جميع حراس القلعة نياماً، فاستاق من استسلم منهم أسيراً، واقتصر القتال في القلعة على مناوشات بسيطة من بعض الحراس الحمقى، وانتهى الأمر بأن صار الأمر بالتمام للأمير تيمور في القلعة.

ومن ثم جمع فرقته كي تهجم على قصر موسى، الذي كان يحرسه ابنه والفرقة الصغيرة التي عهد لها بذلك.

ولم يلق مقاومة إذ أعلنوا استسلامهم، مأخوذين بفعل المفاجأة، ومن ثم انضمُّوا إلى الأمير تيمور. أمَّا «**ابن موسى**» فقد دافع بشراسة ومن ثم سارع ليستسلم.

وقد أثنى الأمير تيمور على شجاعته وأبقاه في كارشي، وأرسل عائلة موسى إلى سيدها اللاهي بين الكاس والطاس، في المرج عند ضفة النهر، بعد طلوع الشمس.

وعندما استولى الأمير تيمور على القلعة، أرسل بعض رجاله كي يوقظوا الفقراء والفلاحين ويحشدوهم خلال الساعات المتبقية من الليل، وكان معظم رجال الأمير تيمور يعرفون مدينة كارشي وأهلها من قبل.

وأرسل بعضَهم ليخرجوا الأسلحة من مخازن موسى ومستودعاته. ووضعها في الساحة ليجهِّز بها أكثر من ألف رجل أرسلهم إلى الحصون مسربلين بالخوذ والدروع، والسيوف والرماح والمتاريس، كي يدافعوا عنها، وهم على أهبة الاستعداد للقتال فوق الأسوار مع قائدهم الأمير تيمور المحبوب، الذي يعرفونه ويعرفون سماحته وعدله ونصرته للمظلومين.

ومع شروق الشمس، أمر الأمير تيمور بدق الطبول وعزف الأبواق من برج القلعة، ورجاله وقوفاً على الأسوار.

وهض بقية سكان كارشي من نومهم، وتسلقوا أسطحة منازلهم، ليعلموا سبب هذا الإيقاظ الغريب، ورؤية ما حدث، وتضاعفت دهشتهم عندما رأوا جيرانهم يقفون فوق الحصون، وهم مدجَّجون بالسلاح، ومتهيِّئون للقتال.

وهرع الجيش المعسكِر خارج القلعة، ليحدّق بدهشة واستغراب، إلى الفاتحين الذين ينتصبون فوق أسوار المدينة.

وقد هرع موسى جلاير لإخراج علَم المصالحة والسلم، وتقدم نحو أبواب المدينة، ولم يعطه الأمير تيمور إشارة مقابلة، بل أعطى أوامره إلى رماة السهام والنبال لإبعاد موسى ومرافقيه، إذ لم يرغب الأمير تيمور أن يعلم موسى كم من الرجال القلائل لديه داخل القلعة.

وأخذ موسى البوق وصاح من خلاله قائلاً: إنني أنا موسى أمير كارشي وخادم حسين ملك الملوك، أطلب التفاوض مع الغازي الذي احتلَّ مدينتي!.

فحدثه الأمير تيمور من خلال بوقه:

(إنني أنا الأمير تيمور أمير شهري سيبز وكارشي، وخادم حسين الباسل ملك الملوك، أعلن أنني وجدت من الضروري أن أستولي على كارشي، وأتولى إمرتها، ما دام أميرها السابق غير قادر على حمايتها. وإن وفائي لملك الملوك وطاعتي له، يفرضان عليَّ أن أحمي مدنه من أعدائه، وضَعف أمرائه).

وعندها صاح موسى مستغرباً:

(أهذا أنت أيها الأمير تيمور؟!. إنني أرحِّب بمجيئك إلى كارشي يا صديقي الطيب)!.

ولكن مثل تلك الألاعيب لا تفوت الأمير تيمور، إذ أن موسى يعلم جيداً أصوات أبواقه إبَّان عمله تحت خدمة الأمير تيمور، ولا تردعه ذمَّة عن القيام بأوامر حسين للحفاظ على الحصن بكل السبل.

فأجابه الأمير تيمور:

(أيها الخائن الضعيف، إذا أردت أن تدخل إلى هذه المدينة، فيجب أن تدخلها كأسير لديَّ، ثم إنني سآخذك إلى حسين بوصفك حاكماً مهملاً ومقصِّراً وعاجزاً، وإذا لم تشأ ذلك فيمكنك أن تذهب

إلى سمرقند، وتسلم نفسك إلى حسين، محافظاً على كرامتك من الأسر والذل، وإذا ما ظللت تعسكر في السهل حتى الصباح فإنني سأخرج إليك، وأحطم جيشك).

ومن ثم ترك البوق وهبط عن الحصن، وتحدث موسى ولم يكترث أحد لإجابته، ولم يجد بدّاً من العودة إلى خيامه يجر أذيال الخيبة.

وظل أهل كارشي المدججون بالسلاح منتصبون فوق الأسوار طيلة النهار، ثم أرسل الأمير تيمور نصف رجاله إلى التلال المجاورة، ليشعلوا فيها نيراناً يراها جيش موسى ليُشغلهم عن القيام بعمل ليلي مفاجئ.

وبقيت أعمدة الدخان التي تتصاعد من الغابات حتى نهار الغد، وخيِّل للمرء الناظر إليها أن ألفي أو ثلاثة آلاف رجل يعسكرون في مخابئ غابات البلُّوط والسنديان.

ونفخ أحد رجال الأمير تيمور بوقه في الجبال، وارتفعت غمائم الغبار من الوديان الضيقة، حيث أخذت الشراذم الصغيرة بالعَدْو نحو مبعث الصوت. وقد كان في هذه الخطة توهيناً للعزائم لدى جيش موسى، وإشغالهم عمن في القلعة.

وتوجَّه الأمير تيمور إلى السجن حيث كان ابن موسى وقادتَه، وإذ ذاك خاطب الأمير الفتى قائلاً:

(ليس من عادتي أن أقتل الأمراء الذين يستسلمون إليَّ).

فتطلع ابن موسى بشيء من الخوف وقال:

(لقد سمعت هذا يا سيدي).

وتابع الأمير تيمور كلامه:

(ولذا فإنني سأرسلك أنت وقادتَك إلى معسكر أبيك أيها الأمير الفتى).

فاستغرب الفتى وقال:

(ولكن أليس أبي مهاجماً على المدينة؟!. ألا يحاصركم)؟.

فأجابه الأمير تيمور:

(كلا فإنه رجل حكيم وعاقل، وليس لديه أية فرصة لذلك، فقواتنا تفوقُ قواته كثيراً، فإن لديَّ في داخل المدينة من الرجال ما يساوي جميع الرجال الذين يستطيع والدك أن يحشدهم، وأما في

الهضاب والتلال، فإن لديَّ ضعف ما لدي في داخل المدينة، وهم على أتم الاستعداد لأن ينقضوا على أبيك إذا ما تحرك نحو المدينة).

فأجابه الفتى بذكاء:

(ولكن كان ثمة صخب قليل في داخل المدينة الليلة الماضية).

ولكن الأمير تيمور بهته قائلاً:

(إن تلك طريقتي، فأنا لست جزاراً، ولقد دخلت إلى المدينة بهدوء، لكي لا أسفك الأرواح والدماء، وأتجنَّب القتل والتخريب، وليس لديَّ أية رغبة في أن أقتلك أو أقتل أباك، ولقد كان موسى في مرة من المرات ضابطاً مقداماً وباسلاً في خدمتي، ولذا فاذهب إلى أبيك، وقل له أن يلجأ إلى سمرقند قبل أن يمسك حلفائي العتاة بزمام الأمر وينقضُّوا عليه..

ولكن يجب أن أعصب عينيك، كي لا أدعك ترى أوضاع دفاعي ومراكزي، وإنك تفهم هذا أليس كذلك)؟.

أجاب الأمير الفتى: (**بلى**).

ومن ثم أخرجهم من السجن وقادهم إلى الشوارع، وكان المواطنون في كل مكان يتحدثون بأصوات عالية عن الجيش الضخم الذي يتدفق من التلال (إذ انطلت عليهم خطة الأمير تيمور)، وقد امتلأت رؤوس الأمير ابن موسى الفتى وقادته بالقصص المهولة التي سمعوها في طريقهم، ومن ثم قدَّم لهم الأمير تيمور خيولاً، وخاطب ابن موسى بلهجة وداعية قائلاً:

(بلغ تحياتي إلى أبيك موسى، وحثَّه على أن ينسحب إلى سمرقند وذلك من أجل منفعته. وقل له أنني أضع مصيره بين يدي الله، وسوف أحاول أن أمسك بزمام قواتي وأضبطها حتى شروق الشمس).

وعندما رأى ذلك الأمير الفتى تلك المعاملة أخذت الدموع تتدحرج من عيونه، وأجاب الأمير تيمور قائلاً:

(إنني أشكرك كثيراً، وإنك فاتح رحيم أيها الأمير تيمور).

ومن ثم انطلق الأمراء يعدون نحو خيام موسى والشمس تغطس خلف الأفق مساءً.

وما أن وصل ابن موسى وقادته إلى خيام أبيه وأفادوه عن الوضع، حتى أرسل عدداً كبيراً من كبار ضباطه وجالوا بأنظارهم في البلاد من كل ناحية، ولكنهم لم يستطيعوا رؤية شيء لحلول الظلام، وبعد وقتٍ قصير رجعوا إلى خيامهم، وفي الحال تقريباً نفخت أبواق موسى، وشرع جيشه يهدّ الخيام بعصبية حادة وسرعة مجنونة.

و لم تكد الظلمة تلف الكون تماماً، حتى كانت جميع الخيام قد هُدَّت، وأخذت الطلائع الأولى لقوات موسى تتجه نحو الطريق الذي يقود إلى سمرقند.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ . . ﴾[1].

ولما أصبح الظلام دامساً، أخذ رجال الأمير تيمور يتدفقون من خارج الأسوار نحو المدينة، ومن ثم جاء «**نور الدين**» ومعه القائد «**منغالي بوغا**» الذي يرغب بضم قواته إلى الأمير تيمور، إذ كان لا يشعر بأي حب أو إجلال نحو موسى وحسين وأضرابهما.

كما أن عدداً من رجال موسى قدَّموا إليه طاعتهم فتقبَّلها. وكانت هذه البداية، فأمثال هؤلاء كثيرون ممن يكنّون حقداً تجاه الملك حسين، وهم على انتظار أيّ قلقلةٍ ونشوء أية ثورة للقيام بنشاطاتهم ضد حسين وأمرائه. وبذلك ستعمُّ الفوضى من جديد ويقتتل الرجال ويطمع بهم مغول الشمال من جديد.

وبقبول الأمير تيمور لهؤلاء وأمثالهم كحلفاء وضمِّهم إليه ووقوفهم عند رأيه ستكون البلاد أكثر أمناً وأماناً، وسيتوقف الخصام والاقتتال، وسيستوعب الأمير تيمور كافة الأطراف المتخاصمة، حقناً لدمائهم.

* * *

---

[1] سورة البقرة: الآية (٢٤٣).

لا للنزاعات بشكل جديد

أخذت قوة الأمير تيمور تزداد وتسيطر مع تقادم الأيام، ووجد فيه التتار المسلمون الرجل الزعيم الذين هم بحاجة إليه، حتى أن بعض أعدائه من الذين كانوا يعملون على قتله وهلاكه، مشوا إليه، وجلسوا بين الأمراء من رجاله الذين يجلسون حوله، قائلين:

(لقد رجعنا إليك أيها المولى، ولن نتركك بعد اليوم).

وكذلك أخذ الأمير تيمور يقيم مملكته الجديدة بعدالته وإنصافه، وإقامته لحدود الله، وبإخلاص أنصاره له، وطاعتهم لأوامره.

وظل الرجال يجتمعون عليه، ويضمّهم إليه، دون أن يسعى وراءهم، وبذلك استوعب كافة الأطراف المناوئة للملك حسين، وحافظ عليهم، دون القيام بثورات وانتفاضات.

وفي تلك الأثناء، شنَّ هجوماً على قلعة تعتصم فيها قبيلة تركمانية، كانت تغير على تخوم مملكة حسين، وتُرهب الفلاحين وتنهب أراضيهم، وتدب الرعب في قلوبهم، واستطاع مع أمرائه الحقيقيين، أن يستولي على القلعة بسهولة وسرعة، وقطع رأس زعيمها وأرسله إلى حسين، مؤكداً له أنه يعمل بالنيابة عن ملك الملوك في سمرقند.

ولكن التتر المسلمين كانوا يظهرون امتنانهم للأمير تيمور، وأخذ ينضم أمراؤهم إلى قواته، حيث أصبحت أراضيهم مرة ثانية في مأمن من الغزو والاحتلال، بفضل جهود الأمير تيمور.

كما أنه تغلب على الغزاة والمغيرين، الذين كانوا يحتشدون في السفوح الباردة من جبال البامير، وقضى على التجمعات الفارسية لقطَّاع الطرق، فوق رمال الصحراء في جنوبي نهر أموداريا. وطرد المغوليين من المنحدرات، وطاردهم عبر السفوح والجبال.

وكان دائماً يُطلع حسين على انتصاراته، ويرسل له الهدايا الثمينة والقيِّمة.

ولكن عندما أخذ نفوذ الأمير تيمور يتوغل في مملكة حسين، ويخترق حدوده إلى سمرقند، وعندما قام ندماؤه يروون قصصاً عن شجاعة الأمير تيمور البالغة، وقوته الخارقة، وخططه المذهلة، وحب الناس له، أخذ حسين يظن أن الأمير تيمور قد شكَّل الخطر الرئيسي المتنامي، الذي يهدد سلامته وعرشه.

و لم تمضِ سنوات قليلة حتى انضمت للأمير تيمور أكثر الجماعات التتارية. وكان آخرها عشيرة الجلاير، بقيادة «**بهرام جلاير**»، التي كانت كثيرة الأنصار، لأنها قريبة النسب من المغول، وكذلك كيخسرو حاكم ختلان، اللذان انفصلا عن الملك حسين، لسوء تصرفاته وسُقم سياسته.

لم تكن تغيب عن الأمير تيمور طبائع الملك حسين وظنونه، وكانت تصله أخباره وتحركاته.

ولما بدأ الملك حسين يحشد قواته لمهاجمة الأمير تيمور، أرسل إليه الأمير تيمور بأنه سيرسل طالباً مساعدة خاقان مغول الجات إن لم يكف حسين عن حشده لقتال المسلمين، وأوهمه بأنه أرسل وفداً مع هدايا لهذا الغرض.

فلما بلغ الملكَ حسين، عزْمُ الأمير تيمور وحلفائه على الاستنجاد بالخاقان، حلَّ به الرعب، وطلب من رجال الدين إجراء الصلح بينه وبين الأمير تيمور، معلناً قَسَمَه على المصحف الشريف أمامهم وأمام كبار رجال الدولة والقادة، على أن يتمسك منذ الآن بصداقة الأمير تيمور.

وقد نزل الأمير تيمور عند رغبة علماء الدين ورجالاتهم، بإجراء الصلح، ولاسيما بعد أن استخار المصحف، فخرجت له الآية:

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا . . ﴾[1].

وتمَّ لقاء المصالحة أمام قبر أحد الأولياء، وتقرر أن يتناسى الطرفان الماضي، وتفتتح العلاقات صفحة جديدة.

وبهذا رضخت البلاد كلها للحاكميْن، دون قتال بين أفرادها.

* * *

[1] سورة الحجرات:الآية (٩).

خداع المغول مرة ثالثة

((والحرب خدعة))

أغارت قوات المغول الشمالية على بلاد ما وراء النهر، فاستنجد الملك حسين بالأمير تيمور، الذي استجاب لطلبه، فانطلق شمالاً إلى ضفاف سيرداريا، وقد استطاع بالحيلة والدراية، أن يوقع الخصام بين اثنين من قادة المغول، فانقسم هؤلاء على أنفسهم، واقتتلوا فيما بينهم، وفضلوا أخيراً الانسحاب، والعودة إلى ديارهم.

* * *

في بادقشان
خطة لقاهر العالم

بسبب سوء سياسة حسين ثارت منطقة بادقشان عليه، فاستنجد بالأمير تيمور الذي سار إلى ذلك الإقليم الجبلي، حيث تمكن بحكمته أن يستميل أهالي المنطقة ورجال الدين، وسطَّر للتاريخ معجزة حقيقية للعمليات في تلك المنطقة.

لما توافدت أخبار قدوم الأمير تيمور، أخذ الثوار الجبليون يتراجعون بنظام، صعداً إلى أعماق المنطقة الجرداء الجليدية، ضمن خطة حربية محكمة.

وجاء إلى الأمير تيمور من يخبره، أن طليعته المتقدمة قد طُوّقت وأُسرت، وأن البادقشانيين يتراجعون مع أسراهم. وكان من تقاليد البلاد الصارمة وأعرافها أن لا يتخلى زعيم عن رجاله ما ظل هناك أمل بإنقاذهم، ولكن رجال الأمير تيمور فقدوا كل أمل لإمكانية إنقاذ رفاقهم. وقد استاء الأمير تيمور مما أبدوه من تعب وقنوط في تلك القفار الجبلية الجليدية.

لذا أمرهم بالركوب، وانطلق بهم المُخبر كدليل، للبحث على جوانب المرتفعات عن طريق يؤدي إلى الوادي الذي يسلكه البادقشانيون في نزولهم إلى الأراضي السفلى.

أخذ الرجال يتهادون على الدروب المغطاة بالجليد، فالانزلاق والتزحلق يعني أعماق ألوف الأمتار هبوطاً. ولكن الأمير تيمور أخذ يمضي في حركته بسرعة، واصطحب معه ثلاثة عشر رجلاً وأسرع بالاستيلاء على رأس ممر قبيل وصول البادقشانيين إليه والمرور منه، وأرسل إيلشي إلى مقدمة البادقشانيِّين بمفرده مَرِحاً على ظهر حصانه، فوقفوا دهشين لمرآه، إذ لم يكن يرتدي زيّاً مألوفاً لديهم، و لم يكن عليه علامات المحارب المقاتل.

فسهمه في كنانته، وسيفه في غمده، والكلُّ من العاج المرصَّع بالذهب، بمعطف فراء السمُّور الفضفاض، والحزام اللماع، والطاقية من جلد الدب، وحصانه الأصيل. لقد ظهر لهم وكأنه قد خرج من باطن الأرض في تلك الربوع، وناداهم بصوته الجهوري:

(هيه يا أولاد آباء عديدين، توقفوا وانظروا ذاك الرجل الواقف هناك في الأعالي، إنه السيد الأمير تيمور).

ودخل راكباً بينهم كمن لا يعنيه القتال الدائر قط، يشير بذراعه الممدودة إلى الأمير تيمور، الظاهر البارز بخوذته، ومهابته الربَّانية، وجسمه العملاق، ويقول بوقار:

(فكروا مليّاً إذا قُتلتم، فالكل سيدعوكم أغبياء، بما في ذلك عائلاتكم، ما الفائدة في أن يقتل الإنسان هنا)؟!.

الآن الأمير الخطير، السيد الأمير تيمور، هو واسطتكم إلى الحياة والسلامة.

من صالِحكم أن تعقدوا مهادنة، والأحسن هو أن تجمعوا الأسرى وتأتوا بهم إليه.. فتعبِّرون بهذا عن حسن نواياكم وطيب مقاصدكم.

وهكذا تملَّقهم إيلشي وداجنهم، وما كان منهم وهم في حيرة تامة، إلا أن ترجَّلوا لينحنوا، وقد صدَّقوه، وأيقنوا أن وراء الأمير تيمور جيشه اللجب، وإلا كيف يأتي ويقف بينهم سيد فرد، دون أية حراسة؟!.

ثم ترجَّل إيلشي، وجيء بالأسرى إليه، فتطلَّع إليهم مدققاً فاحصاً، ثم التفت نحو البادقشانيين يقول معاتباً:

(هل تنوون أن تُرسلوا إلى الأمير السيد تيمور رجاله الخواص هؤلاء كالأنعام دون سلاحهم؟!. ألم يكونوا مسلَّحين عندما أسرتموهم)؟.

كان الجبليون حيارى منذهلين، وقد ارتسمت الكآبة على وجوههم!. إذ كان هناك على المرتفع الأمير تيمور الرهيب بانتظارهم، وكما يبدو طريقهم إلى السلامة مغلق.

وأخيراً فعلوا بكل ما أشار به إيلشي، وأعيدت الأسلحة المنهوبة، وعاد إيلشي برفاقه وكانوا ستمائة إلى حيث كان الأمير تيمور منتصباً، وقال للأمير تيمور:

(إن البادقشانيين ينتظرونك، لتقبيل ركابك).

وللحال نزل إليهم الأمير تيمور حيث كان خوفهم أعظم من عدائهم، وأقسموا على السلام..

واقترح زعماء البادقشان أن يتوجه الجميع إلى القرى، ونزلوا بالفعل إليها، بعد أن جاء المتأخرون من رجال الأمير تيمور، وطالت إقامة الأمير تيمور بينهم، إذ أحبوه حبّاً جمّاً.

وكانوا من أشد أنصاره إخلاصاً فيما بعد، إذ أعاد إليهم ولاتهم مكرمين، بعد اعتقالهم من قِبل السلطان حسين.

لا بدَّ مما ليس منه بدُّ

ولكن الملك حسين بعد أن نصره الأمير تيمور هذا النصر العظيم، وخلَّصه من خصومه الأشداء، أبت النفوس اللئيمة إلاَّ أن تقابل الإحسان بالإساءة.

ارتاب في نوايا الأمير تيمور بأن يعلن العصيان عليه، فأخذ يستحثه على العودة، بحجة انفجار ثورة جديدة يقودها اثنان من كبار الأمراء،وتدل الشواهد أن الملك حسين اتخذ من تيمور بيك خصماً قوياً خطراً عليه، فانطلق أول الأمر يخادعه بالدس والوقيعة في السر، حتى إذا تبين له أن تيمور بيك ليس بالرجل الذي يسهل إيقاعه في شراكه، أرسل إلى الأمير تيمور أن يوافيه إلى بالخ التي أراد أن يتَّخذها عاصمة للسلطنة.

ولكن أحد أصدقاء الأمير تيمور وكان عضواً في مجلس الملك حسين أرسل إليه يحذِّره، ويعلمه أن حسين يبيِّت الشرَّ له من وراء استدعائه إلى بالخ.

رفض الأمير تيمور الاستجابة، وبعدها أعلن حسين عداءه العلني، وسارع بإرسال قوات إلى شهري سبيز، لإجبار قبيلة البرلاس على الهجرة إلى بالخ.

وكانت حصيلة ذلك أن هرع رجال القبيلة وأبناؤها موكلين أمورهم إلى الأمير تيمور، وقد أصدر رجال الدين فتوى تدمغ حسين بالاعتداء وحنث اليمين.

وما أن قرر حسين أن يُغير على كارشي ولم يكد يذيع هذا الخبر وينتشر، حتى أخذ الكثير من الأمراء الحانقين على حسين، يعلنون انضمامهم إلى الأمير تيمور، وكان من أبرز هؤلاء الشيخ «**محمد بن بايان سلدوز**». وحصلت المعركة السريعة الصاعقة.

إذ جعل الأمير تيمور أكثر قواته خارج القلعة وخبَّأها في الجبال، على مسافة بعيدة، لكي يظل مستوراً عن المسالك والطرق المؤدية إلى كارشي.

وقد خرج الأمير تيمور بفرقة استطلاعية استكشافية. فوجد أن فوجاً من عسكر حسين وصل إلى (**ضاغلغا**)، وهو موضع ضيِّق، يسير فيه الراكب ساعة، في وسطه باب إذا أُغلق لا يقدر عليه أحد،

وحوله جبال عالية، وقد تمكنت قوات حسين هذه من الاستيلاء عليها. فوقف الأمير تيمور بيك بمن معه على الجهة المقابلة، وظن العسكر أنهم حصروه وضيَّقوا عليه، ولما حلَّ الليل، قال الأمير تيمور لأصحابه:

(إني أعرف هنا جادة خفية، مسالكها صعبة، لا يهتدي إليها أحد، فسنسري ليلاً، ونقود خيلنا معنا، فنصبح وراءهم صباحاً وهم آمنون، وسيكون لعنصر المفاجأة فعله فيهم، وإن أدركناهم ليلاً، فنحن الفائزون).

فترك الأمير تيمور موقعه وسرى بجنده ليلاً في تلك المفازات الصعبة، ولما كان الصباح، ظن عسكر حسين أن الأمير تيمور انهزم وهرب خوفاً منهم، ولما وصل الأمير تيمور خلف المعسكر وجدهم يكدُّون في تحميل أثقالهم فقال لأصحابه:

(لا ضرر، توجهوا نحو العسكر، وانزلوا بمرأى منهم على خيلكم واتركوها ترعى، واقضوا من ورد النوم والراحة ما فاتكم في ليلكم)[1].

حيث لم يكن يبغي قتل المسلمين بصراع جبهي. فنزل هو ومن معه عن خيولهم وتركوها ترعى في تلك المروج، وناموا وكأنهم من جملة العسكر، فمروا بهم وهم يظنون أنهم منهم قد قصدوا الراحة.

وإذا العناية رافقتك عيـــونها   نم فالمخاوف كلهـــنَّ أمـــان

فلما تكامل مرور العسكر، ركب الأمير تيمور بمن معه أقفيتهم وهم يصيحون من ورائهم، ولا يعلم أحد كيف عمَّ الخطب المدْلهم، و لم يعلم أحد كيف البلاء داهم.. وراح كلٌّ ينقل الخبر ويهوِّله كيفما تصور. وكان لهذه الواقعة الحربية أثر كبير في الحرب النفسية على عسكر الملك حسين قبل وصوله.

بعدها أفاده الرجال الاستكشافيون بمكان معسكر حسين، فامتطى حصانه وسار ليلاً حتى وصل إلى مكان يظل فيه مشرفاً على الطريق الذي سيسلكه حسين إلى مدينة كارشي. وأرسل فوجين ليحولوا دون رجوع حسين إلى سمرقند، إذ يعلم طبيعته بالهرب عند إحساسه بفقدان عدد من رجاله، وأوكل إلى هذين الفوجين إغلاق البوابة الحديدية بعد أن سيطر عليها كما سبق. وإفشال وصول قوافل المؤن الأولى المساعدة لحسين. حيث سيكون ذلك أولى المفاجآت.

---

[1] تساؤل: من مِنَ القادة من بني البشر له الجرأة أن ينام وجنده آمناً مطمئناً بين صفوف أعدائه أثناء المعركة إلاَّ أن يكون بالجسارة كأبي بكر الصديق هازم القبائل المرتدة كلها وهازم الدولتين العظيمتين الفرس والروم؟!..
(من ذا الذي ينام بالمعركة هانئاً وينتصر إلاَّ أن إيمانه الحقيقي كرسوخ الجبال الشامخات)؟!...

ضرب حسين الغبي حصاره حول المدينة، وهيَّأ آلات الحصار، وأقام الاستعدادات، وبنى التحصينات والمتاريس، على مسافة لا تصل إليها السهام.

وفي اليوم التالي استخدم في هجومه سائر الأدوات الثقيلة، والأسلحة الخفيفة، بصورة محمومة، ومن ثم استدعى حسين رجاله كي ينقضوا على أسوار كارشي، إذ الأنباء وصلت إلى حسين بأن قوافل المؤونة والذخيرة سيطر عليها رجال الأمير تيمور بالخطة السابقة.

وفي تلك اللحظة انقض الأمير تيمور بأفواجه الثلاثة وبتشكيلاتها المعتادة، من الجبال والتلال، وطوَّق خيام حسين، وهجم ألف رجل فارسي من جهة كارشي، وألف رجل مغولي‹أسلموا› من جهة أُخرى، وجميع تلك القوات باغتت حسين وأرعبته وأوقعت به هزيمة منكرة.

تصدّى موسى جلاير للهجوم الانقضاضي، وقد ثبَّط عزمه خروج الأمير تيمور المفاجئ من بين الشجيرات في سفوح التلال، وجعل فرائصه ترتعد من شدة الخوف والذعر.

وكان جلُّ هدف الأمير تيمور منصباً على قطع الاتصال بين «**حسين**» وخيامه، ولم تمض فترة زمنية قصيرة، حتى كان لدى الأمير تيمور فوج كامل متمركز بين «**حسين**» وخيامه، وإذ ذاك أخذ حسين يعدو نحو الجنوب، وولى هارباً.

وعمد الأمير تيمور لإعلام قوات حسين، أن جميع قوادهم قد قتلوا، فرفع رمحاً وضع فيه رأساً يشبه رأس موسى، ورمحاً آخر وضع عليه رأساً يشبه رأس حسين إلى حد كبير، وأعطى تعليماته برفع الرأسين والسير بهما إلى قلب قوات الأعداء، وطلب الاستسلام منهم، وقد نجحت الخطة وأتت بالنتائج المرجوة، إذ ألقى رجال حسين أسلحتهم، وأعلنوا استسلامهم، وهكذا تمَّ النصر دون إراقة الدماء تقريباً، وسلم المسلمون المتقاتلون من الذبح.

* * *

معركة بالخ ونهاية حسين

ملَّ الأمير موسى جلاير وسئم من تصرفات سيِّده حسين وتقلباته، وهو من أكبر الأعوان، وعاد إلى سمرقند.

عبر الأمير تيمور بقواته نهر أموداريا، وانضمت إليه بعض القبائل الجغطائية النازلة جنوب النهر، ومنها قبيلة (إيبورد). تابع حسين تراجعه إلى بالخ التي حاصرها الأمير تيمور من جميع جهاتها، ولكن المدينة سقطت للحال. وتنكر حسين بثوب فلاح، وخرج من بالخ ليلاً دون أن يُعلم أحداً من خاصته أو أهله، وأوى إلى مأذنة جامع، وبعث الإمام ليفاوض الأمير تيمور على تسليم نفسه.

قال الإمام: (**إنني يا حضرة الأمير تيمور، وسيد بالخ، مرسل إليك من قبل الأمير حسين، ملك الملوك، وأمير سمرقند، وخادم...**).

أجابه الأمير تيمور: (**لقد جئت من قبل حسين، ناهب الجوامع، والهارب من الأمير تيمور، ولكن ماذا يريد**)؟.

الإمام: (**إن حسين، يا سيدي الأمير، يريد أن يعقد الصلح معك، ويشترك معك في حماية سمرقند**).

- (**ولكن كيف يستطيع حسين أن يشترك في حماية شيء لم يعد يملكه؟**.

فقل له سأقطع رأسه لقاء الخيانة التي ارتكبها، والانتهاك الفظ الذي مارسه ضدَّ ديانة رسولنا محمد ﷺ ورجال الدين. فاذهب وقل له هذا).

- (**ولكن ليس هذا كل شيء، فإن الأمير حسين سوف يستسلم إليك، وسيضع نفسه تحت رحمتك ورحمة الله، وهو يقول إن الأمير تيمور، لا يقتل الأعداء الذين يستسلمون إليه**).

- (**إن هذا هو ما يقوله الناس عني، وهذا حق وصدق، وأنا لا أقتل الرجال الذين يستسلمون إلي، فارجع إلى حسين، وقل له هذا**).

خرج الإمام مغتبطاً مسروراً فرحاً بما وجد من سماحة لدى الأمير تيمور.

وقد سأله سيف الدين: (**ماذا ستفعل به عندما نقبض عليه**)؟.

فقال الأمير تيمور:

(إنني سأدعو الأمراء وعلماء الدين إلى جلسة عامة لمناقشة وتقرير ما يجب أن نفعله به، وإننا سندعهم يقررون ما يتوجب علينا أن نتصرَّف به، وإن استقلال البلاد التترية مهدَّد بأشد الأخطار، وإنني واثق أن قرار علماء الدين لن يكون مخالفاً لمصلحة الشعب التتري وسيادته. أما أنا فلا أقتل رجلاً جنح للسلم).

ولما حوكم حسين وُجد مذنباً بعدَّة جرائم، وقيل أن الأمير تيمور حاول إنقاذه إذ لم تعد له شوكة ولا محب له، إلا أن ثلاثة من الأمراء الحاقدين عليه، عمدوا إلى اختطافه وقتله.

* * *

المحرِّر من الشرائع الجنكيز خانية

من يمسك القرآن بيد والسيف بيد

بعد مقتل الأمير حسين، دعا الأمير تيمور إلى انعقاد المجلس العام لرؤساء القبائل وأمراء المناطق، فأسرعوا وجاء إلى هذا المجلس في هالة ووقار ومهابة أناسٌ مُعمَّمُون، وأمراء إيرانيون، وفقهاء وعلماء بخارى، مع رؤساء كليَّات وجامعات إسلامية، وخدم للمساجد، وأساتذة في علم الكلام.

وجاء مع القوم أئمة ورؤوس المؤمنين، وكان من جملتهم (**زين العابدين**) ورفيقه المبجَّل (**الخواجه بهاء الدين الناسك**)[1] الذي كان محترماً كقديس في بلاد ما وراء النهر. واعتزل الأمير تيمور بيك المجلس بعد أن طرح مسألة الإمارة والعرش على بساط البحث، وافتُتِح المجلس وأخذ كل عضو يبدي رأيه:

فذهب بعض الأمراء المحافظين إلى ضرورة مراعاة التقاليد القديمة وانتخاب رجل يمتُّ إلى جنكيز خان بنسبٍ ليكون ملكاً وخاناً صوريّاً، ويكون الأمير تيمور نائبه والحاكم بأمره، وذهب فريق آخر إلى انتخاب الأمير تيمور نفسه دون نظر إلى سواه، وازداد الخلاف بين الفريقين.

وعلى الأثر نهض ناسك واقفاً يُعرفُ (**بأبي السعادات**) ليتكلم باسم رجال الدين بوضوح وجلاء قائلاً:

(**إن شريعة محمد ﷺ، لا تسمح بأن يحكم الوثني الزنديقُ، المسلمَ، وإنه لمخالف للشريعة، أن يكون المسلمون خدماً للكفرة من بينكم، وليس أبناء جنكيز خان وحفَدته غير قوم لا يؤمنون بالله ورسوله. وفيما يتعلق بجنكيز خان، فقد كان كافراً يسكن الصحراء، وقد احتلَّ بلاد المسلمين بالعنف والسيف، والآن فإن سيف الأمير تيمور لا يقل فاعلية عن سيف جنكيز خان**).

ثم توجه بكلامه إلى المحاربين، وأخذ يخطب فيهم ويلهبهم حماساً وغيرة وقال:

[1] الخواجه بهاء الدين الناسك: مؤسس الطريقة النقشبندية في العالم.

(لقد هربتم أنتم وحسين جميعاً أمام طوغلوك لتختبئوا في الصحراء، ولم تخرجوا من مخابئكم إلا بعد أن زحف الأمير تيمور ضدَّه، إنه لم يطلب منكم مساعدةً للتغلُّب على عدوه، ولا هو اليوم مطالبٌ بذلك.

لقد تكلمت معكم قبلئذٍ كطورانيين، ولكني أعلم أنكم مسلمون، وأنا المنحدر من ذرية حفيد سيدنا محمد ﷺ بالتشاور مع منحدرين آخرين من هذه الذريَّة الطاهرة، ومع كبار العلماء والفقهاء، فإني أنظر إلى الأمير تيمور، كالسيد الأوحد لبلاد ما وراء النهر، نعم ولجميع بلدان طوران).

لقد وجد رجال الدين الفرصة السانحة في شخص الأمير تيمور بيك من أجل تحرير البلاد التترية كلها من آثار شرائع جنكيز خان، تلك الشرائع التي كانت بعض القبائل الشمالية لا تزال تتمسك بها، وتدين بمبادئها، بسبب تأثير سابق انتصارات جنكيز خان الدنيوية اللاإنسانية.

ذلك لأن الأمير تيمور كان مسلماً وَرِعاً، وكان وحده القادر على إعادة النظام والاستقرار، من الفوضى والضياع، وعلى الوقوف في وجه الغزاة من الشمال، أعداء الإسلام منذ القِدم، القائمين على السلب والنهب والضلال. كل ذلك جعل من انتخاب الأمير تيمور أمراً محتماً، وزاد على ذلك إصرار المحاربين الذين خَبَروه على عدم القبول بأيِّ حاكمٍ سواه.

وفي اليوم التالي توجه جميع الأمراء والقادة، وكبار الشيوخ، إلى الأمير تيمور، حيث انحنوا أمامه على ركبهم، ومن ثم حملوه ليجلسوه على عرش اللبَّاد الأبيض، سيداً عليهم وسلطاناً.

وأخذ (**المُلاَّ زين الدين**) بيده القرآن الكريم، وطلب من الأمراء والقادة القسم به، ليؤيِّدن تيمور الملك، ولينصرنَّه وليدافعنَّ عنه، ولا يعترفُنَّ بملكٍ غيره.

ولما انتهت حفلة المبايعة والقسم، وقف الشيخ (**مُلاَ زين الدين**) خطيباً وقال:

(هذه إرادة الله قضت بأن تصبح فاتحاً، وأن تكون منتصراً، وستزداد قوة وسلطاناً وفتحاً، وسيعظم شأن الإسلام عن طريقك، وسيصيبه من فتوحاتك كل الخير والتقدم).

وقد بدأ الملك تيمور عهده بأن أعلن أماناً وعفواً عن جميع من كانوا أشهروا السلاح ضدّه.

جاء في إعلانه: (**أنه قد محا من نفسه كل تفكير ورغبة في الانتقام، وتنازل عن كل شيء كان له أو فقد أو سُلب منه أثناء الاضطرابات الماضية**).

(**وهكذا فعل ﷺ مع قريش بفتح مكة حينما عفا عنهم وقال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»**). ولكم في رسول الله ﷺ أسوة حسنة.

وجعل من سمرقند عاصمةً له.

ومن ثم أعقب ذلك إصدار مجموعةٍ من المراسيم التنظيمية في الإدارة والجيش.

كان في أول أمره إذا نزل بأحدٍ مستضيفاً، استنسبه وحفظ اسمه ونسبه، وقال له: (**إذا بلغك أني استوليت على الممالك فائتني بعلامة كذا أكافئك**)، فلما ملك هرعت الناس بالعلائم إليه، فكان ينزل كل أحد منزلته.

وقد عفا الملك تيمور عن الأمير موسى القائد السابق لجيوش الأمير حسين، وكان سابقاً قد اشترك في مؤامرة لاغتيال الملك تيمور، بعد أن كان قد عفا عنه أول مرة، وكذلك عفا عن شريك موسى "**أبو المعالي**"، وعن "**زنده حشم**"، حاكم موقع (**شبورغان**) بعد أن أخذ منه عهداً بالطاعة، وبالعمل على إلحاق عشيرته بطاعة الملك تيمور.

كما أنه أعدم كيخسرو ختلاني الذي تعاهد مع حسين صوفي حاكم خوارزم المستقلة ضد الملك تيمور، وأشعل نار الفتنة، بعد أن ثبت الجرمُ عليه، ووُجهت إليه تهمة الخيانة وإشعال الفتنة والقتل بين المسلمين.

* * *

السلطان تيمور بيك

عمد السلطان تيمور إلى تعيين وزرائه وضباطه وأعضاء مجلسه الخاص وأركان حربه.

كما أنه بسط يده في العطاء وزاد فيه، فلم يترك لديه شيئاً مما كان يملك إلا دفعه إلى رجاله وقادته وأنصاره، حتى عتب عليه بعض رجاله من الأمراء ورجال الدين، فقال لهم:

(**إذا كنت ملكاً فكل ما معكم هو لي، وإذا لم أكن ملكاً، فما فائدة ما لدي من الأموال والخيرات**).

بويع تيمور كسلطان، ولكنه لم يتخذ هذا اللقب، ولا أي لقبٍ ملكي آخر[1]، إلا أن خطباء المساجد كانوا يغدقون عليه ألقاباً شتى :

(**السلطان العادل، الخاقان الراشد، الباديشاه العظيم، الأمير المجيد**)، وهناك أيضاً لقب: (**قطب الحق والدنيا والدين**).

احتفظ السلطان تيمور منذ البداية بجميع أعنَّة السلطة في يديه، رغم اتِّخاذه مجلس الشورى، والسماح لإبداء الرأي.

وقد أظهر شدته وحزمه تجاه بغاة الفتن، ومثيري القلاقل.

وأنزل القصاص والعقاب بالغزاة واللصوص الذين يغيرون على حدوده الجنوبية والغربية، وأخمد بعض الانتفاضات، التي أعلنها ضدَّه بعض الأمراء الطموحين، الذين خطر لهم أن يشقوا عصا الطاعة والولاء للسلطان تيمور، عن حكومته التي جمعت شمل بلاد المسلمين الممزق.

وكذلك كان شأنه مع عشائر المغول، وأنصار الخان، الذين أحدثوا القلاقل وأثاروا الاضطرابات في المنحدرات أو في الجبال نحو الشرق، فأخذ يقذف أشياعهم وأنصارهم بالفرقة بعد الفرقة من رجاله، لا يترك لهم فرصة للراحة والاستعداد.

---

[1] بات الأمير تيمور بيك وبيده مقاليد الأمور كلها، وقد صار سيد بلاده، وكان في مقدوره أن يستولي على عرش سمرقند من فوره، لولا أن رأى أن هناك من المصاعب ما لابدَّ له من أن يتغلب عليها أولاً، ومن الأعداء من لا مناص له من استمالتهم إلى صفّه، كذلك وبدا له أن حقد شانئيه عليه لا بدَّ أن يزداد إذا ما اتخذ لنفسه لقب السلطنة، فحسم هذا الأمر خشية الاقتتال بين المسلمين، بأن عزم على إقامة عضوٍ من أعضاء الأسرة الحاكمة نفسها على عرش الجغطائيين، ونصب سيورغتيمش "محمود" سلطاناً لينصرف قدماً في خططه نحو تحقيق أهدافه بلم شمل المسلمين.

ولما رأت عشائر المغول أن تيمور يتعمَّد أن لا يترك لهم فرصة تركوا حدوده، وانسحبوا إلى أراضيهم في الجبال الشمالية، وكفوا المسلمين شرورهم.

* * *

حكم من نوع جديد

بدأت بلاد ما وراء النهر تتلقى فكرة جديدة عن النظام والانضباط وأساليب التصرف، إذ عمد السلطان تيمور بيك إلى طريقة حساسة وفريدة مع مرؤوسيه.

ومما يذكر من الأمثلة:

- «أثناء قصاص قبائل المغول عهد إلى قائدين عسكريَيْن بالحركة إلى الشمال لقتالهم، ولما وصل هذان القائدان مراعي هذه القبائل وجداها مهجورة خالية من سكانها، فاعتقدوا بأن مهمتهما أُنجزت فعادا أدراجهما.

وبعد عبورهما لنهر (سيرداريا) التقيا بفرقة من الخيَّالة الصديقة متجهة نحو الشمال فسألا قائدها عن وجهته ومهمته فأجاب:

إننا متوجهون للعثور على قبائل الجات التي استعصى عليكم العثور عليها!.

فارتبكا في أمرهما وخجلا، وعلى الأثر انضما إلى الفرقة الجديدة عوضاً عن أن يتابعا طريقهما راجعين إلى المقر.

وبعد سنة عادت هذه القوة المشتركة إلى سمرقند، وقد أحرزت النصر والقضاء على المعتدين المغول، وقد أثنى السلطان تيمور على الجميع، وكافأهم بصورة متشابهة، دون أن يشير بشيء بخصوص المحاولة التراجعية الأولى للقائديْن.

ولو أنه قال شيئاً عن ذلك، لاعتُبر قوله بمثابة إهانة لهما، ولبادرا فانسحبا مع رجالهما عند سنوح الفرصة ليستهلاَّ معه خصومة دموية. و لم تكن البلاد قد استقرّ أمنها بعد.

ولكن هذا التصرف كان درساً بليغاً لهما ولغيرهما».

«زعم رؤساء قبائل أنهم مظلومون: ‹حنيناً إلى الاستقلال›، واعتصموا بحصونهم، معلنين تمرُّدهم، وفي ظرف مدةٍ قصيرة تمكنت ألوية خيالة السلطان تيمور من اعتقالهم وسوْقهم كأسرى حتى سجادة السلطان تيمور، الذي أغدق عليهم بالهدايا وأعادهم مُكْرمين أولياء حميمين له».

«هرب ضابط من معركة فقبض عليه رجال السلطان تيمور ونزعوا سلاحه، ثم رُبط على ظهر حمار ووجهه إلى الذيل كما أشار السلطان تيمور، وعُرض أياماً على هذا الشكل في شوارع سمرقند عنواناً للسخرية والاستهزاء».

«الأمير (**كيخسرو ختلاني**) انبطح على بطنه أمام السلطان تيمور وأخذ يتذلَّل. وهو يرتجف رعباً مما جعل السلطان تيمور يركله في وجهه ركلة قوية، ليحثّه على حفظ كرامته ولو أمام السلطان».

«أُسقط في أيدي مغول الجات ووجدوا أن لا فائدة من المقاومة، فأذعنوا مستسلمين للسلطان تيمور، وعرضوا طاعتهم له، وكان منهم(بايان) بن الجنرال (**بيكجيك**) كما سبق وأشرنا».

«قضى على مجموعات تتعاطى الدعارة وأعمال إفساد الأخلاق، وعلى جماعات المصارعين والملاكمين الذين كانوا فِرقاً متخاصمة ويتسببون عادة بإحداث إخلال الأمن».

- وجاء في كتاب أعيان الشيعة تحت عنوان: (**قتله المفسدين في سمرقند**) قال:

«وكان في سمرقند كثير من المفسدين، وهم فرقتان كقيس واليمن، ولكل فرقة رؤساء، وكان تيمور يخاف على المسلمين منهم، فكان إذا قصد جهة أقام نائباً عنه في سمرقند، فإذا خرج عن البلد خلعوا النائب، أو خرجوا مع النائب، وأظهروا المخالفة، فإذا رجع تيمور، أصلح الحال، فإذا خرج من سمرقند، عادوا إلى ذلك، تكرر ذلك منهم نحواً من تسع مرات، فأعمل الحيلة في استئصالهم، وأراد عمل سور للبلد، وقسّم الأعمال على الناس وأفرد أولئك مع رؤسائهم في جهة، ورتب أناساً من أعوانه في مكان، وأمرهم بقتل كل من أتى إليهم، فكان إذا فرغ الناس من العمل، خلع على رؤسائهم، فإذا أفضت النوبة إلى رؤساء المفسدين، خلع على الواحد منهم وأمره بالذهاب لذلك المكان لقبض الجائزة فيقتل، حتى قتلهم جميعاً».

"شأهم كالمرتدين الذين يحاربون الله ورسوله ويفسدون في الأرض ولا يصلحون، والفتنة أشد من القتل".

«كما أنه بنى مسجداً كبيراً في سمرقند، ورباطاً يأوي إليه الزهَّاد للتأمل والعبادة، وكذلك بنى بيوتاً للضيافة، وجعل قُوَّاماً عليها».

«قام السلطان تيمور بتوحيد بلاد ما وراء النهر، وقضى على النفوذ الأجنبي فيها، ودافع عنها ضد الأعداء الخارجيين الطامعين بها».

«عني بالضبط والربط، فعلَّم قادته وجنوده احترام النظام، وسرعة تنفيذ الأوامر، وأخذ يكافئ المحسن، ويعاقب المقصِّر، وكان شعاره: الحكم بالعدل، والسخاء بالمكافأة».

كيف صنع رجاله

عمل السلطان تيمور على أن يوفِّق بين رجاله، وأن يحملهم على طاعته والنزول عند إرادته، وكان عليه بعد ذلك أن يدفعهم للجهاد في سبيل الله، واقتحام الموت، فيمشون إليه باسمين ضاحكين.

ولقد حدث يوماً أن ذهب الشيخ «**علي بهاتور**» و«**كاتي بهاتور**» الصيني على رأس فرقة من الجند لمحاربة فرقة من الجاتيَّة، فعثروا عليها وقد حطَّت خيامها على أرض كثيرة الماء والأشجار، يفصل بينهم نهر صغير، فجلس القائدان يتحدثان بالخطة التي يجب اتِّباعها، وبينما كان «**كاتي**» يتكلم وجد رفيقه الشيخ علي لا يحير جواباً، ولا يقدم رأياً، فظن أن سبب ذلك عدم موافقته على رأيه، فقال:

(**ما الذي يدور في خلدك**)؟!.

فقال الشيخ: (**هذه والله الطريقة التي يقاتل بها الصينيون**).

فغضب كاتي وقال: (**إذن انظر كيف يحارب الصينيون**).

وترك مكانه وركب فرسه وهجم على بعض رجال المغول بنفسه لوحده بعد أن عبر النهر، فما كان من الشيخ علي إلاَّ أن لحق به وأحاط بهما رجال المغول، فأسرع رجالهما التتار لإنقاذهما وردِّ العدو عنهما، وتحقَّق النصر.

ولما عاد القائدان إلى مخيمهما رجعا يتحدثان كعادتهما كأن شيئاً لم يقع، أو كأن خطر الموت لم يكن يتهددهما منذ دقائق فقط.

كان النصر بالنسبة لرجال السلطان تيمور هبة من الله. وكان الفقهاء وعلماء الدين يؤكدون لهم ذلك في كل مناسبة.

وبالرغم أنهم كانوا رجال حرب، إلاَّ أنهم كانوا يجلسون لساعات كمن هو في غيبوبة، أمام درويش بسيط الهيئة والدثار، يصرخ في وجوههم، مذكِّراً بالجنة ونعيمها، ومحذِّراً من حب الدنيا الدنيَّة، سبب النار وجحيمها.

وفي مواجهة الموت في ساحة الوغى، يقذفون بخوَذهم في الهواء ويهتفون بأعلى أصواتهم، مغتبطين بهذه اللحظة «**طاب الجهاد**».

وكانوا غيارى على شرفهم وسمعتهم الشخصية، كما كان العار أشد وقعاً على أنفسهم من المرض والمعاناة، وكانوا يرددون: «**لا حياة بلا شرف**».

لقد كان السلطان تيمور يمقت الجبان ويزدريه، ويحب الشجاع الجريء، وأدرك الجند ذلك، فتنافس ضباطه وجنده في إرضاء السلطان تيمور، وخاضوا غمار المعارك ببسالة لا حدَّ لها، ونحا نحوهم القادة الضباط، الذين لا ينحدرون من أصل تتري.

وبذلك نجح في أن يبثَّ في رجاله روح الجرأة والإقدام، والتضحية بالنفس العزيزة، وفرض على كل ضابط أن يكون ملمّاً بقواعد أساسية، يعيِّنها السلطان تيمور للتكتيكات العسكرية، ولا يزال هذا النظام يلزم به حتى اليوم كل فارس أوزبكي، أو قائد تركماني في تعليمه، فما أن يبلغ رشده حتى يمْثُلَ أمام جمعية من أعيان القوم، فيختبرونه في مسائل تتعلق بالعقيدة والآداب، والفروسية وسياسة الخيل.

أما الجندي العادي فيلزم بالطاعة التامة لرؤسائه، وكان عليه أن يندفع بحماس في القتال، على أن يعامل عدوه بلطف إذا ما استسلم إليه واسترحمه.

وفي الجملة كان الجندي التيموري أبعد ما يكون عمّا وصفه به أعداء السلطان (تيمورلنك)، بأنه كان مجرَّد غول شرس..

كما أن كبار الموظفين يوكل بهم تنفيذ القوانين وجمع الخراج، في رفق بالناس ما وسعهم ذلك.

وكان استخدام السوط ممنوعاً منعاً باتاً، حتى إنَّنا لنرى السلطان تيمور بيك يقول:

(**إن الحاكم الذي يهاب الناس سوطه أكثر من شخصيته، غير جدير بمنصبه**).

ومع ذلك ورغم رحمته التي كان يخفيها بقلبه، كان الناس يخشون بطشته، بل وترتعد فرائص المفسدين من هيبته، ولكنهم يرجون رحمته، ويعلمون أنه لا يقتل من استسلم إليه.

و لم تكن الإدارة المدنية لهذه البلاد، أقل إحكاماً ونظاماً عن الإدارة العسكرية.

فكان على الموظفين المدنيين التزامات أثناء اضطلاعهم بواجبهم بمعاملة الأهلين بالعدل والانصاف، مع رعاية مصالح التجارة كذلك.

فتم إصلاح الداخل، وتهيَّأت الأسباب لإصلاح الخارج.

حيث أصبح جيش السلطان تيمور بيك، قوياً مهاباً، يخشاه الملوك والأمراء، ويتقربون إليه بالهدايا النفيسة، رهبةً من بطشته إن عصوا، ورغبة في رضاه إن استقاموا.

دستور... لا كالدساتير

تتابعت انتصارات السلطان تيمور بيك، وذاع صيته وحسن طالعه ونجاح حملاته، الأمر الذي حمل كل راغب لإعلاء كلمة الله، على الشعور بالفخر والاعتزاز إذا هو استطاع الانضمام كمحارب، فرداً أو كمجموعة مع ذويه أو عشيرته، إلى أحد ألوية هذا القائد الذي لا يُهزم.

وأخذت تظهر الجندية النظامية، في تشكيلات الحرس، وفي حاميات المدن والقلاع، والقوة الضاربة.

دأب السلطان تيمور بيك أن تكون فرقته الخاصة من اثني عشر ألفاً، تيمُّناً بحديث رسول الله ﷺ: «..وما هزم قوم بلغوا اثني عشر ألفا من قلة..»[1].

وكان له ذلك، فما كسرت له راية. وجعل الكفالة الاجتماعية لعموم شعبه ديدنه، كما عمد إلى مكافآت مشجعة، ورواتب زمنية، لأولئك المحاربين.

وكـــان يقـــول:

(يقتضي للعسكري المتفرغ للجندية أن لا يفتقر لا إلى المرتبة، ولا إلى الراتب، فالرجل من هذا النوع، الذي تخلى عن الراحة الدائمة، من أجل الشرف، يستحق كل مكافأة).

وبذلك الكفاف والكفالة، كانت تنزل أقصى العقوبات، بمن تسوِّل له نفسه سرقة، أو اغتصاب، أو نهبة.

وكان السلطان تيمور بيك، يصرُّ على هذا الرأي، ويعمل بموجبه.

كان يسهر مشرفاً على تسجيل أسماء جميع المجنَّدين وعائلاتهم وأولادهم، وعلى أن تكون العلاوات والمكافآت والامتيازات مثبتة في السجلات، بواسطة الكتبة المختصّين.

وعمد إلى ترفيع الرتب، بناء على شجاعة الفرد وإقدامه، ومهارته الشخصية.

وجعل إشارات تُمنح لهم تشريفاً ومكافآت، كحزام مرصَّع، أو معطف مطرَّز، مع باقة مذهَّبة، وأحياناً سيف مميَّز، أو حصان أصيل.

[1] رواه أبو داود والترمذي.

وعندما يحققون انتصارات، كانوا يمنحون مكافآت أعظم وأضخم، مثل إقطاع مدينة مع عائداها، أو ولاية في بعض الحالات.

كان الترفيع للكفاءة فقط، رغم أن بعض أمراء الجيش الكبار كانوا من أفراد العائلة المالكة ولكن بكفاءهم.

وكان القائد "**جاكو برلاس**" أحد القلائل الذين ظلوا على قيد الحياة، وقد تقاعد في جلال وعظمة، مع مرتبة أمير الأمراء، وحكومة بالخ كهبة إضافية.

وكان السلطان تيمور بيك، يكره الشخص الذي يُوجِد الأعذار لفشله، أو الذي يتحاشى المخاطر والأزمات، أو الذي يتأكد من طريق تراجعه قبل أن يُقدم.

كان لا يطيق الغباوة والحماقة، وكثيراً ما كان يقول:

(**عدو عاقل أقل ضرراً من صديق غبي أحمق!..**).

وكانت الألقاب والمكافآت التي تمنح للبارزين من أفراد القوات كثيرة:

أخصُّها: «**رايات محلاَّة بذيول، طبول، أو لقب (بهادور) أي (شجاع)**».

أما التموين والإمداد فهي مسؤولية كل قائد عن مجموعته، وعريف العشرة مسؤول عن تلافي كل نقص في حضيرته، حتى الإبرة للخياطة.

وكانت ترافق الجيش فرق إسعاف، لتقديم المساعدات على وجه السرعة.

أما الروح المعنوية:

كان السلطان تيمور بيك يوليها اهتماماً عظيماً.

وكان لذلك يحث على النصر، ويعمل له، ويجهد ليكون قدوةً للجميع، فكان يعامل الجنود وكأنه واحد منهم، ولا يجلس إلى الطعام، إلا ومعه عدد من جنده، وقد تعلَّقوا به إلى حد كبير.

كان لا يفرِّق من أجل النصر، بين كبير وصغير، وكان أولاده يشتركون مع الجند، في نقب الأسوار واقتحامها، وقد استشهد كل أولاده، باستثناء "**شاه روخ**"، وكثير من أحفاده، في ساحات القتال.

كان في كثير من المناسبات، يضرب المثال لجنده من نفسه، وكان دائماً يحاول أن يقنع جنده بأن المعارك التي يخوضها، هي سبيل إلى رضاء الله، وأنَّ من يفر من المعركة لا نصيب له دنيا وآخرة، ويبوء بسخط من الله.

وكان يتقصَّد أن ينشر بين جنوده قصصاً عن المآثر الشخصية للمحارب الشجاع، من المروءة والشرف، والنخوة والإيثار، والعفاف والرحمة واللطف لمن يلقي إليه السَلَم، وأن مثل هذا المحارب يستطيع بلوغ أعلى الرتب، كما أوجد العقوبات للعصيان والفرار والتجسس، وكان بعض هذه العقوبات معنوياً، كالتوبيخ والتنديد.

كانت بعض عقوباته مادية: «**كالحرمان من الراتب**»، وبعضها جسمياً: «**قد يصل إلى الصلب، وضرب العنق**»، وفرض الانضباط والطاعة في الجيش من الأدنى للأعلى، في حالة السلم والحرب.

كما أن السلطان تيمور بيك، دأب على عدم إلقاء جنده بمعركة فاشلة، تودي بهم إلى الهلاك، فكان يضع الخطط، بحيث لا يترك فيها شيء للحظ والمصادفة.

وكان يعلق أهمية خاصة للحظة بدء الهجوم، وأن تكون زمام المبادرة بيده، فاعتبر الحركة عند انطلاق الهجوم، بمثابة دليل على قيمة القائد، من حيث الفن العسكري والمهارة القتالية، والقائد الماهر هو الذي يحرِّك قطعاته أثناء القتال، كما يحرك يديه، ويستخدمها كما يستخدم خنجره وهراوته وحربته، في الوقت المناسب، وبشكل يضمن تآزر القطعات وتعاونها بعضها مع بعض، كالرجل الواحد الذي يقاتل بأعضاء جسمه كلها.

وغالباً: ما احتلت الحرب النفسية مكانها البارز لدى تفكيرالسلطان تيمور بيك وتخطيطه، فكان يعمل على تحطيم المعنويات، وروح المقاومة لدى الأعداء، فيحطِّم الجهاز الحربي الدفاعي لديهم، بنشر الإشاعات، والتحريض على الانضمام لصفوفه، والتظاهر حيلة بكثرة قواته، واستغلال المنافسات بين قادة العدو.

وقد سبق تيمور بيك أهل عصره في استخدام العيون والطابور الخامس، فكان له مقدرة فذة في استخدام عناصر الاستطلاع والإخبارية، وحقق بذلك قدراً وفيراً من المعلومات التي تحفظ الأرواح، قبل تحقيق النصر والغلبة.

فكان يسير على تعبئة كاملة واستعداد تام، لأي طارئ في القتال المرتقب.

كانت ميزة بطشته:

«الهجوم المباغت، وخفة الحركة، ومرَّس فرسانه على التنقل العاجل، والسرعة والجرأة، فاعتادت خيلهم العدو السريع، وانطبعت نفوسهم بالاندفاع الخاطف، حبّاً بالشهادة، لاسيما بعد أن شحذ معنوياهم سيدهم تيمور بيك بطالع سعده، وتأييد ربِّه، فكانوا لا يعبؤون بالمشقة، ولا يعرفون للهزيمة معنى.. فليس هناك ما يخشون عليه من الخسران، إما نصر محقق، وإما شهادة مرجوّة».

رأوا بأمِّ أعينهم تأييد الله لسلطاهم ونصره بالرعب، فكانت أخباره تفتح لهم أبواب المدن، قبل وصول الجيش، وتهزم روح العدو قبل لقائه. وكان ذلك جزءاً من مخططات السلطان تيمور بيك، حيث يتعمد أن تذاع أخبار فتوحه، وما جرى بخصومه من مصائب وويلات وزيادة، حتى تهتز لهذه الأنباء قلوب الملوك والأمراء، فإذا همَّ الجند التيموري بمهاجمتهم، توهَّموا عمَّا سيحل بهم، وبذلك تكون الهزيمة المعنوية فاتحة لهزيمة مادية، وغالباً ما تكون سلمية.

وليس بوسع قائد عالمي حديث بعد دراسات وأكاديميات أن يأتي بمثل ما جاء به تيمور بيك من التعبئة المادية والمعنوية للجيوش، الذي سبق بخمسمائة عام.

والفضل للمتقدم.

* * *

عدل وإنصاف

بلغت السلطان تيمور بيك أخبارٌ مزعجة عن ابنه ميران شاه، حاكم إقليم بحر قزوين.

حيث التف حوله فريق من ندماء السوء، وكان إذ ذاك صغيراً في العمر، وانطلت عليه حيلهم وألاعيبهم لإسقاطه اجتماعياً عند شعبه، ومن ثم التفرُّد بالحكم إن فُسِحَ لهم المجال.

لم يطق السلطان تيمور بيك صبراً على أفعال ولده، فشدَّ الرحال إلى مدينة (سلطانية)، وتأكد بنفسه من آثار الشذوذ الذي حل بها.

فأمر بقتل ابنه «**ميران شاه**» في الحال، فقبض عليه، وسيق أمامه مقيَّداً ذليلاً إلى الإعدام، وتدخل الأمراء قائلين:

(**إنه صغير السن، قليل الخبرة، دفعه نزق الشباب إلى ارتكاب المساوئ التي زيَّنها له رفاقه**).

أمام إلحاحهم عفا عنه السلطان تيمور بيك عقوبة الإعدام، وجرَّده من سلطة الأمراء ونفوذهم، وأمره أن يظل مقيماً في البلاد التي كان حاكماً عليها، خاضعاً لسلطان حاكمها الجديد الذي عيَّنه مكانه، وجرَّده من كل امتياز وصلاحية، وأصبح شأنه شأن غيره من الناس.

أما بقية ضباطه وأمرائه الذين كانت ترتسم على وجوههم نفس تعابير المجرمين وانطباعاتهم.. كالخوف والجبن، والغطرسة والحنق والمكر، فإنهم لاقوا قصاصهم العادل، لكن على ما صدر من أعمالهم.

* * *

تحـــرير خــوارزم

وجد السلطان تيمور، أن من ضرورة استقرار الحكم في بلاد ما وراء النهر، ضم خوارزم التي تحكمها أسرة آل صوفي المعتدية، والمنتمية إلى قبيلة مغولية متتركة تدعى (**غوتكرات**).

وقد عمدت هذه الأسرة أثناء الصراع بين السلطان تيمور، وحسين حفيد المِلك كورغان، إلى الاستيلاء على مدينتي (**كات وخيفا**) التابعتين لبلاد ما وراء النهر.

كان أمير خوارزم سيد (**كيفا**)[1] و(**أوركنج**)، (**وبحر آرال**) لا يزال على موالاته للمغول، وتجاهله للسلطان تيمور، إذ لم يكن يعرف عنه إلا أنه كان شريداً متطوفاً، وقد تنازع مع التركمان، من أجل الحياة في صحراء الرمال الحمراء، كما أنه ينظر إلى بلاد التتر أنهم وثنيون رغم إسلامهم منذ أجيال، وتلك النظرة تسود سكان خوارزم، ولذلك عندما أرسل السلطان تيمور وفداً إلى الأمير الصوفي محملاً بالهدايا والنفائس، وطلب يد «**خان زاده**» ابنة الصوفي لابنه الأكبر «**جها نجير**»، رفض الصوفي الطلب، وظن العكس، وحمله محملاً عدائياً، بأن السلطان تيمور بيك طامعٌ في أرضه، وعدَّه وقاحة زائدة من السلطان تيمور، بالرغم من حمله صفات المودة والمحبة.

كما ظن أن السلطان تيمور اختار أن ينظر إلى (**سيد أوركنج**) كتابع له، وأنه يطالب بحقوق (**خان الجات**) وامتيازاته، وبالحدود القديمة للخانية المغولية الجغطائية.

أي أنه يريد أن يسترد الأراضي المحتلة. أمر عجيب!.

فتكبَّر وتجبَّر، وجاء في ردّ الصوفي هذا:

(كما أنك قد ظفرت بسمرقند بواسطة السيف، وهكذا أنا قد ظفرت بخوارزم بواسطة السيف. ولن تأخذ أرضنا منَّا إلاَّ بالسيف أيضاً، وإننا لا نقبل أن نخضع لأي أمير).

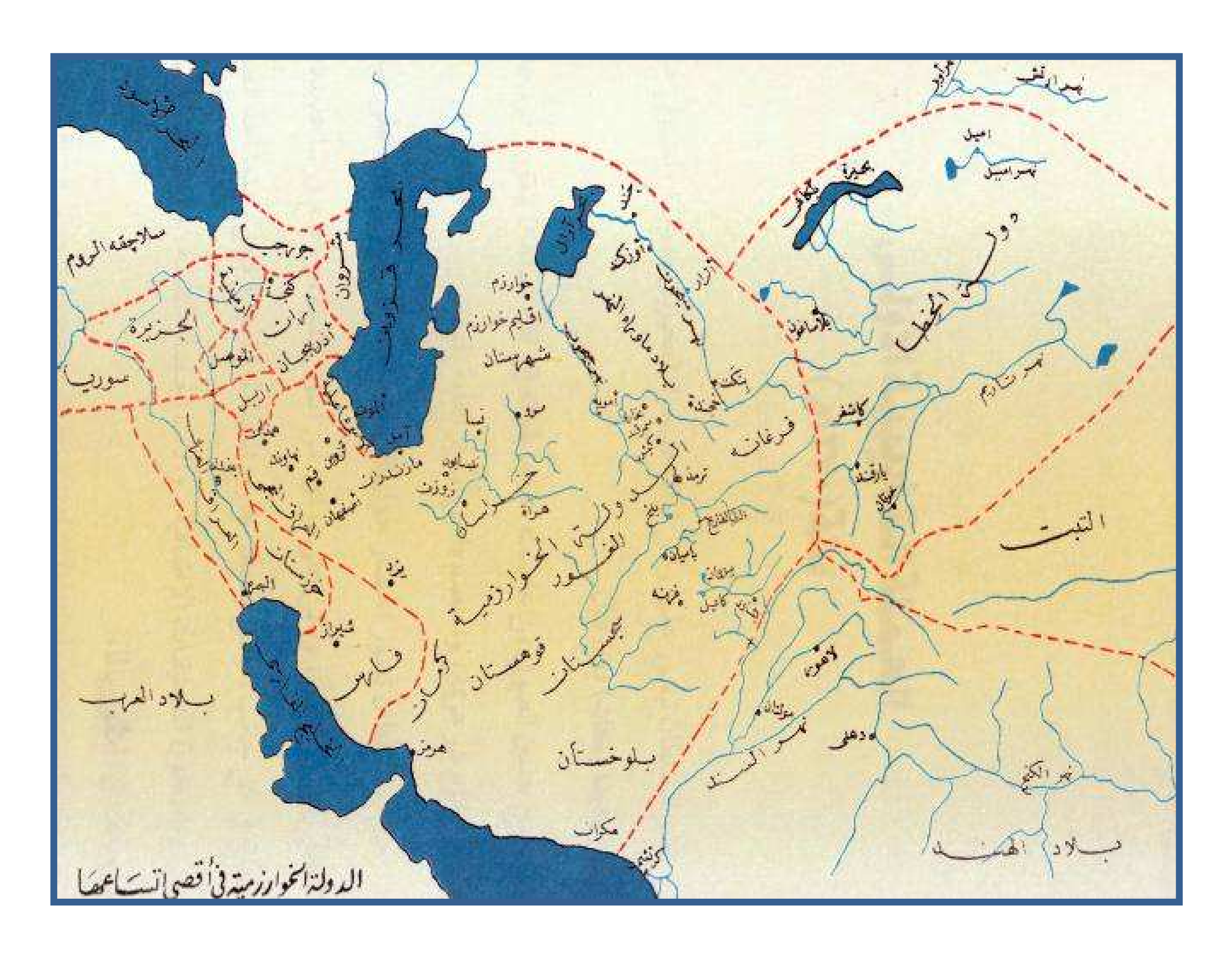
قرر السلطان تيمور أن يزحف إلى خوارزم دون إبطاء، ولكن أحد الشيوخ أقنعه بالتريث والانتظار، ريثما يذهب للتداول مع الأمير الصوفي، ونصحه بالحفاظ على دماء المسلمين، أملاً في التوصل إلى اتفاق

---

[1] **حصن كيفا**: حصن يتبع من (ديار بكر) الواسعة إلى بلاد الجبل المطل على نصيبين إلى دجلة.

معه بخصوص الخلاف بين الطرفين دون إهراق الدماء، ولكن حسين الصوفي اعتقل ذلك الشيخ الموفد من قبل السلطان تيمور، وأودعه السجن.

وفي ذلك إعلان للحرب على السلطان تيمور من جانب خوارزم. ولم يعد من الممكن السكوت والتفاهم.



هذه الدولة العظيمة آلت للسقوط وأصبحت فريسة كل مغتنم إثر انشغال ساداتها عن الحكم والرعية بمطامعهم الشخصية

الحملة التأديبية الأولى

سنة (١٣٧٠م)

عبر السلطان تيمور على رأس قواته صحراء (كيزيل كوم)، واستولى على مدينتي (**خيفا وكات**) دون قتال.

خرج حسين الصوفي من عاصمته متقدماً بقواته إلى لقاء السلطان تيمور، فَرُدَّ على أعقابه، وهزم شر هزيمة، واعتصم داخل أسوار القلعة المنيعة.

ضرب السلطان تيمور الحصار حول القلعة، وتعمد أن يعمل رجاله على مسافة لا تصل إليها الأقواس، ولكن على مرأى من أسوار المدينة، ووضع ورشاً عديدة من الصنَّاع في كل جانب، وظل يعسكر خارج المدينة لمدة أسبوع كامل، بينما أخذ الصناع يبنون ويصنعون المنجنيقات الإضافية، وآلات الحصار الثقيلة، وعشرات الجسور لعبور الخندق المغمور بالماء.

وكل ذلك حتى يستطيع الأمير صوفي وشعبه أن يرى كيف أن كثيراً من آلات الحصار تبنى بسرعة وبمهارة حول قلعته، وأن الحرب ستضرس بهم أنيابها، لعلهم يرهبون وتحقن دماؤهم.

لذا أرسل حسين الصوفي إلى السلطان تيمور تحت راية الصلح خمسة من رجاله، يرتدون ثياباً بيضاء، ويمتطون خيولاً بيضاء أيضاً.

أنصت السلطان تيمور إلى رسول الصوفي وهو يقول:

(أيها الأمير الجليل السلطان تيمور، أمير سمرقند والمحارب البطل العظيم.. إنَّ صوفيَّ خوارزم، أمير خيفا وسلطان أوركنج والبلاد والأراضي المحيطة ببحر آرال، يطلب إليك أن تقبل المبارزة الشخصية معه).

اغتبط السلطان تيمور بهذا العرض، إذ إنَّ خطته بصنع آلات الحصار حول القلعة على مرأى سكانها، أعطت مفعولها بينهم، وما عَرْضُ الصوفي إلا نزولٌ عند رغباتهم، وقال:

(أحقاً يريد الأمير الصوفي أن يتحداني في مبارزة شخصية أيها الرسول)؟.

فقال: نعم يا سيدي، فإن الأمير صوفي يقول:

(إن النزاع هو بينك وبينه، وإن هذا النزاع قد نشأ من طلبك المهين الصلف ليد ابنته، وأنه ليس مفيداً أن يفنى الكثيرون من أتباعك ومن رعاياه أيضاً، وإن الأمير صوفي يحثك أيها الأمير أن تقبل تحدِّيه، كما أنه يعاهدك بأن الذي يُسيل دم الآخر هو المنتصر).

فقال السلطان تيمور:

(حسناً أيها الرسول فاذهب إلى الأمير صوفي وقل له: إنَّ السلطان تيمور ينتظرك. ولكن قل له إنَّ المبارزة يجب أن تظل حتى يقتل أحدنا الآخر، فإن تلك الإهانات التي وجَّهها لا يمكن أن يثأر لها بمجرد إسالة عدة قطرات من الدم فقط).

وحُدِّد موعد وأرض المبارزة، وانطلق الرسول عائداً إلى مدينته.

قابل قادة جيش السلطان تيمور العرض بمقاومة شديدة، وكان أشد المعارضين «**بايان بن بيكجيك**»، وقد توسَّل إلى السلطان تيمور أن لا ينزل عند هذا الطلب، وأن يسمح له بالنزول إلى المبارزة نيابة عنه، وقال:

(أيها الأمير إن عملنا نحن هو القتال، ومكاننا في حومته، أما أنت فمكانك هو العرش والقيادة، وليس من المصلحة العامة أن تترك هذا المكان).

كما أن قادته الذين خَبِروه بأنه لا يتراجع عن أمر عزم عليه، أبدوا اعتراضاتهم وعدم استحسانهم لتلك الفكرة.

وفي الميعاد المضروب لبس السلطان تيمور لامته، وامتطى جواده، وما أن رآه القادة والأمراء حتى هلعت قلوبهم، وأقبلوا عليه يحاولون إقناعهُ بالعدول عن عزمه.

وجاء سيف الدين وهو أكبر الأمراء سنّاً، فأمسك بعنان الفرس راكعاً على قدميه، وتوسّل إلى السلطان تيمور بدموع حارة، ألاّ يجازف بنفسه، فغضب السلطان تيمور، واستلَّ سيفه وضربه بقبضته على يده قائلاً:

(أتريد منّي أن أكون جباناً).

ثم وكز جواده فأخذ ينهب به الأرض، حتى وصل المكان المعيّن، وكان على مقربة من أسوار المدينة قرب بوابة (**أوركنج**).

ونادى حراسها قائلاً:

(**بلِّغوا أميركم أني بانتظاره**).

ووقف السلطان تيمور كالطود الراسخ، معرَّضاً لسهام الحراس وحرابهم.

ولكن الأمير صوفي رغم شأن شجاعته وبسالته، وشهرته بأنه قائد حملات مغوار، ذو ضراوة بالقتال، لم يحضر وخارت عزائمه.

انتظر السلطان تيمور طويلاً، ولكن الصوفي لم يخرج قط إلى المبارزة، وناداه السلطان تيمور مراراً لكي يحضر، ولكن دون جدوى، ولما أعياه الانتظار نادى قائلاً من خلال البوق:

(**أيها الجبان صوفي الحانث بوعدك!. إن الله سوف يهلكك، وإنني سأستولي على مدينتك لكي أثأر من إهانتك الأخيرة هذه**).

ثم قفل عائداً إلى صفوف قواته، واستُقبلت هذه العودة من قبل قواته، بترحيبات صاخبة، وبالهتافات، وقد عبّر كل هذا عن عميق عواطف الجند نحوه. وزاد في هيبته بينهم جرأته العظيمة، لأنه كان في موقفٍ لمرمى سهام أعدائه.

وفي اليوم التالي، جاء الخبر بوفاة «**حسين الصوفي**» فجأة بمرض حلّ به، وكان الغموض يكتنف سبب موته المفاجئ، وهو في أوج القوة والبأس، فلعلَّ أمراءه وقادة حربه دبَّروا له مكيدة فقتلوه، لما جلب لهم من العار، وذلك بالاتفاق مع أخيه «**يوسف الصوفي**»، الذي خلف أخاه المتوفى في الحكم، وسارع إلى استرضاء السلطان تيمور، حيث أنه لم يكن يعجبهم تصرف حسين صوفي الأرعن، تجاه السلطان تيمور الذي كان يبغي المصاهرة والمودة، وقابل إحسان السلطان تيمور ومودته بالإساءة، وإعلان الحرب والقتال، وجلب لهم القتال والحصار، كما جبَّن عن لقاء السلطان تيمور ومبارزته، فساءهم موقفه الذي كان أشبه بمواقف النساء، إذ طلب المبارزة ثم أحجم وخاف، وفي ذلك ما فيه من العار عليه وعلى قومه، وارتفعت الأعلام البيضاء فوق الأبراج، وقبِل السلطان تيمور عرض المدينة للاستسلام، وفتحت أبواب

أوركنج، وعبر فوق الجسر إمامٌ ذو عمامة خضراء، يرافقه عدد من الأمراء ذوي المكانة العالية والرتَب الرفيعة، كي يقابلوا السلطان تيمور في خيامه.

وبعد أن حيَّوه: تكلم الإمام «**الخوجا بهاء البخاري**» قائلاً:

(أيها الأمير الجليل السلطان تيمور، أمير سمرقند وسلطان البلاد التترية كلها، إنك قد تحدثت بصدق وحق، فقد أهلك الله الأمير صوفي كما تنبَّأت، ومن المؤكد أن الأمير صوفي قد أخطأ عندما رفض طلبك ليد ابنته، وحنث بوعده الذي قطعه على نفسه.

وإن رجال الدين ورجال مجلس مدينة أوركنج يعترفون ببطلان وفساد سيدهم السابق، ويضعون أنفسهم تحت رحمتك، وها هو الصوفي قد مات، ولتكن بركات الله عليك أيها السلطان تيمور. ولتكن حاكماً جديداً لمدينتنا أوركنج، ونحن لسنا إلاَّ خدماً لك ورعايا.. وهذه هي مشيئة الله، وقدره الذي لا يُردّ).

ومن ثم أقسم الأمراء ووعدوا بالولاء والخضوع للسلطان تيمور، وأدهش سكان المدينة وأهلها الرحمة التي أبداها السلطان تيمور، واهتمامه الكامل بشؤونهم. وجعل عليهم «**يوسف شقيق حسين الصوفي**» حاكماً.

كما أنّ «**خان زاده**» أُرسلت كعروس إلى سمرقند دون إنقاصٍ من كرامتها، وكأن أباها وافق على الزواج ولم يرفض قط طلب السلطان تيمور ورغبته، وقد أرسلها عمُّها يوسف محملة بالهدايا إلى سمرقند، كبرهان على عزمه على إتمام الزواج المقترح.

وتمّ عقد قرانها على محمد جهانجير، بمظاهر الشرف في سمرقند، وفقاً لأحكام الشريعة الإسلامية، وقد صحَّ ما أراده السلطان تيمور، إذ أن حكم ما وراء النهر لم ينتظم ولم يستقر إلا بعد أن أخضع منطقة خوارزم لحكمه، بعدها عاش الناس عيشاً رغيداً وحياة هانئة، وقد أجمع المؤرخون على هذا.

* * *

ولاية هرات

كانت الدولة (**الإليخانية**) التي أسسها «**هولاكو**»[1] وأورثها أبناءه وأحفاده قد سقطت، وحلَّ بعد هذا السقوط فراغ سياسي وعسكري، وقيام عدد من الكيانات السياسية الصغيرة، المتنافسة. كما كان عليه الحال في بلاد ما وراء النهر. الأمر الذي جعلها سهلة الاقتناص، شديدة الاضطرابات والتقلبات.

وفي تلك الأثناء كانت تقوم العمليات الحربية التيمورية، على مساحات واسعة، ومناخات متعددة. وكان الخصوم هم الذين يُملون على السلطان تيمور تحركاته الحربية، فلا تكاد تنتهي حملة، حتى تبدأ حملة جديدة، يثيرها جيرانه، والمعتدي دائماً خاسر.

وقد استهدف السلطان تيمور من وراء عملياته الأولى، إقامة قاعدة قوية للمسلمين، بإحكام قبضته على بلاد ما وراء النهر.

وسعى إلى ذلك بالرفق قبل الشدة، وبالحسنى قبل السيف، إذ أصبح المسلمون وأعراضهم غنائم دسمة للأعداء الشماليين.

بعد أن اطمأن السلطان تيمور إلى الأوضاع في خوارزم، جاءته أخبار تفيد أن الشاه «**مالك هرات**» قد توفي.

وأدرك السلطان تيمور أن وراء ذلك انقسام الأمراء واقتتالهم للتنافس على الصولجان، وما لبث أن جرى ما كان يتوقعه، ورجا أن يقوم العلماء ورؤوس القوم بفضِّ النزاعات وتداركها، وقد قام بجولة إلى خراسان، وسمع أن في مدينة (**خواف**)[2] وكما يقول «**ابن عربشاه**»:

(رجلاً قد منحه تعالى الألطاف، عالماً عاملاً، كبيراً فاضلاً، ذا كرامات ظاهرة، وولايات باهرة، وكلمات زاهرة، ومقامات طاهرة، ومكاشفات صادقة، ومعاملات مع الله تعالى بالصدق ناطقة، يدعى الشيخ «زين الدين أبو بكر» الطائر اجتهاده في حظيرة القدس أعلى وَكْر، فقدم السلطان تيمور لرؤيته وتوجه مع جماعته إليه.

[1] هو (**هولاكو**) بن (**تولي**) بن (**جنكيز خان**). توفي عام / ٦٦٤هـ/ في مدينة (مراغة) بأذربيجان، عاصمة دولة المغول (الإليخانية).
[2] **خواف**: من أعمال نيسابور بخراسان، يتصل أحد جانبيها ببوشنج من أعمال هرات.

فقالوا للشيخ:

إن السلطان تيمور قادم عليك، وواصل إليك يقصد رؤيتك ويرجو بركتك...

فلما انتهى إليه السلطان تيمور، قام الشيخ فاحدودب السلطان تيمور منكباً على رجليه، فوضع الشيخ على ظهره يديه...، ثم جلس السلطان تيمور على ركبتي الأدب، وقال للشيخ بالملاطفة في المحاورة على سبيل الاستفهام لا المناظرة:

يا سيدي الشيخ لم لا تأمرون ملوككم بالعدل والإنصاف، وأن لا يميلوا إلى الجور والاعتساف؟.

فقال الشيخ : أمرناهم وتقدَّمنا بذلك إليهم فلم يأتمروا، فسلطانك عليهم).

وتذكر المذكَّرات إشارة لنصيحة «**زين الدين أبي بكر تيابادي**» التي بذلها للسلطان تيمور وفيها قوله:

(أن الملائكة قد وضعت مفتاح خراسان في يد السلطان تيمور، وأنه سوف يخلص هذه الإمارة من طغيان غياث الدين)[1].

وبناء على طلب زين الدين أبي بكر ورجال الدين في المنطقة، قرر السلطان تيمور أن يقيم العدل في تلك الربوع، ويعيد الحق إلى نصابه.

وكونه صهراً للشاه، فقد أرسل فريقاً من الرسل إلى هرات، كي ينقلوا منه التعازي بوفاة عمّه الشاه «**مالك هرات**»، ويدعو «**غياث الدين**» شقيق زوجته «**البيجوم**» للإتيان إلى بلاطه والجلوس بين الأمراء والقادة.

وعاد رسل السلطان تيمور من هرات في وقت قصير للغاية، وقد جلبوا معهم هدايا أكثر قيمة من الهدايا التي أرسلها، وجلبوا معهم رسالة من الحاكم الجديد يقول فيها:

(إنه تشرف وسُر بدعوته، وإنه يرجو أن يرسل السلطان تيمور إليه سيف الدين وبعض الأمراء الآخرين المسنين من ذوي الجاه لكي يرافقوه إلى سمرقند).

---

[1] وجاء في شرفنامه: سنة ٧٨٢هـ/١٣٨٠م: قام الأمير تيمور بيك بالزحف على خراسان، فوصل في غرة ذي الحجة من هذه السنة قصبة كوسوبلا، فقابله حاكمها مهدي بالتجلة والإكرام فشمله الأمير بالعطف. ثم واصل سيره إلى قرية تايباد، التي هي مسكن مولانا الأعظم زين الدين أبي بكر فتشرف بصحبة مولانا واستمد من فيضه المبارك، وعطف عنان عزيمته بعد ذلك إلى جهة قصبة قوشنج، الواقعة على مسافة ستة فراسخ غربي هرات، فاستولى على قلعتها ليلة الجمعة منتصف الشهر المذكور، ثم توجه نحو بلدة هرى.

لم يثق السلطان تيمور بحفاوة غياث الدين حاكم هرات وفي ترحيبه، إلاّ أنه عمل وفاقاً للمصلحة العامة، وأرسل سيف الدين بناءً على طلب حاكم هرات الجديد.

ولما عاد سيف الدين رجع بعد مدة يقول:

(**إن غياث الدين لا يفكِّر بالقدوم، وأنه يعمل على إقامة جدار قوي حول عاصمته. وذلك يعني أنه يستعد للحرب**).

فأرسل إليه السلطان تيمور رسولاً آخر فــتأخر غياث الدين في إرجاعه، وأخذ يضايقه وما ذلك إلاَّ من ركاكة رأيه أولاً وآخراً، وجمود قريحته، وقلَّة عقله، فهل الرسل تُقتل أو تعتقل؟!.

زحف السلطان تيمور بنفسه فعبر (**أموداريا**) وتوجه إلى (**سرخص**)[1]، فسارع حاكمها «**الملك محمد**» إلى تقديم خضوعه، ومن ثم غزا هرات العاصمة، وضرب حولها حصاراً دون قتال. وأحاطت عساكره بالقلعة، ومكثت في الأمن والدعة، بينما المحاصَرين يزدادون ضيقاً لنفاد المؤن، فاضطربت الأمراء والأتباع، والخواص والعوام، بعد أن أضناهم الجوع.

والسلطان تيمور لا يحرك ساكناً، فانهارت قوى «**غياث الدين**» ومعنوياته، فطلب الصلح، وأجابه السلطان تيمور إلى طلبه، وأرسله مكرَّماً إلى سمرقند، وعفا عن السكان لوقوفهم على الحياد.

وهدم الجدار الذي كان يحاول غياث الدين إقامته، وأمر بأن تحمل أحجاره والبوابات الضخمة إلى سمرقند.

ومن ثم أبقى غياث الدين حاكماً على هرات.

وقام السلطان تيمور بتحرك تجاه خراسان الغربية، حيث استسلم «**علي بيك**» حاكم (**كيلات**)، وكذلك حاكم (**طوس**)[2] «**علي المؤيد السربداري**» بادر بالخضوع والاستسلام، ودخل في طاعة السلطان تيمور.

---

[1] **سرخص**: مدينة قديمة من نواحي خراسان كبيرة واسعة بين نيسابور ومَرُو.
[2] **طوس**: مدينة من مدن إقليم خراسان الواقع في شرق إيران.

وتابع السلطان تيمور زحفه متوغلاً في (**خراسان الغربية**)[1]، بعد وصول أنباء تفيد أن الشاه ولي، حاكم مقاطعة (**مازندران**)، جنوب شرق قزوين وعاصمته (**استراباذ**)[2] طلب المعونة من الجلايريين حكام (**أذربيجان**)[3] والعراق، ومن المظَفَّريين حكام فارس، ضدَّه.

وبما أن «**شاه ولي**» لم يتلقَّ جواباً منهم لمساعدته ضدّ التيموريين على طلب المساعدة منهم، احتفى برسول السلطان تيمور وأعلن الطاعة والانقياد.

وعاد السلطان تيمور إلى سمرقند، مكتفياً بما حقَّقه من إقرار أمراء خراسان وولائهم له، وخضوعهم بعد استسلامهم.

وترك ابنه ميران شاه في خراسان، لمراقبة الوضع عن كثب.

* * *

[1] **خراسان**: إقليم من أكبر الأقاليم الفارسية في إيران.
[2] **استراباذ**: مدينة بإقليم جرجان وهي شمال شرق إيران.
[3] **أذربيجان**: فتحت أيام الخليفة عمر بن الخطاب.

جوهرة الشرق

نمت عاصمة السلطان تيمور، وأصبحت مدينة تطفح بالأسواق والخانات التي تعج بالحركة والنشاط، وصار الناس في كل مكان في بحبوحة من العيش والأمان، حتى أن الجيران الحسودين أخذوا يتهيؤون للإغارة على حدود بلاد السلطان تيمور، إذ كان دأبه من كل هذه المعارك الصغيرة الداخلية، توطيد مُلْك المسلمين ولَمِّ شعثهم وإقالة عثارهم، بضم البلاد التترية بعضها إلى بعض، وتأليف وحدة سياسية بينها.

«**بلغ السلطان تيمور الثالثة والثلاثين لما جلس على العرش**» سنة (١٣٦٩م)، وكانت هذه الفتوحات التي تمكن منها في مدة قصيرة من الزمن، أول فتوحاته العظيمة التي امتدت لتشمل بعد ذلك أطراف المعمورة.

وكان من حسن سياسته أن انتقل بعاصمة ملكه إلى سمرقند التي كانت مستبحرة العمران، الواسعة، بحيث يُظهر فيها روعة المملكة، وجلال الإمبراطورية الجديدة، التي أصبحت لا تقل مساحتها عن خمسمائة ميل.

يحدثنا الرحالة العربي المشهور (**ابن بطوطة**) عنها، وكان قد زارها في تلك الأثناء فيقول:

(هي من أكبر المدن وأحسنها وأتمها جمالاً، مبنية على شاطئ واد يُعرف بوادي القصارين، عليه النواعير تسقي البساتين، وعنده يجتمع أهل البلاد بعد صلاة العصر للنزهة والتفرج، ولهم عليه مساطب ومجالس يقعدون عليها، ودكاكين تباع بها الفاكهة وسائر المأكولات. وأهل سمرقند لهم مكارم أخلاق ومحبة للغريب، وهم خيرٌ من أهل بخارى. وبخارج سمرقند قبر «قثم بن العباس بن عبد المطلب»، وهو الذي استشهد حين فتحها. ويخرج أهل سمرقند كل ليلة إثنين وجمعة إلى زيارته.

والتتر يأتون إلى زيارته وينذرون النذور العظيمة، ويأتون إليه بالبقر والغنم والدراهم والدنانير، فيصرف ذلك في النفقة على الوارد والصادر، ولخدام الزاوية والقبر المبارك، الذي كانوا يتبركون به ويحترمونه ويجلونه).

وكانت أرض سمرقند غنية، تجود بأربع محاصيل في العام، وتجارتها الوثيقة الاتصال بالقوافل المارة بها، حاملة صادرات الشرق وصناعاتهم إلى الغرب.

وتزوج السلطان تيمور زوجة الأمير حسين حفيد كورغان «**سارة خانم**»، لأن هذا كان من السنن المتَّبعة للإسلام، حيث أن الإسلام يعزُّ ولا يذل.

فزوجة الملك المتوفى، لا يتزوجها إلاَّ من يضاهيه بالمقام.

واستطار شأن السلطان تيمور بغلبته على أعدائه وخصومه، إذ وصل في هذه المرة بفتوحاته إلى حدود المغول، وأخذ يطارد أمراءهم وقادهم، وهو أول حادث من نوعه.

فإن أحداً من التتر قبل هذا العهد لم يكن يجرؤ على اقتحام هذه الأماكن.

ومن غريب أمره، أنه زهد في ألقاب الشرف، فلم ينادِ بنفسه ملكاً أو خاناً، وكان من السهل عليه واليسير، وظل قانعاً بلقب الأمير طول حياته، ويبتدئ رسائله بـــ:

(مـــن عـــبد الله تيـــمـــور).

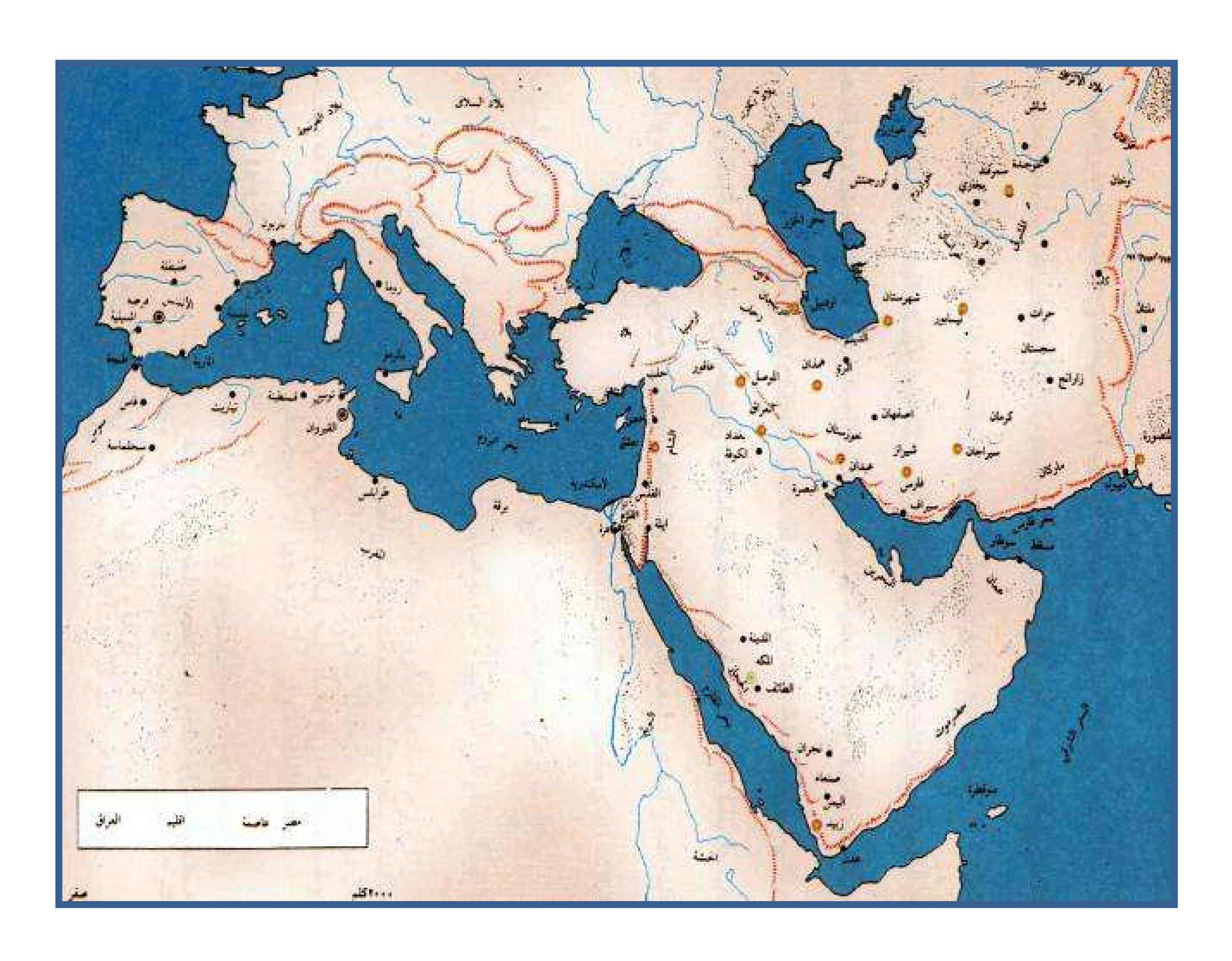
حتى بعد أن أصبح أكثر من ثلثي العالم في قبضته، ولكنه حرص على أن يكون حاكماً بأمر الله، قوي الإرادة، صلب المراس، مما جعل الأمن والاطمئنان في تلك الربوع سائداً.

وكان على السلطان تيمور بعد ذلك، أن يطلق بصره إلى ما وراء حدوده، فإذا به يجد الحرب تشتعل في كل مكان، وإذا بالنار تلتهم الأخضر واليابس. فكان السلطان تيمور مجبراً على المداخلة في شؤون هذه البلاد القريبة من بلاده، محافظة عليها وعلى مُلكه، وقطعاً لدابر الفساد والفوضى في البلاد الواقعة على مقربة منه، وإلا فإن الفساد سيعمّ ويشمل بلاده، والوقاية خير من العلاج.

* * *

توالت انتصارات السلطان تيمور واستطار شأنه وعظمته، بغلبته على أعدائه وخصومه، وكان جَمَّ النشاط، دائم الحركة، يتنقل من بلدة إلى أخرى، ليدير شؤونها، ويقوي وسائل الدفاع عنها.

وفي البدء توجه نحو الشرق، وعَبَر (باداكشان وكوندوز وكابول)، ليُخضع بعض القبائل ويخرجها من المناطق التي أحدثت فيها فتناً وقلاقل.



المراكز الأرضية الكبرى للعالم الإسلامي في عهد العباسيين

(وفقاً للجغرافي المقدسي – القرن العاشر)

خراسان أيضاً

رأينا أن «**شاه ولي**» طلب النجدة من الجلايريين حكام أذربيجان والعراق، ومن المظفَّريين حكَّام فارس، ضدَّ السلطان تيمور.

ولكنهم لم يرسلوا أية مساعدة له، ويذكر ابن عربشاه سبب ذلك:

أن الخواجة «**علي بن المؤيد الطوسي**» قُطب فلكِ الممالك في (**خراسان**)[1] أقبل على السلطان تيمور بظاهره وكان معه باطناً، وخطب باسم السلطان تيمور في جوامع الأمصار، وقعد لأمره منجزاً، وأقام للطلب مستوفزاً، فلم يبقَ في خراسان أمير مدينة ولا نائب قلعة مكينة، ولا من يُشار إليه، إلا وقصد السلطان تيمور وأقبل عليه، فمن أكابرهم الأمير «**محمد**» حاكم (**باوَرْد**)[2] وأمير «**عبد الله**» حاكم (**سرخس**).

وانتشرت هيبة السلطان تيمور في الآفاق، وبلغت (**مازندران وكيلان**)[3] (**وبلاد الريّْ**)[4] (**والعراق**)، وامتلأت منه القلوب والأسماع، وخافه القريب والبعيد، وعلى الخصوص «**شاه شجاع**» (الذي وصَّى السلطان تيمور ببنيه من بعده)، وكل هذا في مدة قصيرة، وأيام قلائل يسيرة.

ولما لم يتلقَّ «**شاه ولي**» جواباً من الجلايريين والمظفريين بالمعونة ضد السلطان تيمور بيك، أعلن الطاعة والانقياد على مضض، رغم أن السلطان تيمور أبقاه حاكماً على مقاطعة (**مازندران**) وعاصمته (استراباذ)، ثمَّ راح يتَّفق مع «**علي بيك**» حاكم (**كيلات**) للإغارة على (**سيزدار**).

فتوجَّه السلطان تيمور بقواته إلى (**كيلات**) وحاصرها، وبعد بضعة أيام طلب علي بيك العفو واستسلم مع مدينته، ومن ثم توجّه إلى قلعة (**ترشيز**) ذات الموقع الحصين وافتتحها، واتَّجه بعد ذلك إلى الشمال حيث أملاك «**شاه ولي**»، وببعض المناورات والخطط أسرع هذا بإرسال الهدايا والأموال،

[1] **خراسان**: اليوم في شمال شرق إيران وجنوب روسية وغرب أفغانستان.
[2] **باورد**: هي ابيورد في خراسان.
[3] **كيلان**: تسمى أيضاً الجيل وجيلان وكيلان: تقع على بحر قزوين جنوب أردبيل.
[4] **بلاد الري**: كانت مدينة عظيمة ببلاد الجبال إسمها القديم راغة، وهي حالياً أطلال على مسافة خمسة كيلو مترات من طهران، تعرف باسم مشهد عبد العظيم.

وبالإعلان عن بقائه مخلصاً مطيعاً، فأبقاه على ملكه، وكذلك أبقى «**علي المؤيد السربداري**» حاكماً على (**طوس وسيزدار**).

وفي طريق عودته إلى بلاد ما وراء النهر، أمر بأخذ بعض العشائر التي أحدثت فتناً وقلاقل وحلَّها، فما قام لها بعد ذلك بالشرِّ قائمة.

ولم تمض السنة حتى خلع (**السربداريون**) في (**سيزدار**) الطاعة، وللحال توجَّه السلطان تيمور وأخضعهم، ومن ثمَّ اصطدم بالقوات (**السجستانية**)، حيث ألجأها إلى العاصمة (**زارنج**)، ومن ثمَّ سيطر عليها، وتجول في ربوع تلك المنطقة ليحقِّق سيطرة كاملة على منطقة (**سجستان**)[1] بكاملها.

ولم يكن السلطان تيمور ليطمئن لإخلاص شاه ولي، الذي لم يكن بقي من حكام خراسان القدامى سواه.

وبالفعل، فقد اتخذ هذا مقراً من حصن (**دورون**) شرق خراسان، وحشد قواته فيها.

اصطدم مع السلطان تيمور بمعركتين مُني بهما بهزائم مذهلة، ووقع الكثير من جنده بهما في الأسر، وقد نهى السلطان تيمور جنده عن اللحاق بقوات شاه ولي أثناء الهزائم، رحمةً منه وعطفاً. ورغم انتصاره، عسكر بقواته واحتاط، فحفر خنادق وأقام أسواراً خشبية حول معسكره.

ولما عاد شاه ولي أدراجه ليلاً ليغير في ستار الظلام على معسكر السلطان تيمور، اضطر إلى الانسحاب من جديد متراجعاً إلى (**دمغان**) دون نجاح من وراء ذلك، ومن ثمَّ تابع تقهقره نحو الغرب.

فتحت عاصمة المنطقة (**استراباذ**) أبوابها للسلطان تيمور، ومن ثم تبعتها (**الري والسلطانية**)، وعاد السلطان تيمور أدراجه من السلطانية لوصوله نبأ وفاة «**شاه شجاع**» المظفَّري حاكم (**شيراز**)[2]، وحلول ابنه «**زين العابدين**» مكانه، بعد أن جعل «**أحمد الجلاير**» يضطر للهروب إلى (**تبريز**)[3]، مع حليفه شاه ولي.

---

(1) **سجستان**: هو إقليم مقسّم حالياً بين إيران وأفغانستان.
(2) **شيراز**: مدينة في بلاد فارس جنوباً، وكانت قاعدة عماد الدولة بن بويه، وفيها قبر سيبويه.
(3) **تبريز**: أشهر بلدة في أذربيجان، وهي أم المدن الإيرانية في القرن التاسع هجري، وكرسي الملك ومحط الأمراء والتجار.

وفي أوائل /١٣٨٧م/ سار السلطان تيمور على طريق شمال خراسان، حيث استقبله حكام تلك الربوع بالخضوع والولاء، وفي تلك الحملة عمد إلى فصل الجلايريين حكام شمال الغرب الإيراني عن المظفَّريين حكام جنوب هذا الغرب.

وقد نجح بالسيطرة على (**لوريستان**) التي تؤدي إلى الغرض المطلوب من ذلك الفصل.

ومن ثم تحرك شمالاً إلى أذربيجان، حيث فشل «**أحمد جلايري**» في الدفاع عن تبريز، وغادرها هارباً إلى بغداد، رغم سقوط تلك المدينة بحصار اقتصادي سلمي للغاية، وفَّر فيه السلطان تيمور سفك الدماء.

ومن بغداد جهز «**أحمد جلاير بن أويس**»، إلى صاحب مصر السلطان «**برقوق**»، امرأة تخبره بأمر السلطان تيمور بيك وتحذره منه، وتُخبره بأنه توجه إلى (**قراباغ**) ليشتي بها، ثم يعود في الصيف إلى بغداد، فوصلت المرأة إلى دمشق، حيث جهزها «**بيدمر**» بصحبة قريبه «**جبرئيل**» لمتابعة المهمّة بإيصال الرسالة.

ضرب السلطان تيمور حصاره حول تبريز طيلة فصل الشتاء، وانضم إليه أثناء تلك الفتوحات كثير من الجند، ولم يكن لديه أي شك أن الحصار لن يعطي نتائج مرضية، لتعالي أهل المدينة على الصحراويين، أما أحمد جلاير، فقد طلب العون من سلطان المماليك في القاهرة، ومن سلطان بغداد اللذيْنِ لم يستجيبا له، حيث كانا لا يعتبران السلطان تيمور سوى مغيرٍ وغازٍ صحراويٍ بعيدٍ لا يهددهما بأي خطر، لذا لم يحركوا ساكناً للمساعدة.

ولما كانت جميع القوافل القادمة إلى المدينة يحولها السلطان تيمور إلى جنده، كما أن عدداً كبيراً من التجار في داخل المدينة يعملون باستمرار على تهريب كميات كبيرة من المؤن إليه، لذا أخذت المدينة تضعف شيئاً فشيئاً، وتقلُّ الأطعمة فيها، كما كانت عيون السلطان تيمور داخل الأسوار، تعمل على تخريب الجهاز الحربي الدفاعي بتخفيض المعنويات القتالية.

و لم يأت الربيع حتى انتصر السلطان تيمور بخططه السلمية الاقتصادية، فأقام حكومة في المدينة، وتحرك شمالاً على طول شاطئ بحر قزوين، ليخضع (**جورجيا**) ومن ثم (**تفليس**)[1] و(**استراخان**)[2]، وغادر بلاد الكرج عائداً إلى أذربيجان ومعه «**بقراط**» ملك البلاد، بعد أن قام بإصلاحات داخلية.

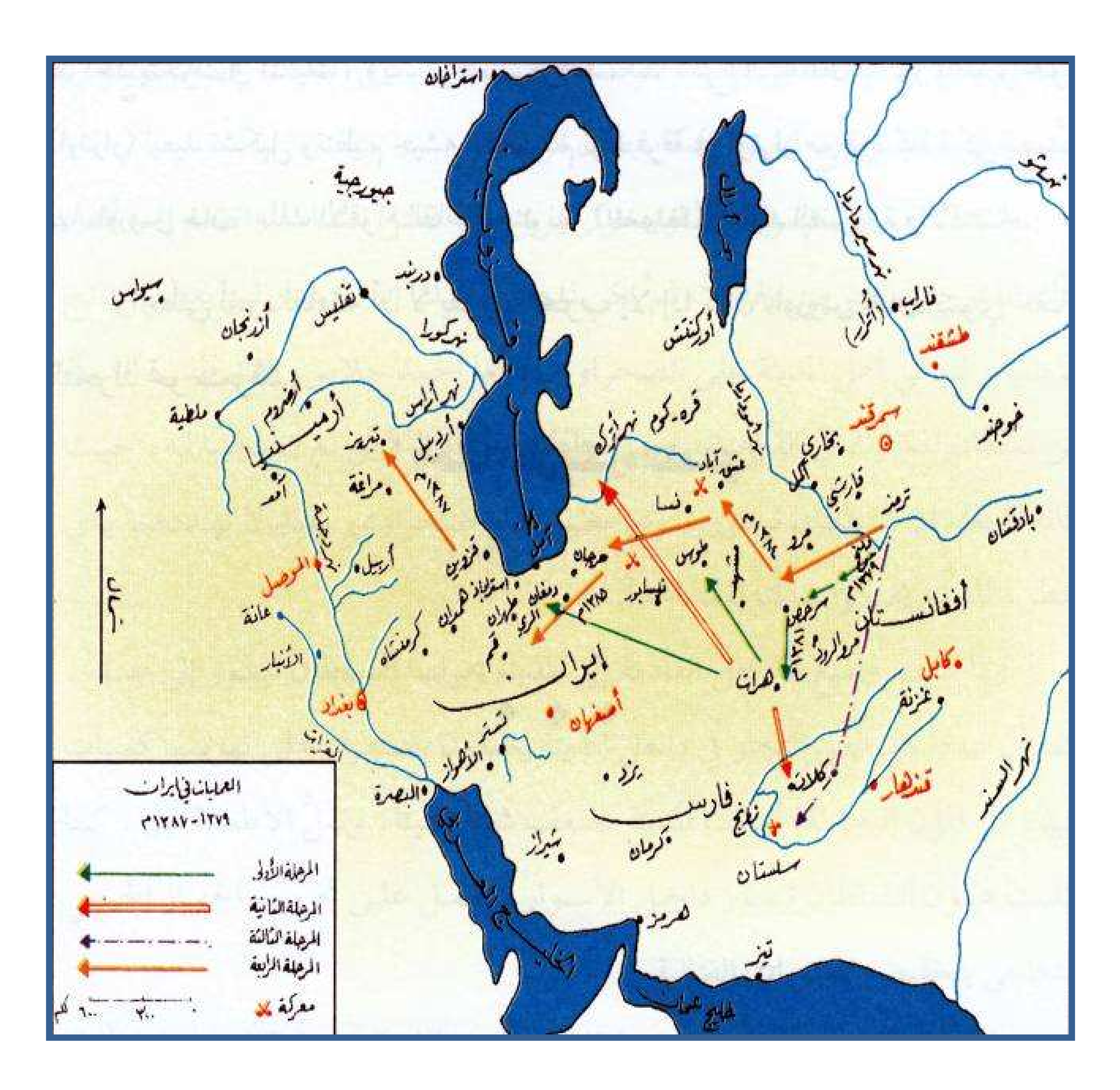
وفي (**شروان**)[3] تقبَّلَ خضوعَ حاكم المنطقة «**الشيخ إبراهيم**»، وقبل أن يصل إلى (**سراي**) جاءته أنباء تفيد أن «**قمر الدين**» قائد المغول بعد «**إلياس خواجه بن طوغلوك**» قد أخذ يتحرك في المماليك، ويسير نحو سمرقند، لذا شرع السلطان تيمور بالسير نحو (**أوترار**) ليعيد تشكيل وتنظيم جيشه، ومن ثم ترك فرقة في أوترار مع قوة كافية كي يصدَّ بها «**أوروس خان**» ملك الأقوام القاطنة عند نهر (**الفولغا**)[4] عند الضرورة والاقتضاء.

وأعطى أمره لقادته أن لا يقوموا بحرب إلاَّ إذا كان «**أوروس خان**» ينوي حقاً التحرك نحو سمرقند.

((حـــقّـــاً، كان يـــكـــره التعـــدي)).

* * *

[1] **تفليس**: عاصمة جورجيا، وهي أكبر مدن الكرج.
[2] **استراخان**: تقع على مصب نهر الفولغا في بحر قزوين.
[3] **شروان**: بلدة من نواحي أرمينية..
[4] **نهر الفولغا**: أطول أنهر أوروبا وأغزرها. يقع في الجزء الغربي الأوروبي من روسيا بطول يقدر بثلاثة آلاف وست مئة وتسعين كيلومتراً. يختلف اسم الفولغا حسب المنطقة التي يمر فيها. يعد ممراً مائياً هاماً للنقل البحري داخل روسيا. يصب النهر في بحر قزوين.



العمليات في إيران /١٣٧٩ - ١٣٨٧م/

معركة لم يسبق لمسلم تتري القيام بها

كانت الدولة القوية الناشئة التي أقامها السلطان تيمور، قد بلغت حدود الدولة الغاربة التي خلَّفها جنكيز خان، و لم تعد بينهما سوى حدود وهمية لا تدفع إغارة ولا تمنع تحرشاً واشتباكاً، ولهذا لم تكن ثمَّة مندوحة عن الحرب، و لم يكن الاعتداء من شيَم المسلمين الصادقين، حيث كانت الأوضاع في خانية جغتاي الشرقية قد تبدلت خلال المرحلة التي كانت الأحداث في ماوراء النهر تنجلي عن استقرار السلطان تيمور بيك في منصب السلطة العليا، وقد استطاع أحد أفراد قبيلة (**دوغلات**) ويدعى «**قمر الدين**» أن يستأثر بالحكم لنفسه، وأن يحمل لقب الخان، بعد أن قتل الخان الشرعي «**إلياس خواجه**» بن طوغلوك خان. وكان لقبيلة دوغلات المغولية المتتركة دور كبير في تسيير الأمور في (**خانية جغتاي**) الشرقية.

ولما تحرَّك قائد مغول الشمال «**قمر الدين**»، إلى سمرقند عاصمة دولة السلطان تيمور، كان لزاماً تأديبه ودحره، وهذا الهجوم الدفاعي هو أول حادث من نوعه.

فإن أحداً من التتار قبل السلطان تيمور لم يكن يجرؤ على اقتحام هذه الأماكن التالي ذكرها.

جهَّز السلطان تيمور جيشه بقافلة مؤن مجهزة بعربات ضخمة، وعبر به (**نهر سيرداريا**)، وسار في أرض (**كيرغيزية**) القاحلة، وظل يسير نحو أسبوع كامل، دون أن يلاقي أية مقاومة.

ولما وصل بحيرة (**بلكاش**)، تبين له أن قمر الدين قد شرع يتراجع أمامه، وذلك إمَّا لكي يتحصَّن في (**ألماليك**)، وإما لاستدراج السلطان تيمور إلى صحراء (**غوبي**) والتريث والمناورة، حتى يحلَّ فصل الشتاء ويتساقط الثلج.

ولما كان السلطان تيمور يدرك ذلك الخطر الذي قد يحيق به فيما لو استدرجه قمر الدين إلى الصحراء، لذا تابع زحفه إلى ألماليك، ولما وجد أن الحامية التي تدافع عن المدينة قليلة العدد فإنه ترك فوجاً حولها كي يستولي عليها، وأسرع في مطاردة قمر الدين، وحثَّ السير حتى أطبق على قمر الدين وأجبره على التوقف، دون التوغُّل في الصحراء، وهزمه هزيمة منكَرةً تامَّة. وبذلك أصبحت حدوده

الشمالية في مأمن من الغزاة وعصابات السطو المسلَّح. و لم يسع قمر الدين بعدها إلا أن يضع الطاعة للسلطان تيمور بيك، ولتوطيد العلاقة الودّية، قام السلطان تيمور بيك بمصاهرتهم مما كسر حدة العداء بينهم، وصافاهم وهادنهم وهاداهم، وأمن من مكرهم وكيدهم.

إذ في استيلاء السلطان تيمور على الماليك والجبال المحيطة بها، لم يطرد مغول الشمال الجاتيَّة ويردُّهم على أعقابهم إلى موطنهم الصحراوي الأصلي فحسب، بل وضع نهاية لغزوات البدو القادمين من الشمال.

وفي غضون عقدٍ من الزمن، اختفت ثلاثة أرباع السلطة المغولية، وأغلقت الطرق العامة في وجه الغزاة والمغيرين ولصوص الصحارى، بذلك وضع السلطان تيمور نفسه على جانبي الطرق العمومية في آسيا.

(**ومن سيقترب من نار جهنم ليأخذ منها بصَّة**)!..

كان السلطان تيمور بيك حقّاً من أولئك الشجعان.

ضرب نطاقاً جديداً قوياً حول مملكته يقيها من المعتدين.

وأولى اهتمامه لتقوية وتوطيد الأمن في داخلها، وبعد ذلك كان زحفه إلى (**أرمينيا**) وتوغُّله في قسمها الشرقي، للقضاء على القبائل التركمانية الضاربة المعتدية. بسبب دأبهم على الاعتداء على قوافل الحجاج التي تعبر بلادهم، والتي سُمِّيت بدولة (**الغنمة السوداء**)، مع أنهم كانوا مسلمين إسماً. فاستولى على قلاع المنطقة، وفرَّ حاكم دولة الغنمة (**قرّه محمد تورمش**) في شعاب أحد الجبال محتمياً.

وصادر السلطان تيمور أموال مدينة (**مومش**) للقضاء على أعمال الشقاوة وقطع الطرقات التي كانت تمارسها هذه المدينة بالذات دون غيرها من المدن، وأخضع مقاطعة (**أذربيجان**) له.

* * *

زواج سياسي

كرَّس السلطان تيمور اهتماماته لتنظيم الشؤون الداخلية وإقامة كل ما يوطِّد الأمن، ويقيم قواعد العدالة في مملكته.

وأخذ يمضي الساعات في الاستماع إلى الفلاسفة والمؤرخين والعلماء، للاطِّلاع على خبراتهم وآرائهم، مع أن رأيه أوسع وأكمل. ولكن ليشاورهم في الأمر كما قال تعالى:

﴿ . . وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ . . ﴾[1].

وأرسل دعوات إلى عدد آخر من الحكماء وخاصة إلى الصين، وطلب إليهم أن يأتوا إلى سمرقند، ولكي يفهم عادات الصين وطرقها، تذرَّع حجة بناء قلعة وقرية وفقاً للأساليب الصينية. إذ كان بالواقع ينوي دراسة الأساليب العسكرية الصينية حيث كان يرسم الخطط ويُعدُّ التدبيرات السرية، كي يغزو الصين ويحرِّرها من المغول الكفرة، ويستعيد تلك البلاد التي كان يحكمها سابقاً أقرباء له عملوا في خدمة (**جنكيز خان**) و (**قبلايْ خان**).

ولولا الجبهات القتالية التي تشكلت و تحالفت ضده في الحدود الغربية والجنوبية والشمالية لسار إليها وحرَّرها من عبَّاد الوثن.

وقد كانت أسرة «**مينغ**» التي جاءت إلى الحكم تسعى إلى إعادة بسط نفوذ الصين على المناطق الموجودة خارج الجدار (سور الصين).

واشتهرت بعدائها للأجانب وللنشاط "الكنَسي التبشيري" بصورة اتِّحادٍ جماعي نحو هدف مشترك من القبائل الصينية، ورأى السلطان تيمور أن هذه السياسة ستؤدي إلى الاصطدام معه بشكل مباشر بأوقات حرجة، لاسيَّما أنَّ الجبهات القتالية تحيط به من كافة الجهات.

[1] سورة آل عمران: الآية (١٥٩).

وبالرغم من أنه لم تكن للسلطان تيمور بيك علاقات مع البلاد التي تقع فيما وراء السور العظيم، فإن الإمبراطور قد تقبَّل بسرور فائق الهدايا التي أرسلها السلطان تيمور من قبل، وعامله بالمثل، وأرسل هدايا نفيسة وقيِّمة مع سفرائه الذين جاؤوا إلى سمرقند.

ولما رأى السلطان تيمور تلك القابلية للمهادنة، أرسل مبعوثاً مع سفراء الإمبراطور وحمَّله رسالة تتضمن:

(إنني أرحب بأن يقدم الإمبراطور لي إحدى بناته كي أتزوجها).

وخوَّل المبعوث كامل الصلاحيات للامتثال بالقبول للعروض التي يرتأيها الإمبراطور.

وافق الإمبراطور بطيب خاطر على تلبية طلب السلطان تيمور.

حيث أبدى مبعوث السلطان تيمور مهارة في فن الدبلوماسية، ونجح في تحقيق كل نقطة حولها مهمته، وذلك ما فُهم وأُدرك من قراءة رسالة الإمبراطور حيث قال:

(أيها الأمير الجليل، يا سيد البلاد التترية وسيد الدنيا، من حدود بلاد المغول وحتى مغرب الشمس، إنني أنا إمبراطور المغول، أقدم إليك ابنتي كي تكون عروساً لك، وإنني إذ أفعل هذا إنما أهبك فخر المغول، لأن ابنتي الصغيرة هي حقاً ابنة السماء، وعذراء القمر، وبالرغم أن اسمها هو الأميرة «شولبان ملك»، فإننا ندعوها «الأميرة المباركة»، ونعبدها كما نعبد أجدادنا الراحلين. أيها الأمير العظيم، أرجو أن تعتبر ابنتي منذ الآن زوجة لك، وتدعوها أميرتك ما دامت قد تزوجتك بوعد مقدَّس.

بيد أنني أتوسل إليك أن تتركها عندي لمدة خمس أو ست سنوات، فهي الآن في العاشرة من عمرها، وإنني أتوسل إليك أنا الرجل العجوز أن تترك كنزي الثمين "أي الأميرة" في كنفي حتى تكبر وتستطيع أن تصبح زوجة لك، ويختلط دمنا الإمبراطوري بدمك العظيم.

أيها الأمير المبجَّل، نرجو أن تقبل التماسنا وتدعها في كنفنا وتحت رعاية مؤدبيها وأساتذتها، حتى نستطيع أن نرسلها إليك امرأة ناضجة، وحائزة على الأخلاق الطيبة، والفضائل الحميدة التي تتحلى

بها مليكاتنا، وإن وعدك السخي بأنك ستبني لهذه الأميرة «بل الجوهرة» الصغيرة، قصراً ملكياً قد خفف من الحزن الذي استحوذ علينا لأننا سنرسلها إلى مكان بعيد عن وطنها.

وإننا نرسل إليك مع سفيرك الأمير النبيل ثلاثمائة رجل من أمهر وأشهر المهندسين والبنَّائين كي يضعوا تصاميم قصر الأميرة وقريتها، وإننا نعلم بواسطة سخاء هداياك الثمينة، أنك ستكون سخياً أيضاً في تأثيث قصر الأميرة زوجتك. ولا تخف الإسراف في تجهيز وتأثيث القصر، لأن الأميرة الصغيرة تستحق في الواقع أجمل ما في الأرض وما في السماء).

كما أنه أرفق الرسالة بشكره السلطان تيمور على الهدايا التي أرسلها إليه، وقائمة بأسماء الهدايا التي أرسلها هو بالمقابل إلى السلطان تيمور، كما ضمَّن الرسالة أيضاً تحيات خاصة إلى كل فرد من أفراد أسرة السلطان تيمور الملكية.

وقد نقل بعض العيون الموثوق بهم أن إمبراطور المغول عندما استمع إلى أمرائه وهم يقصون عليه أبهة قصر السلطان تيمور وعظمته، وفخامة استقباله المنقطع النظير لهم، وعندما رأى الهدايا القيمة الكثيرة التي أرسلها إليه السلطان تيمور، لم يتمالك إلاَّ أن يهز رأسه ويقول:

(**حقاً إن السلطان تيمور رجلٌ لا يقهر**).

وبهذا الزواج السياسي، استطاع السلطان تيمور أن يظفر بحليف قوي، قريبٍ من سور الصين العظيم.

وبذلك أمِن الجانب الشرقي لمملكته. ومما جعل العلاقات الاقتصادية والدينية تزداد تماسكاً وانتشاراً. وهذا ما جعل المغول يعتنقون الإسلام بعدها.

وجاء في (**عجائب المقدور**):

(وتوجه إلى سمرقند بعد (**أصبهان**)[1] ولما وصلها أرسل حفيده «**محمد سلطان بن جهانكير**» مع الأمير «**سيف الدين**» إلى أقصى مملكته وهو وراء (**سيحون**) شرقاً، وهو نحو مسيرة شهر عن ممالك ما وراء النهر، فنظروا في أمورها، وبنوا جملة من القلاع، وأقصاها بلد يسمى (**أشباره**)، فبنوا فيه حصناً، وخطب من بنات ملوكهم الملكة الكبرى، والملكة الصغرى، فأجابه الملك إلى ما طلب، وارتجت منه

---

[1] **أصبهان أو أصفهان**: مدينة إيرانية، بين طهران و شيراز، في الجنوب الشرقي من المقاطعة المركزية في وسط إيران تقريباً. ويمر بها نهر يدعى "زندروذ" ويسميه أهلها "نيل أصفهان" وعليه مجموعة من الجسور التاريخية الجميلة.وكلمة أصفهان أو أصبهان فيها وجوه ومعان لعل أقربها "المعسكر" ويبدو أنها كانت مركزاً لتجمع الجند والفرسان فحملت هذا الاسم.

أقاليم المغول والخطا، وكان السفير في ذلك «**الله داد**» أخو الأمير «**سيف الدين**». كما ورد في كتاب "**أعيان الشيعة**").

مغول الهوردة الذهبية

بفضل تدبيرات السلطان تيمور وسياسته الحكيمة، اختفت ثلاثة أرباع سلطة المغول، وأغلقت الطرق العامة في وجه الغزاة والمغيرين ولصوص الصحاري، غير أن الربع الأشد خطراً، بقي سالماً وفي كامل قوته، يقوم في الشمال والغرب من بلاد السلطان تيمور.

وكان يدعى ‹**الهوردة الذهبية**› التي كانت في أوج سلطانها، إذ الحياة في السهوب المفتوحة بلا منافس، والغارات الرابحة مستمرة.

وقد حفظت هذه القبائل البدوية في صحة جيدة وعدوانية فاعلة، إذ كانوا يتطوفون عبر الأراضي الثلجية كمدن تتحرك على شكل عربات تجرها ثيران، عليها خيم تقبع فيها النساء والأطفال، وإلى جانبهم المحاربون على خيولهم...

العائلات الحاكمة فقط كانت مغولية، وكان الباقي من ذرية ذلك الشمال كله، الذي يسمَّى بأرض الظلام (**كيبتشاق، كانكالي، قازاق قيرغيز، مورد فاس، بلغار ألانس**) وكان بينهم غجريون وجنويون، وقليل من الأرمن، وكثير من الروس، وكانوا بشكل عام أنانيين نفعيين، عصبيي المزاج...



نموذج من البيوت القابلة للنقل لدى المغول

كانوا يحكمون (**روسيا**) من بعيد، من مدينتهم (**ساري**) على نهر (**الفولغا**)، ومن (**استراخان**)، وعلى هذا كان أمراء روسيا يدفعون الأتاوة لهم.

وكانت طريقتهم بالغزو، القتل والحرق والنهب لكل ما يحوز إعجابهم، وكان التوازن السياسي في أوربا بين أيديهم، و لم يكن قد مضى وقت طويل على قيامهم فجأة بالتوغل غزاةً في (**بولندا**).

ولما نشأت دولة السلطان تيمور، كانت هذه المملكة في فجر عظمتها، وكان رجالها أقوياء أشداء، تمرنوا على الغزو والحرب، وكانوا كثيراً ما يترلون على المدن القريبة منهم، يمعنون في سكانها سلباً ونهباً.

ولما بلغت الدولة الناشئة القوية، التي أقامها السلطان تيمور، حدود الدولة الغاربة التي خلَّفها جنكيز خان، و لم تعد بينهما سوى حدود وهمية، لا تدفع إغارة ولا تمنع التحرش والاشتباك، لذا لم تكن عن الحرب مندوحة. لاسيما وهما ذواتا سُلوكين وديانتين مختلفتين.

* * *



روسيا وأوربا الشرقية في ذلك العصر

«اتق شرَّ من أحسنت إليه»

توكتاميش

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ..﴾[1].

حدثت فتنة بين أمراء مغول الهوردة الذهبية، وقَتَلَ أميرٌ يسمذى «**توكتاميش**» ابنَ الخان، وفرَّ إلى سمرقند، طامعاً في حماية السلطان تيمور، تاركاً منطقة (**القرم**)، هارباً من أقاربه، العائلة المالكة الحاكمة في الهوردة الذهبية.

وجاء على أعقابه رئيس القبيلة سفيراً فوق العادة، إلى السلطان تيمور، من قبل (**أوروس خان**)، وفي سمرقند في حضرة السلطان تيمور قال هذا السفير:

يا تيمور، استمع لما يقول أوروس خان سيد الشرق والغرب، رئيس العشيرة الزرقاء والعشيرة البيضاء، وسيد خانات (**سيبيريا**)[2]، إنه يقول لك:

(**إن توكتاميش قد قتل ولدي، ووجد ملجأً عندك، ويتوجب عليك أن تسلمه إليَّ، وإلاَّ سأخوض الحرب ضدك**).

وكانت هذه أول مرة يواجه فيها السلطان تيمور بهذا الوصف، ولكنه ردَّ على الرسول قائلاً:

(**لقد لجأ إلي توكتاميش، ووضع نفسه تحت حمايتي وسأحميه، وسأبذل ما بوسعي لحمايته، عُدْ إلى الخان أوروس وأبلغه أنني قد سمعت قوله، وإنني مستعد للقائه**).

احتفى السلطان تيمور بتوكتاميش واعتبره كولده، وولاه على قلعتين استولى عليهما السلطان تيمور من أملاك الهوردة في حدوده الشمالية، ووضع تحت تصرفه ضباطاً ورجالاً لمساعدته، وأعطاه علاوة على ما تقدم ذهباً وأسلحة وأمتعة ومفروشات وأنعاماً وخيولاً وطبولاً وأعلاماً وخياماً.

---

[1] سورة التوبة: الآية (٦).

[2] **سيبيريا**: هي أكبر صحراء جليدية في العالم تقع شمال روسيا بمساحة تبلغ ١٢ مليوناً و٦٧٥ ألف كيلو متر مربع أي أنها أكبر من مساحة أوروبا كاملة... وتعتبر من أشد الأماكن برودة في أصقاع الأرض حيث تتساقط عليها الثلوج طوال العام.

بعد أن تجهز توكتاميش انطلق يتوغل غازياً في أراضي الهوردة، لكنه مُني بهزيمة تامة.

وعاد السلطان تيمور فجهَّزه مرة أخرى، ومرة أخرى هُزم توكتاميش ونجا بنفسه، وأقام مدة مختبئاً في الأدغال جريحاً، إلى أن عثر عليه ضابط من قبيلة (البرلاس) قبيلة السلطان تيمور، فاعتنى به وساعده على العودة إلى بلاط سمرقند.

* * *

حتى أجلسه على العرش

كان السلطان تيمور قبل التجاء توكتاميش يرى أن الحرب لا بدَّ واقعة يوماً بينه وبين الهوردة الذهبية في صراع، لاسيما في اختلاف الدينيْن في آسيا، ونتيجة لفتوحاته المتواصلة وانتصاراته الباهرة.

وكان لجوء أمير ملكي من نسل جنكيز خان إليه، ووقوفه إلى جانبه في هذا الصراع، بمثابة فرصة مناسبة على قدر عظيم من الأهمية لكسر حدة العداء بين بلاد ما وراء النهر وبلاد الهوردة الذهبية، وجعل العلاقات أكثر حبيَّة فيما بعد، ولما مات «**أوروس خان**» صار توكتاميش المطالب الرئيسي بعرش الهوردة الذهبية، وأيَّده السلطان تيمور حتى حقَّق أمنيته، وشدَّ أزره ببعض رجاله، حتى تمكن من الجلوس على العرش، وحكم المملكة التي كان طريداً منها، بدعم من قِبل نصف القبائل الشمالية، إذ أنه من أحفاد جنكيز خان، وأقرب الأمراء إلى العرش وأولاهم به.

وأخذ يتذوق طعم الانتصار، ومضى عبر السهوب كزوبعة إعصار أسود، متهوراً عنيفاً، فظهر أنه دموي عديم الشفقة، واستولى على مقرات وكنوز خليفة أوروس خان في (**ساري**) الحاضرة الملكية.

ومن ثم أحكم توكتاميش سيطرته على الأمراء الروس بالنار والدم، وفرض عليهم الأتاوات، وزحف خلال دخان القرى المنهوبة المحترقة باتجاه (موسكو) ليحاصرها، ومن ثم لينهبها، ودانت له تلك البلاد.

وجاءه أولاد أمراء الروس كرهائن، وجاء وجهاء (**جنوة**[1]، **والبندقية**[2]) سائلين أن يُمنحوا امتيازات تجارية.

* * *

---

[1] **جنوة**: هي مدينة عظيمة وبلاد كثيرة وهي غربي القسطنطينية على بحر الروم.
[2] **البندقية**: وهي على خليج يخرج من بحر الروم يمتد نحو سبعمائة ميل في جهة الشمال والغرب وهي قريبة من جنة في البر وبينهما نحو ثمانية أيام.

ولو بشيء قليل من الخجل!!.

لم يَعُد توكتاميش سيد الهوردة الذهبية، المشرَّد الهارب المستجير الملتجئ.

وقد شاهد عظمة سمرقند وجلالها، وسرادقات «**الطورانيين**» وقصورهم من قبل، لذا وبسبب لؤمه تحول ضد السلطان تيمور دون إنذار، أو شعور ولو بشيء قليل من الخجل، لما يدين به للسلطان تيمور من فضل، واعتراف بالجميل!.

فلم يحمد للسلطان تيمور إنقاذه لحياته، ولم يحفظ له جميل مساعدته حتى أوصله إلى سرير الحكم، وإنما قلب له ظهر المجن، وقابل إحسانه بالإساءة، وسوَّلت له نفسه أن يغتصب سمرقند، ولم يقنع بملكه الشاسع الذي شمل (**سيبيريا وروسيا**).

بيد أن كبار قومه أشاروا عليه ناصحين بعدم المضي في هذا السبيل قائلين:

(**كانت لك قوة ومنعة في صداقة السلطان تيمور، الله وحده هو العليم فيما إذا كان سعدك سيتغير من جديد، وإذا تغير فلن تكون حينئذ بنظر السلطان تيمور أهلاً ولا مستحقاً لهذه الصداقة**).

بيد أن توكتاميش كان على ثقة بالنتيجة، وصمَّم على ما أراده من خيانة.

* * *

إساءة جزاء إحسان!!.

مضى توكتاميش يُعدُّ للحرب بكل أسباب الحذر والحيطة، والاستعدادات المكتسبة وراثة من تقاليد قومه.

وعلى حين غرة عبر توكتاميش نهر (**سيرداريا**) بجحافله المحتشدة من المغول، وتغلب على المقاومة التي لقيها من التتر، ونشر الرعب والخراب في البلاد، ودمَّر ما سمحت له الفرصة، وأثار القلاقل.

ولم يكن السلطان تيمور إذ ذاك في سمرقند، حيث كان في رحلة استكشافية إلى (**بحر قزوين**)، فانتهزها توكتاميش فرصة وأطبق بقواته الجرارة.

وما أن وصل الخبر إلى السلطان تيمور حتى عاد بأسرع ما يمكن على طريق خراسان العام، بحيث كان على المسرح قبل أن يصل توكتاميش إلى سمرقند، إذ صمدت عدة قلاع وحاميات حدودية ضد الغزاة القادمين من الشمال.

وكان «**عمر الشيخ**» ابن السلطان تيمور قد واجههم في ميدان المعركة، مظهراً شجاعة نادرة، ولكنه هزم أمام كثرتهم واستعداداتهم، والمفاجأة الغادرة غير المتوقعة، وتبعثر جنوده في الروابي والتلال.

غير أن الأنباء بقدوم السلطان تيمور واقترابه فاجأت جحافل توكتاميش وفرقه، وهي بعد في منتصف الطريق إلى إنجاز مهامها بصورة كاملة.

وكان في ارتداد السلطان تيمور السريع، وقدومه ليقبض زمام الأمور بيده، ما حمل عدوه على التفكير في أسلم الوسائل، وأفضل الحلول، فقرر توكتاميش الجلاء وقنع من الغنيمة بالإياب، ثم سارع بالانسحاب إلى ما وراء سيرداريا، تاركاً وراءه طريقاً مخضباً بالدماء.

عاد السلطان تيمور إلى عاصمة ملكه فنفض عنها طابع الأسى، وبعث في أهلها القوة، وأعاد لجيشها الهيبة، وقضى على الفتن التي رفعت رأسها في غيابه، وسلمت ألويتها لعدوه، وكافأ الذين أحسنوا الذود عن حماهم، وعاقب الذين فرطوا في واجبهم، وأساؤوا إلى ديارهم، وقضى على كل معالم الهزيمة والفوضى.

وهكذا عندما ظهرت أعلام الهوردة المقرنة، فإن أعلاماً أخرى قد ارتفعت في ثورة وعصيان، فإلى يسار السلطان تيمور قام «**آل صوفي**» أصحاب (**أوركنج**) سالكين طريق الحرب إلى ميدان القتال، وعلى يمينه في أودية الجبال المرتفعة، اعتلت قبائل (**الجات**) مغول الشمال ظهور خيولها وانحدرت من أعاليها، تطلب السلب والنهب.

وبرز الصراع الحقيقي على السيادة وسط آسيا، فتوكتاميش المنحدر من ذرية جنكيز خان نصير البدو، يتمتع بكل إمكانيات المغول وقدراتهم، أما السلطان تيمور الابن لزعيم قبيلة صغيرة، لا سند له غير القبائل المرتبطة معه بالولاء والوفاء.

وفي هذه الأثناء اختفى توكتاميش داخل سهوبه يترصد الفرص، أين ستكون الضربة القادمة، جمع السلطان تيمور الأمراء وقادة الجيش وكبار الضباط، وكافأ الذين دافعوا ببسالة، سواء منهم من انتصر أو غُلب على أمره.

واستحضر ضابطاً فرَّ من الميدان، خلع عنه زيَّه العسكري، وألبسه ثوب امرأة، وطلى وجهه بالأبيض والأحمر، وساقه في شوارع المدينة حافي القدمين ليسخر منه الجمهور.

* * *

عودة توكتاميش

قدم توكتاميش مع جيش ضخم باتجاه سيرداريا، في أسوأ وقت من شتاء قاسٍ مرير، فالشماليون في الشتاء يكونون كمن هم في بيئتهم الطبيعية، أما قساوة الأنواء فتقع أرزاؤها على أهالي ما وراء النهر حيث المناخ المعتدل.

كما أن الصوفيين، وخانات الجات، سيسارعون بالانضمام إلى توكتاميش وتمرُّده.

لم يكن مع السلطان تيمور سوى قسم من جيشه، وكان القسم الآخر مشغولاً بتطهير الممرات الشرقية من مغول (**الجات**).

والانسحاب إلى حصون سمرقند، وترك الهوردة الذهبية في العراء معرضة إلى أنواء الشتاء وقسوته، يبدو وكأنه السلوك الأسلم.

لكن السماح لقائد من نوع توكتاميش بحرية التصرف والحركة، يعني التعرض إلى كارثة أكيدة.

ولو كان قائدٌ آخر مكان السلطان تيمور، لرجح أن يتراجع نحو سمرقند، تاركاً المناطق المتطرفة لتتدبر أمورها بوسائلها الخاصة، ولكن السلطان تيمور لم يكن قط ليسمح لنفسه بأن يُحتجز خلف الجدران، أو أن يولِّي ظهره للعدو، وهو كله ثقة أن الناصر هو الله، إذ ارتأى قادته الانسحاب جنوباً والانتظار، حتى يصبح بالإمكان جمع شتات الفرق المبعثرة. وهنا غضب السلطان تيمور لذلك وصاح:

(**ننتظر!. ننتظر.. لماذا؟. وهل هذا وقت انتظار للغد؟.**).

* * *

المعركة الفاصلة

وهكذا هاجم السلطان تيمور بيك بمن معه محطات الهوردة المتقدمة، وانساب خلال فرق العدو، واستاق مفارزه الباحثة عن الطعام والعلف، وبدلاً من أن يهاجم توكتاميش وجهاً لوجه، راح يدور خلفه ليوهمه أن هناك قوة كبيرة قادمة إليه من وجهه، وشغل المواجهة بقوات ساترة، ودار حول جناح العدو في حركة تطويق فذَّة، واخترق جناح الخصم بجرأة وجسارة، وقد ظهر السلطان تيمور بتكتيكه ومناوراته بمن معه من الجند القلائل، كأنهم طليعة لجيش كبير قادم من الخلف. عندما رأى توكتاميش أن السلطان تيمور يلتف على مؤخرته وما جرى لجناحه، شعر بأن قوات السلطان تيمور تحاول قطع خط الرجعة، وصار عندئذ واثقاً أن السلطان تيمور يتصرف بفرق عديدة، ويهدد مؤخرته رغبة بتطويقه، فانكفأ منسحباً إلى حدوده مسرعاً، مخافةً أن يتمكن السلطان تيمور من تطويقه فيذهب هو ورجاله. ففضَّل الانسحاب طمعاً في أن يتعقبه السلطان تيمور، فيستدرجه في وهاد سيبيريا القاحلة، حتى إذا أدركه الجوع والتعب، باغته بضربة قاصمة، تقضي عليه وتُفني جيشه.

وهنا برزت حصافة السلطان تيمور وحسن تقديره للموقف.. فإنه لم يخدع بهذا النصر والانسحاب، ولم يفكر في تعقبه، وإنما آثر التريث، وغالب زهوة النصر، حتى يدرس الموقف تماماً، ويختار المكان والزمان المناسبيْن لقهر خصمه.

وعلى كلٍّ لم يكن لديه الجند الكثير، أو الجيش الكبير لمتابعته لتلك المفاوز المهلكة الباردة، والسلطان تيمور لا يتهوَّر، فاكتفى بالنصر بهذا التدبير الحربي.

وهكذا تفادى السلطان تيمور الشرك الروسي الذي وقع فيه بعد عشرات السنين «**نابليون**» ثم «**هتلر**».

* * *

بعد انسحاب توكتاميش

انتظر السلطان تيمور حتى فصل الربيع، وتوجه نحو (أذربيجان) بلاد الصوفيين، وضرب الحصار حول العاصمة (**أوركنج**)، حيث استغل حاكمها «**يوسف الصوفي**» انشغال السلطان تيمور بصدِّ غارات جحافل الجماعة الذهبية، وعاد إلى سياسة التعالي والتمرد، وسجن موفداً من قبل السلطان تيمور أرسله للاستفسار عن بعض الأمور، ومن ثم دفعه غروره إلى الإغارة على بخارى، وكان من قبل ثلاث سنوات قد تآمر مع «**كيخسرو ختلاني**» على الدولة، وقد حُوكم «**كيخسرو**» لاعترافه بالمؤامرة، ولتخليه عن السلطان تيمور عند المواجهة في المعركة مع الصوفيين، وبمعاهدة عقدها مع أمير (**خوارزم**) «**يوسف الصوفي**»، وفيها تنكشف حقيقة يوسف أنه غير مخلص كتابع للسلطان تيمور، وأنه يبيِّت الشر والأذى له، ويتآمر عليه، وعندها تحرك جيش السلطان تيمور إلى أوركنج، حيث يوجد يوسف الصوفي الذي سارع إلى طلب الأمان، فعفا عنه السلطان تيمور في تلك المرة، وأبقاه حاكماً تابعاً له على خوارزم.

ولكن الآن لما أنهى السلطان تيمور عملياته ضد قوات الهوردة الذهبية، ضرب حصاراً اقتصادياً حول العاصمة أوركنج، ومن ثم سقطت بين يديه، فأرسل أشرافها ووجهاءها أسرى إلى (**المدينة الخضراء**)، وصودرت أموالهم وممتلكاتهم، ودمرت أسوار القلعة ودرست، وأحرقت القصور، كي لا تكون بؤرة لتجمع مناوئٍ آخر للمرة الرابعة.

وكما استغل جيران آل صوفي العداء القديم بين حكام الجماعة الذهبية وحكام بلاد ما وراء النهر للاحتفاظ باستقلالهم، كقبيلة (**الجلاير**) في منطقة (**خوجندة**) الحدودية، قامت بمحاولات لتأليب حكام مغول الجات، وجحافل الجماعة الذهبية، على بلاد السلطان تيمور، إذ تحالف «**عادل شاه**» زعيم قبيلة الجلاير المغولية، مع حكام الجماعة الذهبية، وقام بالهجوم على سمرقند، وكان السلطان تيمور بعيداً عن عاصمته، فأرسل بعض قواته وأدركوا المغيرين وأجبروهم على الفرار، ومن ثم عمد السلطان تيمور إلى قبيلة الجلاير فحلَّها، ووزع بيوتها على عدد من القبائل، كي لا يرجعوا لتجمعاتهم المقوِّضة لصرح الإسلام وأهله في تلك الربوع، ومن ثم مضى السلطان تيمور بعد أوركنج إلى الشرق، يطارد قبائل

الجات ويلاحقها حتى عاصمتهم (**المماليك**)، ويطردها من بعد إلى مسافات قاصية، بحيث لا تتسبَّب بعد ذلك بإحداث قلاقل واضطرابات على حدوده، لذا أجلاهم عن البلاد إلى ما وراء الجبال، فلم تقم لهم قائمة إلاَّ بعد سنوات.

وقد كلف سبطه «**محمد سلطان**» والأمير «**سيف الدين**» ببناء قلعة (**أشباره**)، وهي في آخر المملكة على حدود (**الخطا والمغول والجتة**)، وولى بها أميراً يدعى «**أرغون شاه**»، وحصناها وشحناها بالمقاتلة، كل ذلك بأمر من السلطان تيمور، فخاف المغول مجاورته لهم، فهربوا وأخلوا ما جاوره من بلادهم، وأخذت جنوده تشن الغارات عليهم كلما قرروا التعدي لتردعهم.

وبعد أن أتمَّ السلطان تيمور تنظيف حدوده وتنظيم مملكته، ما كان ليتردد في اللحاق بتوكتاميش، بعد أن اطمأن على سلامة الأمن في بلاده، بحيث لا تقوم فيها ثورات وفتن وهو بعيد عنها.

ولما استتب له الأمر واجتمعت عنده القوة، أخذ يرنو صوب المفازة الهائلة، والأرض المجهولة، حيث يكمن العدو الخائن الأكبر توكتاميش.

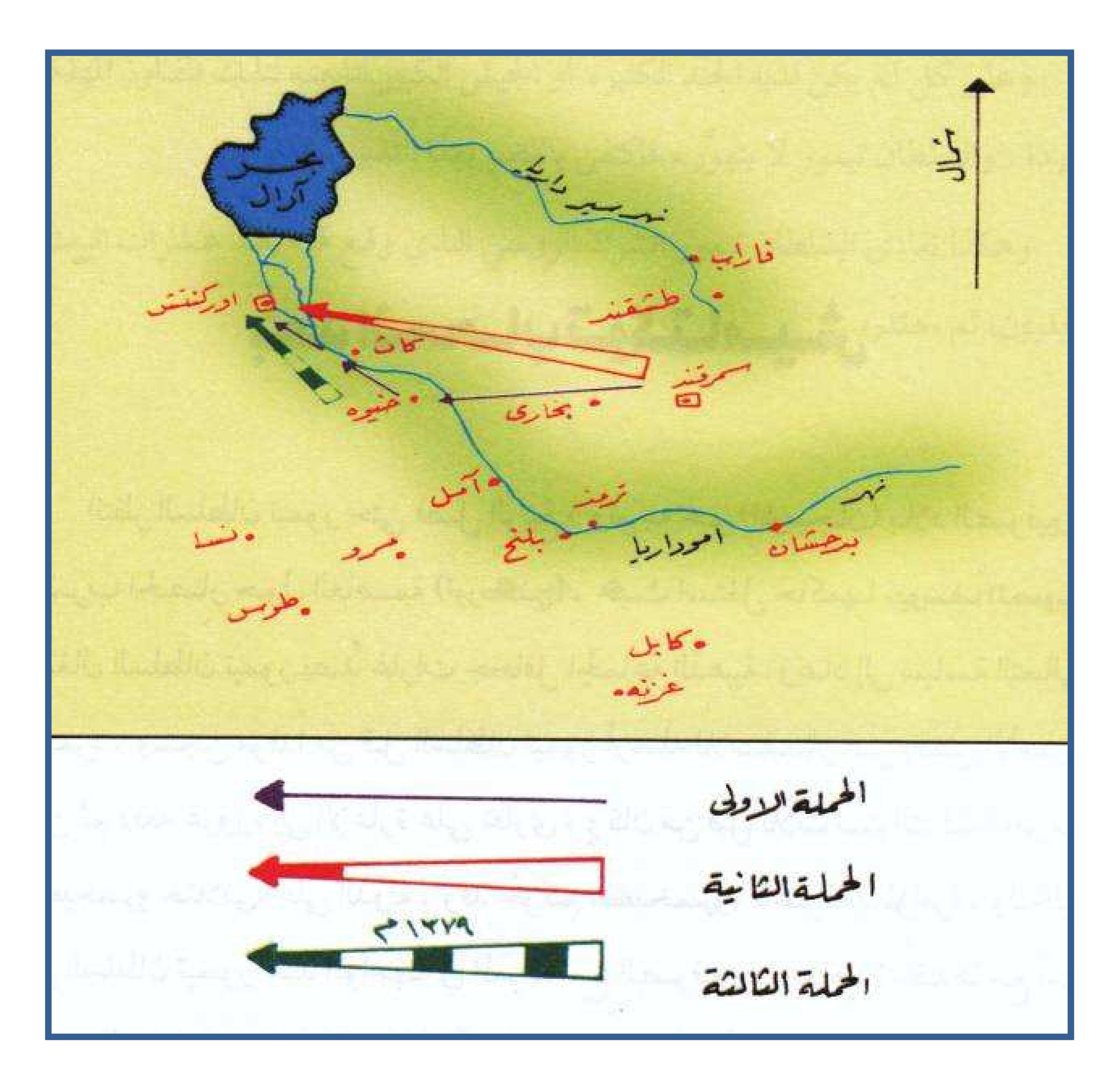
لاسيما أن السعاة أفادوا السلطان تيمور بيك، بأنَّ جواسيس توكتاميش هجموا على «**الشيخ علي**» بطريقة غادرة وطعنوه بخنجرٍ حتى مات.

وأن «**الشيخ عمر**» قد طارد توكتاميش حتى مدينة (**سراي**)، وأنه أبلى بلاء حسناً في معاركه وحربه ضد أقوام (**الفولغا**).

وباتت الخشية على الشيخ عمر والقادة، من الجواسيس، خوفاً من اغتيالهم، فالتيقظ والحذر غير مجدٍ مع عدوٍ شرس كتوكتاميش، إذ لا يحارب في معركة محتدمة، فهو يضرب ثم يختفي.

لذا تحتَّمت:

* * *



الصراع من أجل خوارزم

أصعب مطاردة خطها التاريخ

أقبل توكتاميش للمرة الثالثة بجحافله المغولية، ووطَّد السلطان تيمور عزمه على اللحاق به ومطاردته بحيث لا يفلت منه.

وكان يعلم أن الرحلة ستكون طويلة شاقة، في صحارٍ مجدبة جليدية لا حياة فيها ولا زرع، ولا تجود بالصيد.

وأن خصمه يستطيع أن يجنِّد من بلاده رجالاً لا حصر لهم ولا عدّ، ويمدهم بما يحتاجونه من مؤونةٍ وذخيرةٍ، ولكن هذا لم يثنه عن عزمه.

إن التاريخ يعيد نفسه..

نعم، نفس المفازة الثلجية القاسية، وعلى تلك السهوب الجليدية، قُضي على جيوش عديدة، وانهزم قادة جبابرة، هناك حيث تقف الطبيعة في وجه الجيوش، تعطل تقدُّمهم، وتشل حركتهم، وتنزل البلاء بهم، فيعودون من حيث أتوا مثخنين بالجراح.. أوْ لا يعودون.

فالحملة على روسيا عملية جريئة، تدخل في عداد المخاطرة أو المجازفة، أو الانتحار، وقد انخدع الكثيرون، إذ قدَّروا الموقف من ناحية عدد الجيوش وأسلحتها ومعداتها، ولم يفطنوا إلى الأحوال الجوية، وإلى اعتياد الروس على طبيعة بلادهم، وإلى خططهم التقليدية في التراجع مسافات كبيرة، مع تدمير المدن وإشعال الحرائق حتى تفعل الطبيعة فعلها مع الغزاة، وتُجهِّزهم للهزيمة النهائية.

تماماً كما حصل لجيوش «**نابليون**» و«**هتلر**».. وجيش «**بطرس الأكبر**» بقيادة الجنرال الروسي «**بيكوفيتش تشركاسي**»، الذي مات مع معظم جنوده في الصحراء.

وجيش «**الكونت بيروفسْكي**»..

وبذلك كانت الصحاري الآسيوية محرَّمة على الجيوش من أي حجم، تقريباً.

وبموجب القوانين العسكرية كان على السلطان تيمور أن يفشل، وخصوصاً بعد إخفاق الاستعلامات في جيشه، ونفاد المؤونة، والضياع في تلك الطرق الجليدية.

فكيف سيكون النصر حليفاً له إن لم ترافقه العناية الإلهية؟!.

سمع توكتاميش بقدوم السلطان تيمور ففرَّ كعادته، تاركاً لوعورة الأرض وصعوبة المفاوز وقلَّة الأقوات وبعد الشقَّة وكثرة الثلوج، أن تُعمل مخالبها في جيش السلطان تيمور، الذي كان أقلَّ عدداً من جنده، ولا يقوى على احتمال مشقَّات البرد والثلوج، كأبناء تلك الطبيعة من جيشه.

ولكن السلطان تيمور أعد فريقاً من الكشَّافة، ووزَّعهم في جهات متفرقة، وأمرهم باقتفاء أثر العدو، وتتبُّع خطواته، وموافاته بأخباره وحركاته.

وبهذه الوسيلة تمكَّن السلطان تيمور من السيْر إثر خصمه ومطاردته؛ وقد أدرك أن السلطان تيمور يطارده كظلِّه، فعمد إلى إرهاقه وإنهاك قواه بالارتحال الدائم.

استغرقت الرحلة ثمانية عشر شهراً، قطع فيها الجيش ألفاً وثمانمائة ميل.

وكان توكتاميش يخلي المناطق التي يمرُّ بها من سكانها وماشيتها وما بها من مواد التغذية، كي لا ينتفع بها خصمه.

فانطلق بين قفار (**سيبيريا**) وصحاريها المجدبة القاحلة، إلى أقصى الشمال، ثم انحرف غرباً، حتى وصل إلى نهر (**أورال**) الذي يتفرَّع من (**الفولغا**)..

ولكن قد يقول قائل: ‹**لماذا هذه المجازفة**›؟!.

أليس من الأفضل أن يكمن السلطان تيمور بمملكته، ولا يعرض قواته وشعبه ومستقبله لعملية غير مأمونة العواقب، ويكفي نفسه مشقة الحرب القاسية المجهولة؟!..

والردُّ على ذلك أن الحرب واقعة لا محالة.. إذ إنَّ دينين لا يجتمعان في إقليم واحد. فكما كانت الخيانات ومؤامرات الاعتداءات من اليهود وهم أهل الكتاب، على المسلمين في جزيرة العرب، ورأى الرسول الرحيم ﷺ بعد اعتداءاتهم وخياناتهم بالعهود أن لا مندوحة عن إجلائهم وتوفير دمائهم.

وأُثر عنه ﷺ: «**لا يترك بجزيرة العرب دينان**»[1].

---

[1] مسند الإمام أحمد.

وأمر بإجلاء كل يهودي. وكذلك آل إليه الأمر في بلاد العراق، حيث تكررت اعتداءات الفرس وتجاوزت الثلاثين، حتى أشار «**الأحنف بن قيس**» لعمر بن الخطاب:

((**لا يزالون كذلك حتى يزيلوا دين الإسلام**))، وعندها قرَّر اجتياحهم.

وهكذا فقد تعرَّض السلطان تيمور من قبل لهجوم عدوه مرتين، فإذا لم يعاجله بضربة قاصمة، فسوف يعيش سكان الحدود المسلمون في خطر، وكذلك سيتربص الأعداء تلك الفرص ليقوموا بانقضاضاتهم.

وبذلك تنكسر معنويات الشعب والجيش، ولهذا فإنه خير له أن يهاجم وأن يجازف.

ولكن تدبير السلطان تيمور وتفكيره يرقى إلى مستوىً يفوق مستوى البشر، فكان قائداً حصيفاً يجيد تقدير الموقف، وكان الله معه بالنصر دوماً.

درس البلاد وطبيعتها وأهلها وجندها والخطط المنتظرة، ودرس أيضاً حالة قواته ومعداتها وما يجب عليه تموينها.

ولما لم يكن هناك مقارنة بين قوات القائد الروسي الشرس الكبيرة المتمرِّسة على تلك السهوب الجليدية، وقواته التي لا تعرف تلك الطبيعة إلاَّ عند صدِّ الغارات عن الحدود الشمالية، تصرّف اعتماداً على معرفته بالطبيعة البشرية، إذ كان يعرف جيداً نواحي الضعف والقوة في طبيعة المغولي ومزاجه، لذا وضع خطة عملياته بناء على ذلك، واختار التضحية براحته، في سبيل القضاء على الروْع الذي يحدثه توكتاميش بالمسلمين الآمنين، وغامر بكل شيء للوصول بالتزاع إلى نهاية حاسمة على أرض الخصم بالذات، حيث كان توكتاميش لا يتوقع ذلك أبداً.

دأب السلطان تيمور طوال حياته العسكرية على عدم توريط بلاده في مناورات من أجل حملة ما، لذا لم يسمح لنفسه أبداً أن يوضع في موضع المدافع.

فقدَّر ما تحتاجه قواته من أسلحة ومعدات ومؤن، وما يلزم الحملة الكافية لنقل المؤن والملابس الثقيلة والحاجيات التي لا غنى عنها.

وعبَّأ خيرة القوات والقادة لهذه المعركة الكبرى.

وبتلك الخطة المدروسة، جعل السلطان تيمور من حملته على روسيا مجازفة قد تكون مأمونة، وقد تكون معروفة العواقب يتوفر لها النجاح، ولكن ما عليه ومن معه إلا أن يطمحوا لإحدى الحسنيين ‹**الشهادة أو النصر**›.

يقول السلطان تيمور بيك:

«**إن وجودي في مكان الموقعة ومعي عشرة من الجند، خير من وجودي بعيداً عنها ومعي عشرة آلاف**».

«**وإنه لعمل عظيم: التوجه سريعاً لتحطيم قدرة الخصم قبل أن يجمع كامل قواه، وعلى القائد أن لا يتحرك بجيش أكبر مما يمكن الاحتفاظ به سليماً على الطريق**».

وبتلك الكلمات رسم السلطان تيمور خطة للنجاح من أجل مستقبل العمليَّات.

* * *

على من يا توكتاميش!...

إن راح السلطان تيمور يقصد الصحراء الآسيوية بطريق الجبال فلا يبعد أن يصل إلى عاصمة «**توكتاميش**» ولكن ما الذي يمنع توكتاميش من نزوله إلى بلاد ما وراء النهر واحتلال سمرقند في الوقت نفسه.

لذا كان السلطان تيمور ينظر إلى أحداث زمانه وموقعه بعين الناقد الحذر، وبذلك كان يدرك أنه لن يكون مطمئناً إلى سلامة المسلمين، ما دام هذا العدو يتحين الفرص لغزوه ومهاجمته على حين غرَّة.

تقدم السلطان تيمور من خصمه بشيء كثير من الحذر والسرعة، فانتقل من قلعة حدودية إلى أخرى من القلاع القائمة على الحدود، حتى اضطرته الثلوج إلى التوقف، فقبع في مكانه منتظراً انتهاء فصل الشتاء.

وجاء مع طلائع فصل الصيف وفدٌ خاص أرسله توكتاميش، بغية الصلح والمسالمة، يقدمون الهدايا للسلطان تيمور ويقولون:

(**إن الأمير توكتاميش يعتذر عن الخطأ الذي وقع منه، وأنه يريد أن يعقد الصلح معه**).

أصغى السلطان تيمور بسكون إلى أقوال السفراء والتي خلاصتها:

(**أن توكتاميش يقر بفضل أمير سمرقند ويعترف بخطئه في سلوك سياسة الحرب، ويرغب في عقد تحالف سلمي مع السلطان تيمور**).

وكان الأمر مجرد خدعة لا غير، ولكن السلطان تيمور رغم إدراكه ذلك، تعامل مع الطلب للصلح بحلٍّ يكشف الخديعة، دون المهاجمة ورفْضِ المسالمة، فقال للسفراء:

(**لما جاءني أميركم هارباً مضطَهداً من أعدائه، ساعدته ودعوته ولدي، كما هو معلوم لدى الجميع، لقد وقفت إلى جانبه ضد أوروس خان، وكثيرون من فرساني هلكوا من جراء ذلك.**

وقد نسي كل ذلك عندما وجد نفسه قوياً، وقد استفاد من وجودي في فارس، فغدَر بي واقتحم بلادي يهدم مدنها ويقتل أهلها.

ثم أرسل جيشاً ثانياً لمحاربتي وغزو ديارنا، والآن:

ونحن نتحرك ضدَّه فإنه يحاول إنقاذ نفسه من العقاب، لقد نكث بعهوده وأيْمانه كثيراً، وأنا في الواقع لا أؤمن كثيراً بعهود أميركم، ولكنه إذا كان يرغب في السلم حقاً، فليبعث وزيره «علي بيك» للاتفاق والتفاهم).

ولكن «**علي بيك**» الوزير الأول في الهوردة الذهبية لم يأت.

لذا، تقدم السلطان تيمور بجنده، الذين روَّضهم على احتمال الشدائد والصبر على المكروه، والمعيشة على الكفاف وشظف الظروف وخشونتها، وألهبهم بحماسٍ للجهاد في سبيل الله.

وخرج من ستر الروابي والتلال إلى فضاء الرمال البيضاء، ليعبر صحراء الجوع والعطش، ويتوغل في عالم سكان الصحراء (**الكيبتشاك**).

كانت الفِرَق تتحرك مجتمعة بشكل لا يمكن معه حدوث أي ارتباك وفوضى، ولو في الظلام، بحيث يحتفظ قادة التومانات بفرقهم بشكل قتالي إلى حدٍّ ما، كانت الحركة تجري على جبهة عريضة ليُسمح للخيل التقاط أي كلأ تصادفه.

وبعد مسير ستة أسابيع في الصحراء، انتهت الرمال لتتحول المساحات إلى أرض معشوشبة قرب نهر (**ساري صو**)، كانت الفرحة كبيرة لدى الجيش بهذا النهر، إذ الخيل بدأت تنازع عطشاً لقلة الماء.

والآن تسعفهم العناية الإلهية بمرأى تلك المروج الشاسعة، ولم يكونوا رأوا من قبل حتى الآن آدمياً، ولا شاهدوا أرضاً مزروعة.

أصدر السلطان تيمور أوامره بتقنين الطعام وأمر بالصيد، وخصَّص لذلك مفارز يومية.

لم يكن يتميز القائد عن جنده بالطعام، بل الكلُّ يأكل من القِدْرِ المشترك، مما زاد في تشجيع الرجال وتقوية عزائمهم.

والخيل أصبحت بحالة جيدة بفضل الكلأ المتوفر.

وأمر السلطان تيمور قادة الأجنحة بالانفتاح على دائرة صيد كبيرة.

كان الفرسان قبل ذلك الحين يجلبون صيدهم إلى أمام الفرق، أما الآن فإن الجيش بأكمله ‹**مائة ألف**› فارس قد انتشروا على مدى ‹**خمسين كيلو متراً**›.

وبينما كان المركز بوضعه المستقرّ، كانت الأطراف البعيدة على خط دائرة تعدو بخيلها على شكل قوس، دافعة بكل ما تجده إلى الداخل.

وكانت ألوية أخرى تدور حول الأجنحة لإغلاق الفجوة، وتأخذ بالتحرُّك تجاه القلب، وبذلك لا يكون بوسع أيِّ حيوان ولو كان أرنباً، أن ينساب بعيداً عن الجيش الزاحف.

ولكن السلطان تيمور لم يعط جنده وقتاً للتهاون والكسل، إذ سرعان ما عبَّأ قواته وأعدَّ الفرق للاستعراض.

ردَّدت طبول المعسكر وتجاوبت، وتوزَّعت الفرق إلى ألوية بتشكيل القتال، ولم تشهد السهوب السيبيرية من قبل عرضاً لمثل هذا الجيش.

وأخذ السلطان تيمور يهزج ويهتف في مظاهرة عظيمة، شدَّد بها قلوب الجند، وعادت بواسطتها الطمأنينة إلى نفوسهم.

أزال بذلك الإيلاف على وضع ممل، وأذهب العادة والروتين، وشحذ الهمم، مذكِّراً بالانتصارات السابقة الملهبة للنفوس، وراء عدو خائن كافر جائر، فجدَّد المعنويات، وأعاد حماسة القتال، وزهو الانتصار للإسلام.

وانطلق الضباط على خيولهم عدْواً إلى مراكزهم الجديدة، وارتفع ذلك الصوت الزاعق الآمر بالانقضاض:

((**هورْرْرْ...**)): أي أن الجيش بجاهزيَّته القصوى ومعنوياته الممتازة.

تقدم السلطان تيمور بجنده.. نحو أرض الأشباح، لأن أهلها لا يظهرون إلاَّ في الليل، الضباب المتماوج والسكون الرهيب يسودان البلاد، والجيش إلى ذلك الحين لم يلاقِ في طريقه إنساناً حتى الآن.

أحسَّ السلطان تيمور أن عدوَّه قريب منه، فأرسل ابنه «**عمر شيخ**» على رأس عشرين ألفاً من جنده للاستكشاف.

كان توكتاميش يعمل جاهداً على إخلاء الناس والحيوان من طريق السلطان تيمور.

الجيش التيموري يدخل الآن منطقة تبدو غير مأهولة، واسعة، شاسعة، رطبة، مظلمة، دون حياة بشرية، وتبدو ذات هوْل مخيف.

كان نداء المؤذن إلى صلاة الصبح يُخرج الرجال من دفء النوم مع الفجر.

وكانت هذه الصلاة تمدُّهم بروحانية إشراقية بالقوة والعزم على مواجهة النهار الطالع بثقة وإيمان.

اختفت الآلاف العشرون عبر السهوب لتبلغ منابع نهر (**توبول**)، وعثرت على مواقع لستة مواقد نار لم تكن أُخمدت نيرانها بعد، مما يدل على أن بعض فرق العدو كانت في هذا المكان.. وللحال استدعى السلطان تيمور عدداً من الكشافة المتمرسين فأرسلهم على خيولهم على وجه السرعة، للانضمام إلى ولده وللبحث في المروج والمراعي والوهاد، ومن ثم تبعهم شخصياً مع بعض حَرَسه ليتسلَّم قيادة الطليعة بنفسه في منطقة (**كوستناف**).

ومن ثمَّ أسَر «**الشيخُ داوود**» أحدَ الفرسان، وعاد به إلى السلطان تيمور، ولكن الأسير قال إنه لا يعرف شيئاً عن توكتاميش، وإنما شاهد عشرة فرسان يسيرون نحو الغرب.

فأرسل السلطان تيمور عدداً من رجاله للقبض على الفرسان العشرة المذكورين، فلما عادوا بهم ذكروا أن توكتاميش لا يبعد عن هذا المكان سوى مسير أسبوع فقط، باتجاه الغرب عند ضفة نهر (**أورال**).

وأخيراً وصلت أنباء الكشافة بأن توكتاميش رابض بجيشه الكثيف في الأدغال الممتدة على الضفة الأخرى للنهر، وأنه يستعدُّ للقتال.

إذن: بتحرُّك السلطان تيمور السريع فإنه قد أفشل سياسة الإعاقة التي كانت جُلَّ استخدام توكتاميش لها حتى النهاية.

وقد أربك السلطان تيمور الهوردة، وأرغمها على أن تكون دوماً بينه وبين وجهة سيره، وأعلمها أن المعركة لا بدَّ واقعة، دون قيد ولا تردُّد ولا أي ضعف.

حيث يعلم أن أعين الخان توكتاميش تتابع تحرُّكاته.

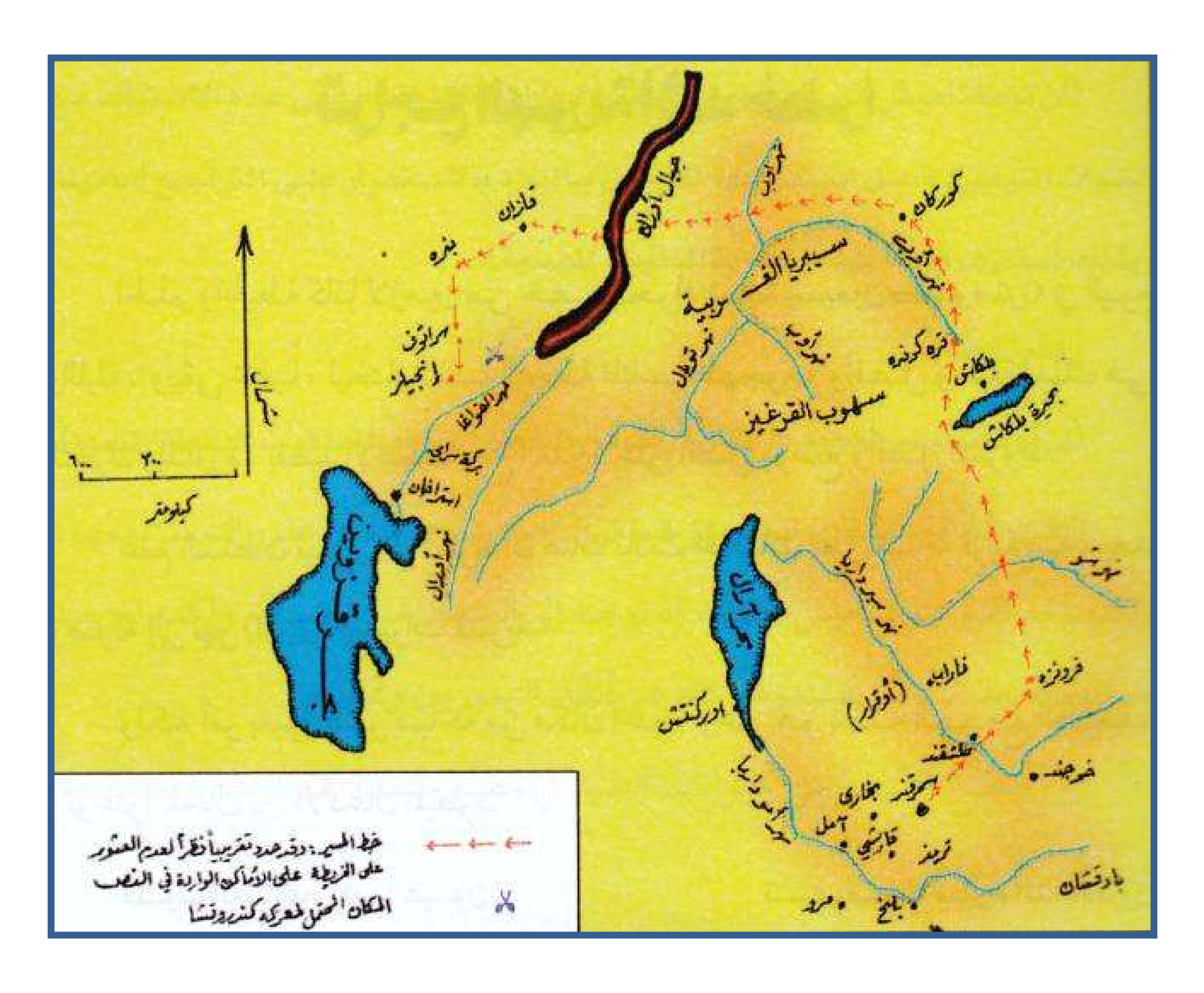
لذا لم يترك نفسه بموقف دفاعي لهجوم مباغت من قبل الهوردة التي كانت تفوق قواته بضعفيْن، و لم يعرِّض المسلمين إلى خطر مميت.

وليس بمقدور أحد أن يصف هذا الجري السريع الذي كان يدفع السلطان تيمور رجاله إليه.

فقد كان فوق الطبيعة، وفوق قوة الإنسان في هذه الأصقاع النائية، التي ما كانوا أبداً يألفونها.

وليذكر المرء أن السلطان تيمور كان يقود مائة ألف من الجند، وأن الحاجة إلى الغذاء والماء لهذا الجند الكبير لم يكن من الأمور التي يسهل الحصول عليها في مثل تلك البلاد المنقطعة، والتي كان يُجْدِبُها وينالها عدوه توكتاميش قبله.

إلا أنها الإدارة الحكيمة التي أبداها السلطان تيمور، والهدف المشترك بين أفراد جيشه قادةً وجنوداً، الذين ألَّفهم السلطان تيمور، للجهاد في سبيل الله، وقطع دابر الكافرين، حالت دون فشل المسعى.



مرسم تقريبي لمسير الحملة

تراجع الهوردة أشد خطراً

الحذر والحيطة كانا لازمين من خصمٍ يتحرك ‹**مائة وسبعين كيلو متراً**› في اليوم والليلة، ويبقى مختفياً، ليختار لنفسه اللحظة المناسبة للهجوم، وأفضل وسيلة لذلك هي التحرك والمناورة، بقصد الاصطدام مع العدو، على أفضل موضع وأفضل الشروط.

علم السلطان تيمور من أسراه أن هناك ثلاث مخاضات على مسافة قريبة منه، بعد وصوله إلى نهر (**أورال**) بمسيرات قسرية.

ولكنه أمر بعبور النهر سباحة من مكان آخر، وعبر هو بنفسه النهر مع الطليعة، وتوغَّلوا للحال بين الأدغال المبعثرة.

قلوب العارفين لها عيـــونٌ ترى ما لا يراه الناظـــرون

بعدها قبض على أسرى آخرين، وقام ببعض التحريات، وعلم أن حشداً معادياً كان يرابط عند كلٍّ من المخاضات الثلاث.

حيث أقام توكتاميش كميناً مخفياً مختبئاً عند حاشية الأشجار. وقد انسحب فاشلاً مهزوماً فور عبور السلطان تيمور من مكان آخر.

لم تكن الهوردة إلا أكثر خطراً عندما يتراءى أنها متراجعة.

ولكن السلطان تيمور تابع توغله خلال الأودية الضحلة لنهر (**أورال**)، ومن ثم صار السير يجري في مستنقعات نهر (**سامار**)[1] وحوله، مما زاد في معاناة الجند وإجهادهم، وأخذت طلائع السلطان تيمور تأسر من مؤخرة جيش الهوردة، وأفاد الأسرى:

(أن توكتاميش قد جمع جيشاً كبيراً، وأن خطته تقوم على عدم الاشتباك مع القوات التيمورية، بل استدراجها للتوغل بالبلاد بالاستمرار على التراجع أمامها، وبذلك تُستنزف قواها بهذه المطاردة الطويلة المضنية).

---

[1] **نهر سامار**: أحد روافد الفولغا.

وقالوا أيضاً:

(**إن توكتاميش موجود في مكان قريب من النقطة التي وصلتها قوات السلطان تيمور**).

التقت كشَّافة السلطان تيمور بمؤخرة توكتاميش، وحافظت على التماس معها، ولكنها لم تلتق بتوكتاميش نفسه، إذ توجه إلى الشمال من جديد، ولكنه لم يعد باستطاعته بعد الآن أن يغيب وهوردته عن أنظار التيموريين وتماسّهم.

وراح يفرغ الأرض من حيوانات الصيد في مضيّه مبتعداً عن البشرية، متوغلاً في أرض الأشباح.

* * *

المفاجأة المذهلة

عند (**كندروتشا**) رافد نهر (**سوك**) على ضفته الشمالية.

كم كان عجب جيش توكتاميش عظيماً لما رأوا جنود السلطان تيمور يقيمون خيامهم في السهل أمامهم على بعد ‹**ألف متر**› فقط، كأنما هم أتوا لزيارة لا لحرب هائلة، يتوقف عليها مصير أحد الجيشين.

نعم لقد اعترتهم الدهشة وهم بتشكيل القتال، وقد تحركت عرباتهم إلى الخلف.

والجنود التيموريون غير مبالين، يقومون بنصب خيامهم كما لو أنهم في هذه البراري الشمالية المتجمِّدة لوحدهم.

لقد هدف السلطان تيمور أن يريح خيْله وجنْده ويقوِّي معنوياتهم.

وتوسد أمراء السلطان تيمور الأرض أمامه في خيمة كبيرة، ووقف خدم السلطان تيمور ورسله أمام بابه ينتظرون أوامره، وجلس السلطان تيمور متقلداً ثيابه الرسمية.

ومن ثم اتَّخذ الجيش مكانه وفاقاً لخطة السلطان تيمور.

وقد أعد توكتاميش جيشه ونظمه حتى لا يؤخذ على حين غرة، وجعل خطوطه في شكل قوس طولها ميلان ومنحرفة نحو جيش السلطان تيمور، لتطبق عليه أثناء المعركة.

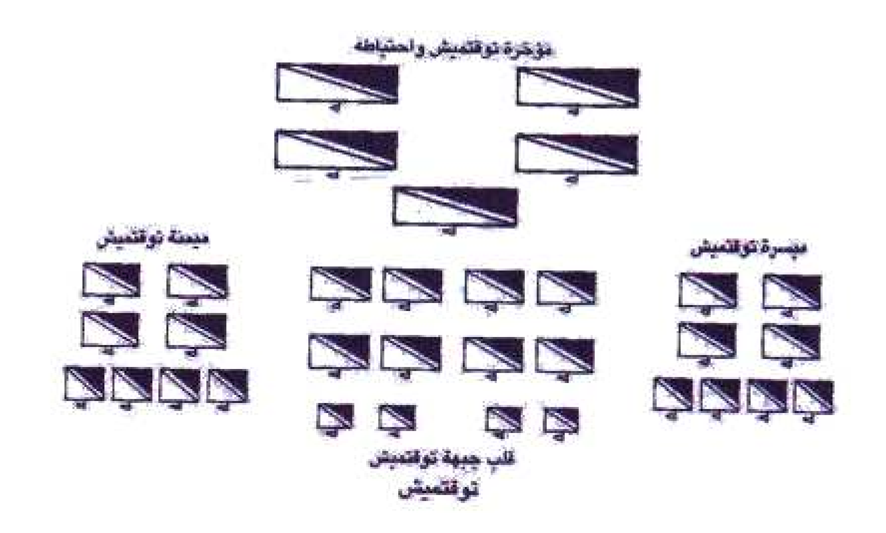
وكانت متفوقة في العدَد والعُدد على جيش السلطان تيمور بيك.

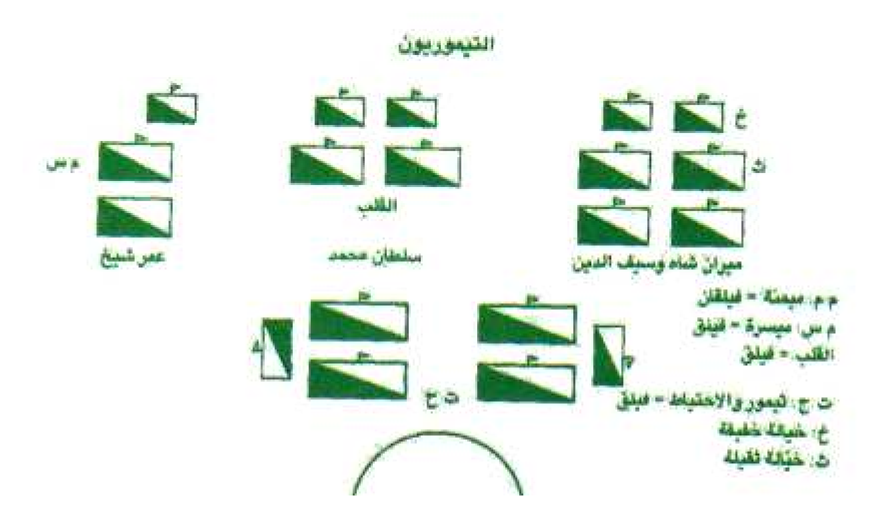
خفة الحركة والمفاجأة، واستخدام الاحتياطي في الوقت المناسب، كان هبةً من الله ومَلَكَةً للسلطان تيمور. فما أن وضع السلطان تيمور قوات في مواجهة الهوردة لتثنيهم وتشغلهم عن العملية الرئيسية، حتى نصب كميناً لسيد الهوردة الذهبية في ساحة المعركة.

جعل ميسرة جيشه ضعيفة العدد، مما أطمع الهوردة بالانقضاض بميمنتهم عليها، وتحت وطأة الهجمات المتتالية المتعاقبة الشديدة، تحطَّمت هذه الميسرة وتقهقرت وانسحبت. وبتحطُّم هذه الميسرة وتبعثرها حصلت فجوة في الجبهة التيمورية، فاندفع توكتاميش مع حرسه الخاص متوغلاً حتى مؤخرة القلب

التيموري، واضعاً نفسه بذلك بين مؤخرة هذا القلب، وبين السلطان تيمور الذي كان يرقب تطور المعركة عن كثب.

وعندئذ أمر السلطان تيمور رجاله وكل ما لديه من الاحتياطي بالهجوم على جناح توكتاميش، فهجموا كالأسود الكاسرة، فمزقوا ما يجدونه أمامهم، وما لبث توكتاميش أن وجد نفسه بين نارين على جانبيه، وخاصة من جهة السلطان تيمور الذي انقض محطِّماً ما يلقاه في جناح توكتاميش، وشاقّاً طريقه باتجاه العلم المقرَّن.

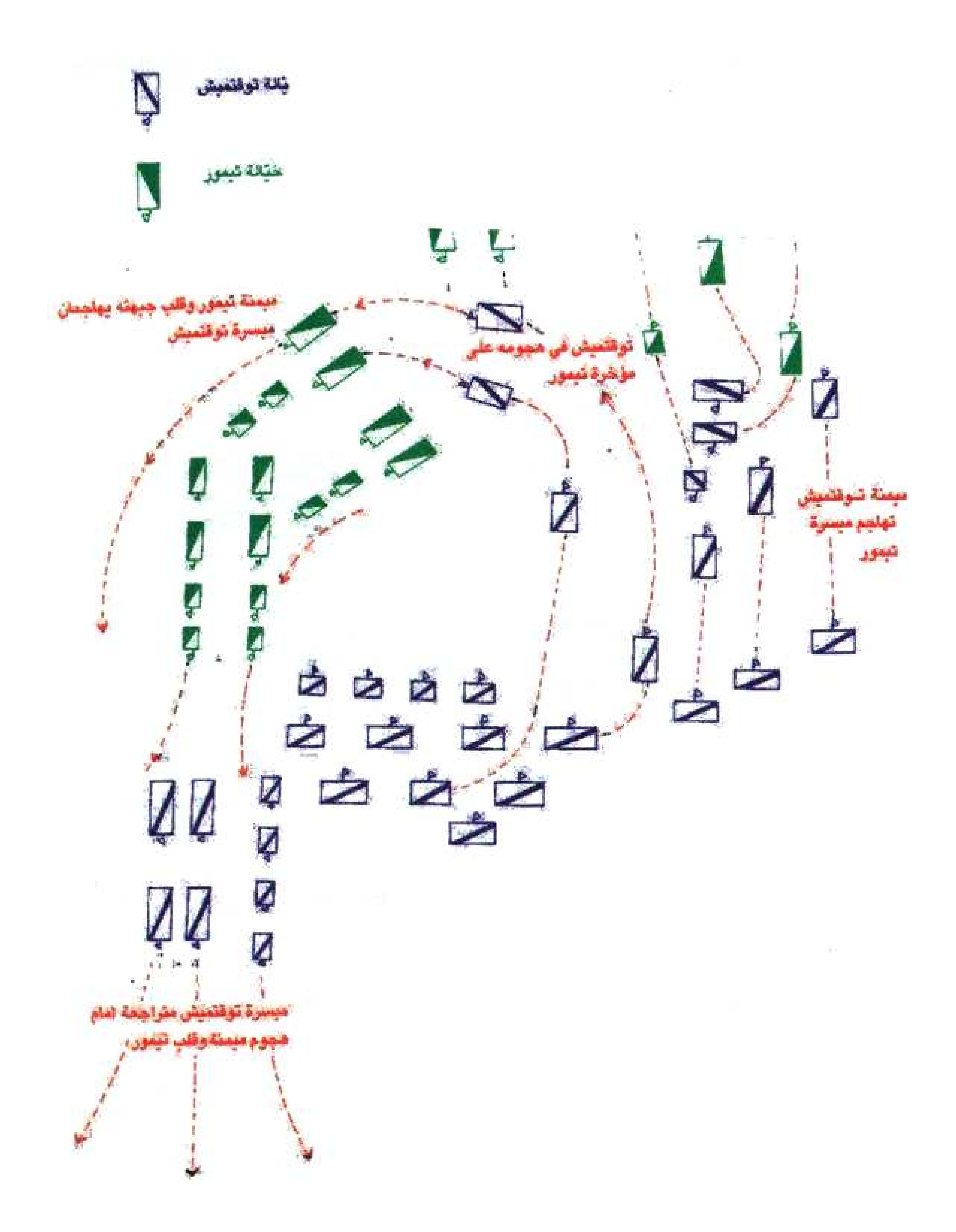




الشكل المبدئي لمعركة كندورتشا، ١٩ حزيران/ ١٣٩١م

وتحت وطأة هذا الهجوم المباغت.. ورؤية توكتاميش للسلطان تيمور وجهاً لوجه مع حرسه الخاص، وهو يقترب منه بأقصى سرعة، راح توكتاميش فريسةً للذعر والهلع، وأحس بالخطر القريب، وأدرك أن منيَّتهُ محققة، فلوى عنان فرسه وولى هارباً كأنما يتسابق مع شبح الموت، يتبعه بعض قادته وأنصاره، وبهربه سقط علم جيشه، وانهزمت قواته، وسادت الفوضى بعد ذلك في جنوده، خلال بضع ساعات فقط، وتلك حقّاً لإحدى المعجزات الحربية.

فمنهم من نجا بنفسه مختفياً عن الميدان، ومنهم من واصل القتال ليلقى حتفه أو يقع في الأسر، وأكثرهم هلك في مستنقعات (**الفولغا**).



معركة كندورتشا، ١٩ حزيران/ ١٣٩١م/ التطور والنهاية

فجأة وضعت الحرب أوزارها بالنصر الخاطف

اتخذ السلطان تيمور عدداً من القرارات لتنظيم الإدارة في بلاد الهوردة الذهبية، على اعتبار أنها خاضعة له.

واختار أميراً من المغول المخلصين له، وولاَّه خاناً على الأقطار الشاسعة التي ضمَّها لملكه في هذه الحرب، على أن يكون خاضعاً لسلطانه، وعزَّزه بجيش قوي، ثم عاد إلى سمرقند.

ولكن هذا التعيين لم يكن أكثر من مجرد سلطة آنية خاضعة لعوامل الزمن، وتقلُّبات الأقوام المغول المهزومين، لكن نصره الرهيب كان حقّاً عاملاً حاسماً مشجِّعاً مثمراً.

* * *

لبالغ الأسى
تحالف المسلمون مع أهل الشرك الكفرة
ضدَّ المسلمين

لقي توكتاميش هزيمة مخزية في معركة (**كندروتشا**)، وظل مختبئاً في أوكاره حتى استطاع أن يستعيد السيطرة على جميع أراضيه بعد ثلاث سنوات طوال.

عاد من أعالي (**الفولغا**)، وانضمت إليه (**سراي واستراخان**)، ونجح في تجميع قواته المبعثرة، وأجبر الأمراء الروس على تجديد ولائهم، ومن ثم راح يزعج أهل الشمال لبحر (**قزوين**) التابعة للسلطان تيمور، بالاعتداء عليها، فكتب إليه السلطان تيمور ساخطاً يقول:

(ما هذا الشيطان الذي يركبك ويمنعك من البقاء ضمن حدودك؟!. هل نسيت الحرب الأخيرة؟. إنك مطَّلع على انتصاراتي وقصصها وتعرف أن الحرب والسلم لدي سواء!. لقد ذقت طعم صداقتي وعداوتي، فاختر وابعث لي عِلْماً بأيهما تختار).

وبهذا التهديد خاف توكتاميش وكفَّ عن الأذى والعدوان أربعة أعوام أُخر، كان السلطان تيمور خلالها يقوم بالقضاء على الفتن والثورات التي اندلعت في الأطراف الحدودية لإمبراطوريته.

وقد علم السلطان تيمور بالتحالف الذي عقده «**توكتاميش**» الصابئ الذي وصفه «**ابن عربشاه**»:

(**بالمدمن المغرم بالخمرة**) مع المماليك في مصر في عهد السلطان برقوق، السلطة الممثِّلة للمسلمين في بلاد العرب، ومع «**أحمد بن أويس**» ملك بغداد المدَّعي الإسلام، ‹**كإسلام آخر زمان**›.

لذا نقل السلطان تيمور عملياته الحربية نحو الشمال، حيث كان يتوقع أن يقوم توكتاميش الكافر الخائن الغدَّار بعملية عدوانية مباغتة، كما كان دأبه سابقاً، وخصوصاً وقد شدَّ بأزر هذا الكافر الخائن المسلمون في بلاد العراق ومصر والشام، ضدَّ السلطان تيمور المؤمن.

أما السلطان تيمور فقد انتظر ما سوف ينجلي عنه الموقف.

تذرَّع توكتاميش القول بأن (**أذربيجان**) من أملاك (**الهوردة الذهبية**).

وكانت تقديراته للموقف تزيده إغراءً.

إذ رأى أن غارة مفاجئة يقوم بها على هذه المنطقة، وجيوش السلطان تيمور منهكة متعبة، بسبب الحروب الداخلية المتتالية في إيران وبلاد الكرج (**الكيبتشاك**) والعراق وغيرها، سوف تُحقِّق أمنيته في استعادة أذربيجان، وبذلك يفقد السلطان تيمور مزية التنقل، وسرعة التحرك من وإلى ما وراء النهر كما فعل من قبل.

وبتلك القوة التي سيسيطر بها على أذربيجان، ستبقى بلاد ما وراء النهر تحت رحمة خان الهوردة الذهبية.

فما أن حاولت قوات توكتاميش الاقتراب من أذربيجان، وعبرت بوابة (**دربند**)، حتى نجحت القوات التي أرسلها السلطان تيمور وهو في ضواحي (**تفليس**) من بلاد الكرج بالتصدِّي للقوات المغيرة، ولما وصل السلطان تيمور إثر طلائعه إلى ضفاف نهر (**كر**) في (**شروان**)[1] كان توكتاميش قد انهزم وعبر بوابة دربند، وقد مُني بالهزيمة المخزية هو وحلفاؤه.

* * *

[1] **شروان**: مدينة من نواحي باب الأبواب (نواحي أرمينية)، وقيل ولاية قصبتها شماخي على مقربة من بحر الخزر.

نهر الترك المعركة النهائية

وفي شمال (**أذربيجان**) القريبة من عاصمة الهوردة الذهبية، أراد السلطان تيمور أن يقضي على تحرشات الهوردة الذهبية، فاستهدف العاصمة (**ساراي**).

وبدأ حركته بإطلالة الربيع نحو الشمال، دون أن يكون مضطراً إلى عبور الصحاري والقفار التي اجتازها في الحملة السابقة.

حاول توكتاميش التزلُّف والمراوغة كعادته، ليثني السلطان تيمور عن عزمه عن غزو بلاده، ووجه الرسائل إليه والعبارات المنمَّقة المعبِّرة عن ندمه، وعن عناد أمرائه وقادته وإفساده‍م الذي كان سبباً فيما وقع منه ضد السلطان تيمور، فلم ينجح مكره وخداعه.

والتقى السلطان تيمور بعد خروجه من بوابة (**دربند**) بجيوش توكتاميش على ضفاف (**نهر الترك**) في معركة فاصلة، وكان السلطان تيمور آنذاك في الثالثة والستين من العمر.

حاول توكتاميش في هذه المعركة القضاء على السلطان تيمور شخصياً، وحاول بكل ما أوتي من قوة وحنكة وكثرة عدد جيشه، وقد استخدم عربات في القتال شبيهة بعربات (**السيثيين**) القدماء.

واستغلَّ الفرص، وبالرغم من أن قواته طوَّقت السلطان تيمور، وكان معزولاً عن جيشه إبَّان هجومه الصاعق الذي يخترق فيه صفوف العدو، وقد انقصف رمحه وكُسِرَ سيفُه.

أما جند السلطان تيمور فقد استبسلوا في سبيل إنقاذ قائدهم المحبوب لديهم أكثر من كل شيء، وجاؤوا بعربات ثلاث جعلوها حوله من كل الجهات، واتَّخذوها متاريس لهم، وقاموا برمي النبال حتى لحقت بهم الفرقة تلو الأُخرى، مما حال دون وصول المغول الذهبيين وعلى رأسهم قائدهم إلى السلطان تيمور، فخابوا وخسروا، وقُطع كل أمل لهم ورجاء.

وبذلك باء توكتاميش بالفشل، حتى يئس من إحراز النصر، بعد فشل محاولته في الوصول إلى قتل السلطان تيمور بيك. فعمد يائساً إلى الانسحاب، وتبعثر جيشه، وتفرَّقت قبائلُه بعد معركةٍ ضارية،

وانطلقت بجملتها مهاجرةً إلى الغابات الشمالية، وإلى بلاد (**القرم وأدريا نوبل وهنغاريا**) شذر مذر، وانضم كثير منها إلى السلطان تيمور.

تعقَّب السلطان تيمور العدو حتى نهر (**كورا**)، حيث يقع معسكر توكتاميش، وكان خالياً من ساكنيه، وتابع المطاردة نحو الشمال عبر وادي (**الفولغا**)، واكتفى باجتياح المناطق التي وصل إليها.

وتابعت القوات التيمورية تنظيف المناطق من جند توكتاميش وأنصاره، حتى صارت بلاد الهوردة الذهبية حتى نهر (**دنيبير**) تحت حكم السلطان تيمور المطلق.

تابع ابنه «**ميران شاه**» عمليات التنظيف حتى الحدود (**البولندية**)، ومِنْ ثَمَّ عاد لينضم إلى أبيه بالقرب من (**موسكو**)، التي ارتاعت عندما سمعت أن رايات السلطان تيمور تخطت نهر (**الدون**). وساد الفزع والاضطراب بين الأهالي، واستعد أميرها للحرب، ولكن كان أمله ضعيفاً، وتضرع أهلها «**بالسيدة العذراء**» لإنقاذهم.

ولكن السلطان تيمور عدل عن عزمه عليها وانحدر نحو الجنوب، وقد رأى وعلم أن هؤلاء السكان ‹**نصارى من أهل الكتاب**›، مغلوبون على أمرهم، بلا حول ولا قوة تحت ضغط الهوردات المعتدين الصابئة.

ثم تابع زحفه بعد ذلك عبر سفوح (**جبال القوقاز**)، وقضى على كل مقاومة تعترضه، ومنها المستوطنات الأوربية القائمة على شواطئ بحر (**آزوف**)، التي كانت مشغولة بجنود (**بندقيين وجنويين ولتوانيين وباسك**).

ومن ثم اتجه نحو الشمال من جديد، فحاصر مدينة (**استراخان**) وسقطت بيده، وطرد جميع أهلها منها بعيداً عن المدينة، وأمر بحرقها، لأنها كانت بؤرة لتجمعات توكتاميش العدائية، وكلما سنحت الفرصة لأهلها أثاروا القلاقل في تلك الربوع.

وكذلك اتجه إلى مدينة (**ساراي**) العاصمة، وكانت تدافع عنها قوات (**كيبتشاكية**)، وقوات (**مملوكية**) تدَّعي الإسلام زوراً وشكلاً، فطردهم منها، وأخرج سكانها من حمى مدينتهم، وقام بإحراقها، لاجتثاث الشر والتعدي من جذوره..

كذلك فعل بكل مدينة معادية كانت بؤرة لتجمع عدواني، تماماً كما فعل الرسول ﷺ مع اليهود، الذين أثاروا القلاقل والفتن، وحاولوا إشعال نار الحرب، فشردهم وذراريهم وهدم حصونهم، كي ينقطع أملهم في العودة إلى تلك الديار، وبناء أمجادهم العدوانية فيها، والعجيب:

أن القوات المملوكية التي اشتركت في الدفاع عن **(ساراي)** عاصمة الهوردة الذهبية بقيادة «**طولو**» الذي فرَّ بعد سقوط العاصمة، ذكر عند عودته إلى القاهرة أن فشل توكتاميش في الدفاع عن عاصمته، والتحاق قسم كبير من قواته المسلمين، إلى السلطان تيمور أثناء القتال، سبَّبا هزيمته.

ويصف لنا الشاعر أهل تلك البلاد فيقول:

قد كنت أسمع أن الخير يوجد في ... صحراء تُعزى إلى سلطانها بركة[1]

بركـــت ناقة ترحالـــي بجنانبها ... فمـــا رأيت في واحـــد بركـــة

بذا يتبيَّن مدى انحطاط المسلمين في ذلك العهد، بمناصرة الكافر الملحد، ضد المؤمن الصادق المخلص، الأمر الذي كاد أن يودي بالمسلمين إلى الهاوية والانحلال، كما أودى بمسلمي الأندلس وهزيمتهم وتنصُّرهم، فغدوا كفاراً بعد أن خلقهم الله مسلمين. وهؤلاء غدوا لقمة سائغة سهلة للأوربيين، لولا أن تداركهم الله بتأديب وإصلاحات السلطان تيمور بيك ونصرة المؤمنين العثمانيين.

* * *

[1] **السلطان بركة**: ممن أسلم وحسن إسلامه في تلك الربوع، وكان له أيادي بيضاء بمناصرة السلطان الظاهر بيبرس قبل قرن ونيف، ولكن ابتعد من بعده عن الإسلام حتى وصل بهم الأمر إلى ذلك، وكفى لذلك مثلاً ردة العرب عن الإسلام بعد انتقال الرسول ﷺ.

ثمار تخريب المدن المحصَّنة

أخذ توكتاميش يسعى لإعادة بناء دولته من جديد بعد عودته إلى خرائب (**ساراي**)، ولكن جهوده لم تثمر، وأخذت تهوي نحو الاضمحلال.

أخذت الحروب تقع بينه وبين منافسيه من أفراد البيت المالك، من أحفاد «**جوشي بن جنكيز خان**»، وبين الحكام الذين أقامهم السلطان تيمور، قبل انسحاب قواته من تلك البلاد.

وشجعت هذه الحالة الأمراء الروس المحكومين من قبل الهوردات، على التحرك ضدَّ توكتاميش الذي فقد هيبته إثر هزائمه أمام السلطان تيمور، ونبذوا الطاعة، حيث اتحدوا تحت إمرة «**فيتورسك**».

وجاءهم توكتاميش لاجئاً من «**قتلغ تيمور**»، الخان الذي عيَّنه السلطان تيمور..

وقد ساعدوه ولكن مُني بهزائم متتالية من قبل «**قتلغ**»، وعاش بعدها حياة التشرد ليلقى حتفه في (**تومين**) إحدى مدن (**سيبيريا**) /١٤٠٦/ م[1]، حيث كان يلجأ فارّاً من «**شاوي بيك**»، شقيق «**قتلغ تيمور**» وخليفته.

ويصف لنا ابن عربشاه قتلغ تيمور «**إيدكو**» الذي كان يقفو أثر السلطان تيمور بيك، بأن قتلغ تيمور:

كان جواداً حسن الابتسامة، ذا رأي مصيب وشهامة، محباً للعلماء والفضلاء، مقرّباً للصلحاء والفقراء، يداعبهم بألطف عبارة وأظرف إشارة، وكان صوَّاماً، وبالليل قواماً، متعلقاً بأذيال الشريعة، قد جعل الكتاب والسنة وأقوال العلماء بينه وبين الله ذريعة، له نحو من عشرين ولداً، كلٌّ منهم مطاع، وله ولايات على حدة وجنود وأتباع.

وكان في جماعات الدشت إماماً، نحواً من عشرين عاماً، وأيامه في جبين الدهر غرَّة، وليالي دولته على وجه العصر طرَّة.

---

[1] وقد ورد في (الأنباء) ج١ أن توكتاميش قتله الأمير «**قطلوا**» أحد أمراء التتر سنة /٧٩٨هـ ١٣٩٥م/، وجاء في (الضوء اللامع) من أنه لا يزال حيّاً إلى ما بعد سنة /٨١٤هـ/، وفيه تفصيل زائد. وفي كتاب (تلفيق الأخبار) ورد حادث قتله/٧٩٩هـ/.

أصبح السلطان تيمور سيداً على القوقاز وشطر من فارس والمناطق الشمالية بآسيا، بما فيها بحر قزوين وآرال والهند وغيرها كما سنأتي على ذكرها.

ولقي ابنه «**عمر شيخ**» الشهادة بسهم أصابه في (**القوقاز**)، وأمر بنقل جثمانه إلى سمرقند.

ولزم السلطان تيمور الصمت والعزلة عن الناس، ورفض أن يستقبل أحداً من الأمراء والقادة أو رجال الدواوين للتعزية بولده، وذلك عين الكمال، ولكن غفل عنه الناس، وكان يقضي أوقاته وحيداً لا مؤنس له سوى التفكير العميق الطويل الأمد، وقراءة القرآن.

* * *

بلاد فارس وعراق العجم[1]

لما صفت للسلطان تيمور (بلاد خراسان)، وأذعن لطاعته أهلها القاصي منهم والداني، أطلق بصره إلى الجنوب حيث تقوم بلاد فارس، ولم تكن الحالة فيها تبعث على الرضى، فقد كان ملوكها وأمراؤها لا يفكرون بغير مصالحهم الشخصية، والانصراف إلى ألوان المرح والعبث واللهو والفساد، يتركون البلاد وشأنها، ولا يعملون على تحسين حالة الأمن والاستقرار.

ومما كان سبباً في انهيار الحالة الروحية، ووقوع الخصومات والثورات بين الأمراء في سبيل العرش، غنى البلاد وثراؤها. كانت الأوضاع المضطربة، والنكسة التي أصابت تلك البلاد، سبباً قوياً للسلطان تيمور كي يأخذ بأيدي المظلومين والمسحوقين من المسلمين في تلك الربوع كعادته دائماً، قبل أن تكون غنيمة دسمة سهلة الاقتناص لكفرة المغول الصابئة. فقد كان الشاه ضعيفاً، والأمراء يتنازعون السلطان.

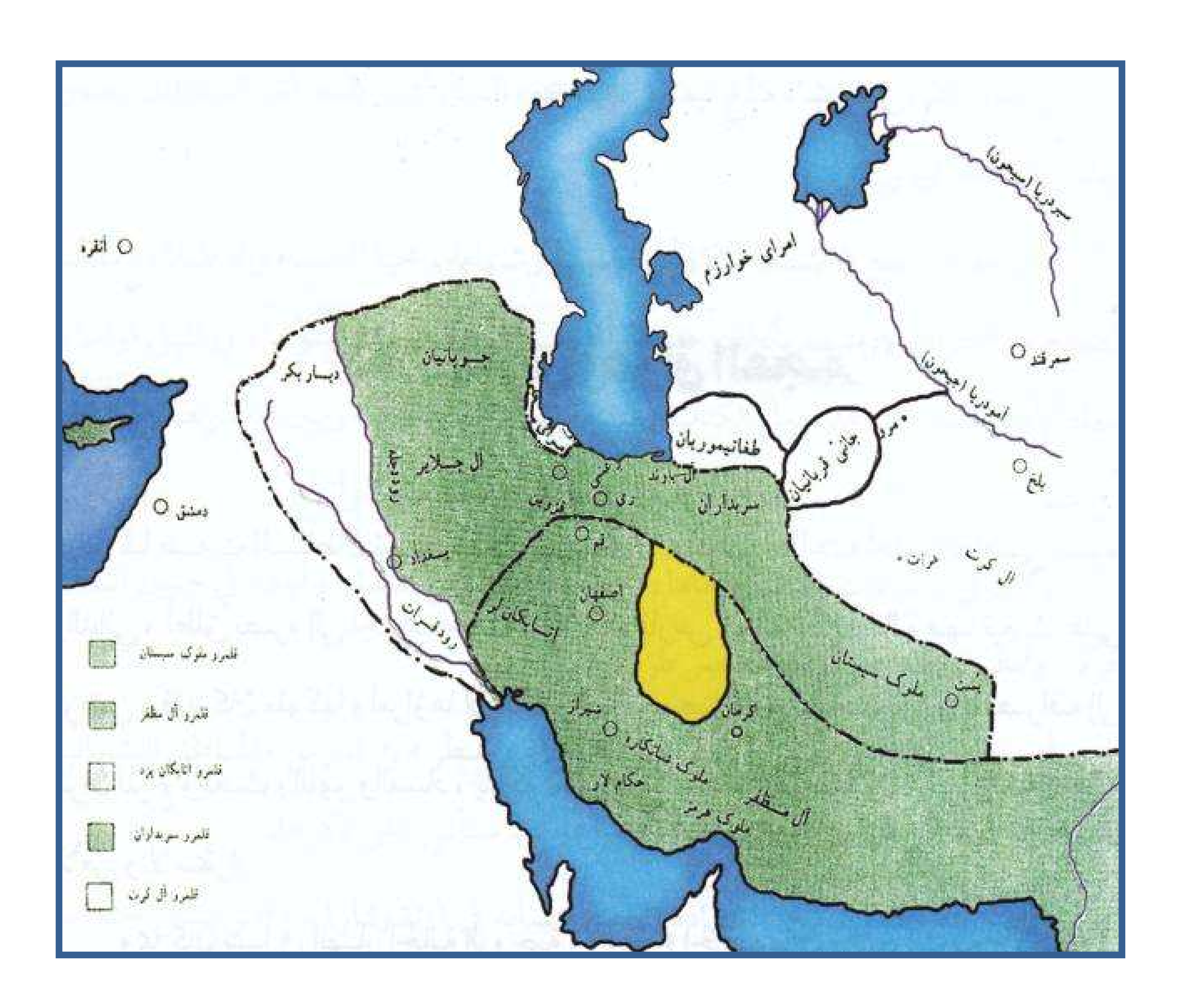
وكان كرسي الحكم يغري أصحاب النفوذ، فينقلب الأمير على الشاه، أو يصرع الأخ أخاه، ثم يقول:

(**لقد حققنا قسمة عادلة، لي ما فوق الأرض، وله ما تحت الأرض**).

أو يقول: (**لقد اقتسمنا العالم، هو تحت الأرض وأنا فوقها**).

استغلَّ حكام فارس بلادهم الغنية أسوأ استغلال، وانصرفوا إلى أهوائهم ومصالحهم الشخصية، وكأن الإسلام أو الإيمان لم يدخل لقلوبهم، دون تقدير لصالح المسلمين العام. وتضعضع الشمل، وانقسمت البلاد إلى فرق وجماعات، وساءت الحالة ودبَّت الفوضى السياسية والعسكرية، كما انهارت القيم الإسلامية في الحياة الدينية، فقد قامت جماعات من الشيوخ مقلِّدة العلماء والمتصوفين المبتدعين، للتشاحن والتخاصم لا يفترون، وكذلك انصرف أصحاب الثروات إلى اللهو والشراب، واستماع الغناء والشعر، لا يعبؤون بفقير ولا مسكين، وكان الشاه ذاته مولعاً بلعب النرد والشراب.

[1] **عراق العجم**: هي بلاد الجبل.



سلاطين آل المظفر

نبذة من أثر أولئك

سنة ٧٧٢هـ/١٣٧١م:

قام الأمير «**ولي**» حاكم (**مازندران**)، بحشد جيش كبير زحف به إلى الري، فتوجه السلطان «**أويس**» من (**أذربيجان**) لمقاتلته، ولكن طلائع السلطان «**أويس**» اشتبكت معه في القتال بالري، فلحقتها الهزيمة، ولما بلغ السلطان الميدان بحشوده الكبيرة من الجنود في الوقت المناسب، لم يبقَ مجال للأمير «**ولي**» للمقاومة، فلاذ بالفرار، وقتل من جنوده خلق كثير، وأسر آخرون، وأخذ السلطان يطارده حتى (**سمنان**)، حيث أشار عليه الأمراء والقادة بالعودة ففعل.

سنة٧٧٣هـ /١٣٧٢م:

جرد السلطان «**أويس**» جيشاً جراراً، وزحف به من (**تبريز**) إلى (**أوجان**) بقصد ضرب الأمير «**ولي**»، والاستيلاء على بلاده. وفي أثناء هذه الأحوال كتب «**الشاه شجاع**» خطاباً إلى الأمير «**ولي**» يحرِّضه على الإنقضاض على السلطان.

سنة٧٧٤ هـ/١٣٧٢م:

وفيها جاء الأمير «**ولي**» بجيش جرار من (**مازندران**) إلى بلاد (**الري**)، ومنها توجه إلى (**ساوه**)، فأرسل إليه واليها «**مبارك شاه**» ومعه سائر الأعيان وجمع من الناس من سائر الطبقات يقول:

(لماذا تجشمتم مشاق الحضور إلى هنا، فإن هذه المدينة ملك السلطان «أويس» صاحب الجيش الكبير الجرار، فخيرٌ للأمير «ولي» أن يتجاوز عنّا هذا الشتاء، وأن يريح جيشه أيضاً من تكبد المشقة).

فأجاب الأمير «**ولي**» بقوله:

(إني أطلب منكم أموال عدة سنين، فليخرج زعماؤكم حتى نحاسبهم عليها، ثم نعود من حيث أتينا).

ولكن أهل **(ساوه)** لم يقبلوا هذا العرض، واستعدوا للحرب والقتال، واضطر الأمير «**ولي**» لمقاتلتهم بشدة، فاستولى على بلدهم عنوة خلال أسبوعين.

سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٤م:

خرج السلطان «**أويس**» إلى **(عمارة الرشيدي)** لقتال الأمير «**ولي**». وهنالك انتابه مرض شديد فهرع أركان الدولة برفقة القاضي «**الشيخ علي**» والخواجه «**الشيخ كحجاني**» إلى مقر السلطان وجلسوا بجانب فراشه يطلبون إليه أن يوصي بالملك، فقال السلطان إن السلطنة «**لحسين**»، وحكومة بغداد «**للشيخ حسن**» وقال الحاضرون إن «**حسن**» هو الأخ الأكبر فلا يتحمل هذا.

قسوة القلوب شرّ العيوب لابدَّ من التأديب والإصلاح

فرد عليهم السلطان بقوله أنتم تعرفون ما ينبغي، وحمل هذا القول من السلطان على أنه إجازة لهم بالتصرف فبادروا إلى وضع **(الشيخ حسن)** في الحديد ثم أذاقوه كأس الموت من تلك السنة التي توفي فيها السلطان.

هذا وكانت وفاة الشاه «**محمود**» بن الأمير «**مبارز الدين محمد**» في هذه السنة فلما وصل نبأ ذلك إلى مسامع الشاه «**شجاع**» أنشد يقول:

(كان أخي محمود الملك وأسد الكمين ينازعني خاتم الملك فجعلناه حصتين حتى يستريح الخلق، فهو أخذ بطن الأرض وأنا وجهها).

ثم بادر إلى السفر إلى **(أصبهان)** واستولى على بلاد **(العراق)** كلها.

سنة ٧٧٧هـ/١٣٧٥م:

توجه الشاه «**شجاع**» إلى **(أذربيجان)** بقصد مقاتلة السلطان «**حسين**» بن الملك «**أويس**». وحدث أن تلاقى الطرفان في أطراف **(همذان)** ودار بينهما قتال مرير أسفر عن انكسار السلطان «**حسين**» فلاذ بالفرار، وبعد أن أمضى الشاه «**شجاع**» أربعة شهور في **(تبريز)** في طرب وصفاء، جاءه الخبر بأن ابنه الشاه «**يحيى**» في **(شيراز)** قد رفع علم الثورة عالياً فبادر بالتوجه نحو **(شيراز قصبة)** ولاية فارس.

وفي هذه السنة نهض الأمير تيمور نحو (**خوارزم**) للاستيلاء عليها غير أن عدم الاتفاق بين الأمراء والقادة غيّر فكرة الهجوم العام من قبلهم إلى هجمات متفرقة كالعصابات وقطاع الطرق لذا لم يتم السيطرة عليها إلا في المرة الرابعة.

سنة ٧٨١هـ/١٣٧٩م:

وفي هذه السنة توجه الشاه «**شجاع**» من (**فارس**) إلى (**السلطانية**) وقصد (**سار وعادل**) أحد أمراء السلطان (**حسين**)، وكان قد رفع راية العصيان والتمرد بها عالية، فكسره شر كسرة، حتى ألجأه إلى الاعتصام بقلعة السلطانية.

وأخيراً اضطر إلى التسليم وتقديم الطاعة إلى الشاه «**شجاع**»، فشمله بعفوه وعطفه ثم عاد إلى (**فارس**) منصوراً.

سنة ٧٨٤ هـ /١٣٨٢م:

وفي هذه السنة أيضاً خرج السلطان «**أحمد**» بن السلطان «**أويس**»، الذي كان قد أقطعت له (**أردبيل**)، على أخيه السلطان «**حسين**» وقتله في (**تبريز**) وحل محله في السلطنة هنالك، ثم توجه «**شاه شجاع**» نحو (**ذرفول وشوشتر**)، وقد سمل عيني نجله «**سلطان شبلي**».

سنة ٧٨٦هـ/١٣٨٤م:

هذه السنة ارتحل «**الشاه شجاع**» وقد خلفه نجلاه «**الشاه يحيى**» في (**أصبهان**) والسلطان «**أحمد**» في (**كرمان**). فكان العداء قائماً بين الأخوين دائماً.

هكذا كان حال المسلمين وتفرقهم، يزهقون دماء بعضهم من أجل الدنيا الدنية بأفعال دنيّة، لذا كان على السلطان تيمور أن يفرض حملات التأديب والإصلاح قبل انهيار الإسلام الكلي، في كافة ديار المسلمين.

* * *

بداية وإصلاح

السلطان تيمور كان دائم اليقظة متوقّد الذهن، يدير أموره جميعاً على محور المسالمة والدبلوماسية، ومن ثم القوة إن لم يُجدِ القول، فالسيف أولى للتأديب.

وقد ظل دهراً طويلاً لا يفكر في غزو دولة المسلمين احتراماً للناحية الدينية، ولكنه لا يرضى أن يبقى الوضع على ما هو عليه من تدهور وانحطاط، حتى يعودوا بعد إسلامهم كفاراً، أو يغزوهم الكفار في عقر ديار الإسلام.

ولما جرى خلاف بين «**شاه شجاع**» وأبيه، الذي قبض على أبيه، وسمل عينيه، واستغل مُلك (**شيراز وعراق العجم**)، وعندما صفت بلاد (**خراسان**) للسلطان تيمور بيك، توجه تلقاء تلك البؤرة المضطربة. فراسل شاه شجاع سلطان شيراز وعراق العجم يطلب منه الطاعة والانقياد، بعد ما شاهد من الفوضى والفساد.

وأرهبه بالخطاب وأرعده فقال:

(**إن الله تعالى سلَّطني عليكم وعلى الظلَمة من الحكام، والجائرين من ملوك الأنام. ورفعني على من باراني، ونصرني على من خالفني وعاداني. وقد رأيتَ وسمعتَ بانتصاراتي، فإن أحببت وأطعت، فبطاعتك نجوت ونعمت.**

وإلا فاعلم فإن في قدومي ثلاثة أشياء، الخراب، والقحط، والوباء، وإثم كل ذلك عَائد عليك، ومنسوب إليك).

فلم يسع شاه شجاع إلا مهادنته ومهاداته ومصاهرته، حيث اقترح السلطان تيمور برسالة إلى شاه شجاع أن يتزوج حفيده «**بير محمد بن عمر شيخ**» بابنة شاه شجاع، لتأكيد المودَّة بين الطرفين.

وتم هذا الزواج في (**بلخ**) عند قدوم السلطان تيمور إلى (**خراسان**).

وظلَّت رياض المحبة زاهرة، وعلاقات المودة عامرة.

واستمروا على ذلك الحال إلى أن توفي شاه شجاع. الذي وجد قبيل وفاته أن من مصلحته رضى السلطان تيمور، والإقرار له بالتبعية، فوضع ابنه «**زين الدين**» تحت وصاية السلطان تيمور.

وقد أشار إلى ذلك في وصيته التي أرسل يبلغ السلطان تيمور بنصها، ليُسند بذلك وصيته إليه بنصٍّ مكتوب.

بعد التحيات الرقيقة والألقاب المختلفة التي ابتدأت بها الرسالة تضمَّنت ما يلي:

(...وإن الرجال الحكماء يعرفون جميعاً مظاهر الدنيا وتقلُّباتها، وإن جميع الأشياء في هذه الدنيا ماضية إلى زوال: ‹الحكمة والمتعة واللذة والجمال والحياة›.

وهكذا فإن البشر أيضاً ماضون إلى زوال، وها هي ساعتي قد حانت، وأيام حياتي أصبحت معدودة، بيد أنني سوف أذهب من هذه الدنيا وأنا راضي النفس، لأنني قد صنت عهدي معك، ولسوف أحمل معي خاتمك، لأظهره أمام الرب، كي يكون دليلاً على نزاهتي وإخلاصي وثباتي، ولقد نبذت من قلبي غوايات هذه الدنيا وأباطيلها، وإنني ذاهب إلى الله وأنا نقي القلب، طاهر الذيل... وإن أقصى مناي أن تكون هذه المعاهدة بيدي يوم القيامة كي لا تقف أمامي قائلاً: «إنك قد خنت العهد وحنثت بالوعد».

وبما أنني سأكون قريباً بين يدي الله عز وجل، فإني مطمئن إلى أني لم أقم بعمل أخجل منه، إلاَّ هذا العبث الذي انصرفت إليه في حياتي.

إنني أتوسل إليك يا سيدي السلطان تيمور، أيها الملك المبجَّل، وأنت الحكيم مثل سليمان النبي، أن تصون عهدي، وتبسط حمايتك على ابني «زين العابدين»، الذي سيجلس على العرش من بعدي... وإني أتوسل إليك وإلى الله العظيم أن تكلآه دائماً بعنايتكما وعطفكما... إني أموت مطمئناً وأنا أسأل الله أن يؤازركم ويؤيدكم، وكل رجائي أن تعطفوا على ولدي زين العابدين، وأن تصلُّوا عن روحي، وليغفر الله ذنوبي).

أجاب السلطان تيمور الرسل بالبقاء على العهد وصونه، وتلبية طلب شاه شجاع ورغبته.

* * *

بعد وفاة الشاه شجاع

(١٣٨٤م)

قامت الخلافات بين أفراد الدولة المظفَّرية عقب وفاة «**الشاه شجاع**»، وعلى أثر محاولات «**شاه منصور**» وسعيه لضم كافة ممتلكات الأسرة إلى بعضها تحت سيطرته، زادت الحالة سوءاً، وكثر الطامعون في العرش، وانتهى كل أمير على بلد يرفع عليها رايته، فاستقلَّ أحدهم (**بأصبهان**)، والثاني (**بشيراز**)... وثالث على (**بارس**)، والباقون على البلاد الباقية، وراحوا يضربون باسمهم الدراهم ويضعون الضرائب، ويختصمون دائماً وأبداً، وكادوا أن يتفرَّقوا شذر مذر، فلا ديناً يقوِّمهم، ولا خلقاً حميداً يجمعهم، بل لا بدَّ حتماً من التأديب.

وهكذا كلٌّ يدَّعي الحوْل والطوْل والاستقلال؛ كانت الحالة سيئة، كما كانت حالة التتر قبل تسلّم السلطان تيمور الحكم على بلاد التتر.

وكان رسل السلطان تيمور يرقبون مجرى الأمور، فلما بلغته أنباء التطاحن، وأخبار الفرقة وإهراق الدماء، قرَّر أن يهبط على بلاد فارس غزْواً بغير قتال، فنزل على رأس سبعين فرقة من جنده سنة /١٣٨٦م/، ويكفي هذا العدد من الجند لزرع الرهبة بملوك فارس كلها لو كانوا مجتمعين، وبغية حقن دماء المسلمين.

ومن (**جيلان**) أرسل السلطان تيمور رسولاً إلى «**زين العابدين**» يخبره بتحرك موكبه إليه بقصد الزيارة.. ويذكره بالعهد بالتحالف والصداقة التي كانت قائمة بينه وبين والده، وأنه من الضروري تجديد هذا التحالف، ولذلك فسوف يُقبل موكب السلطان تيمور على ممالك المظفَّريين، ليظهر للناس مقدار ما يكنُّه من عواطف لزين العابدين. وللغرابة والحماقة أن زين العابدين اعتقل موفد السلطان تيمور.

يا أمماً ضحكت من جهلها الأمـم

* * *

غوغاء أم خطة

اقترب السلطان تيمور من (**أصبهان**) بفرقه السبعين، دون أن يكون لديه ميل إلى الحرب بالطعن والضرب، رغم غضبه على (**آل المظفر**) لصنيعهم مع سفيره دون مبرر. وكان منذ سنين يتحرى أحوالهم ويتابع خلافاتهم، وقرر أن ينحدر من مرتفعاته، ليضع حلاً للأمور عن كثب، بعد ما رأى استفحال الشر فيها.

وما كاد السلطان تيمور يصل ويحط رحاله خارج مدينة (**أصبهان**)[1]، حتى خرج كبارها إليه، يسلِّمون عليه، ويعرضون طاعتهم وخضوعهم، فقبل السلطان تيمور منهم ذلك، واستقبلهم بترحاب وأجلسهم على بساطه، وأنعم عليهم بالهدايا، وجرى البحث في مصير أصبهان، فقال السلطان تيمور:

(**لن تُمس أرواح السكان، ولن تتعرض المدينة إلى الأذى**...).

فالمظفريون كانوا مسلِّمين بأن جيشاً بمثل هذا الحجم لا يُقاوم.

وفي اليوم التالي دخل السلطان تيمور أصبهان بموكب رسمي واحتفال عظيم، وتطوَّف على جواده في جادَّاتها الرئيسية، وعاد بعدئذ إلى معسكره خارج القلعة، مخلِّفاً وراءه مفارز على أبواب المدينة.

وكل شيء جرى بأمن ونظام طيلة ذلك النهار، وجاء الليل. وانتشر جنود تتريون مسلمون في المدينة وهم عزَّل من السلاح، آمنين مطمئنين، فكأنهم بين أهلهم وذويهم، ليس في حسابهم غدرات الزمان وأهله، عندها حدثت فتنة هوجاء، وهي أن سكان أصبهان تنادوا وصاحوا:

(**يا لغيرة الإسلام**)، حيث كان الفرس يكرهون التتار كرهاً عظيماً، وينظرون إليهم أنهم تابعون للصابئة، مع أن السلطان تيمور هو الذي هزم الصابئة من المغول ودمّر شملهم.

وثارت الخواطر وخرج الناس من بيوتهم كالرعاع، واشتبكوا مع الجند فقتلوا منهم عدداً كبيراً، وانطلقوا في أحياء المدينة وتصيدوا الجنود وقتلوهم عن آخرهم، غدراً وخيانة لعهدهم. ثم أقفلوا مدينتهم واعتصموا بها.

[1] ومدينة أصبهان كما ذكر «ابن بطوطة» أنها من كبار المدن وحسانها، إلاَّ أنها الآن "أي في زمن الرحالة" قد خرب أكثرها بسبب الفتنة التي بين أهل السنة والشيعة، وهي مع الأسى متصلة بينهم حتى الآن، فلا يزالون في قتال.

ولا ريب أنها مكيدة دبِّرت بإشراف «**الشاه منصور**» أمير المدينة، الذي لجأ إلى معقله الجبلي في (**خوزستان**).

ويذكر «**ابن عربشاه**»:

(**أن أهالي أصبهان ‹اتَّفقوا مع رئيسهم على الغدر›، إذ أمرهم:**

إذا أقبل المساء فإني أضرب الطبل، فإذا سمعتموه قد دُق، فالقول قد حق، فليقبض كلٌّ منكم على نزيله وليحتكم فيه بسمين رأيه وهزيله).

وعندما علم السلطان تيمور بما حدث انتابه غضب شديد عنيف، وأصبح لا بدَّ من التأديب، فمن قتل نفساً بغير حق لا بدَّ أن يقتل، ولا بدَّ من اقتحام المدينة وقتل القتلة.

أمر بالزحف نحو الأسوار للحال واقتحمها. ولم تُمسَّ بسوء تلك النواحي والمحلات من المدينة التي لم تشترك في أعمال الشغب والإخلال بالأمن والقتل والذبح، وتمَّ الحفاظ على أرواح الفقهاء والسادة الأشراف.

أما في الأماكن التي اغتيل فيها جند السلطان تيمور، فقد طورد القتلة في كل مكان، كذلك الذين استفادوا من ظلام الليل وهربوا إلى خارج الأسوار، جرت مطاردتهم في الصباح خلال الثلوج ليلقوا حتفهم.

عمد السلطان تيمور إلى رؤوس القتلة ووزَّعها على الشوارع الرئيسية، تربيةً لكل من تسوِّل له نفسه القيام بقتل المسلمين.

وقد أخاف هذا العمل أمراء عائلة المظفَّر، فاستكانوا واستسلموا، باستثناء «**الشاه منصور**» الذي خرج لاجئاً إلى الجبال، «**وزين العابدين**» الذي فرَّ لاجئاً لعدوه الشاه منصور من (**شيراز**) لجهله، وفارّاً من حاميه السلطان تيمور، ولكن الشاه منصور قام باعتقاله وتصفيده بالقيود.

وسار السلطان تيمور إلى المدن الفارسية الأخرى، وكانت أخبار فاجعة (**أصبهان**) قد سبقته إليها، فاستسلمت إليه كلها، دون مقاومة أو اعتراض، ،وأقام عليها حكاماً من أمرائها، وأعطى لكل أمير من آل المظفر شيئاً من السلطة بموجب وثيقة موقعة بالدمغة، وصاروا حكاماً عنده وهو سيدهم المطاع.

وعهد بحكومة (**شيراز**) إليهم، واصطحب معه العلاَّمة الأمير «**السيد الشريف**» مع أسرته وحشمه إلى سمرقند.

وكان الإيرانيون في هذا العهد مرهقين بالضرائب الباهظة التي فرضها عليهم حكامهم السابقون، فأمر السلطان تيمور بتخفيفها إلى أقصى حدٍّ مستطاع، وأصلح من نظام ذلك. وصار الخطباء يخطبون باسم السلطان تيمور في المساجد، وخضعت بلاد فارس لحكمه العادل. وعاد السلطان تيمور مسرعاً لبلاد ما وراء النهر /١٣٨٧م/، عند سماعه باجتياح الهوردة الذهبية السابق لها.

* * *

أعمال الشاه منصور ونهايته

غادر السلطان تيمور إيران مسرعاً، لدرء اجتياح الهوردة الذهبية لبلاد ما وراء النهر /١٣٨٧م/. وانطلقت الإشاعات الكاذبة حول انهزامه أمام المغيرين الذهبيين، مما دفع حكام إيران ولاسيما «**شاه منصور المظفري**» للتنكر على حكومة السلطان تيمور، وخرج من معقله الجبلي في (**خوزستان**)، وبسط نفوذه وفرض سلطته على الأمراء المظفريين الآخرين.

وكان قد اعتقل ابن عمه «**زين العابدين**»، الوريث الشرعي لملك المظفَّريين في إحدى القلاع القريبة من (**تستر**)، ولكن زين العابدين تمكن من الفرار من سجنه،وحاول الانتقام من ابن عمه شاه منصور، ودارت بينهما معركة دامية في سبيل العرش وكرسي المُلك. وهزم زين العابدين للمرة الثانية، وقام شاه منصور بسمْل عينيه وأعاده للسجن، واستقر الحكم لشاه منصور، الذي اتَّخذ من (**شيراز**) عاصمة له مدة أربع سنوات إلى أن ظهرت القوات التيمورية /١٣٩٢م/.

لم يستقر الأمن والسلام في حدود الإمبراطورية التيمورية بعد، ولم تكن مهمة السلطان تيمور من أجل لَمِّ شمل المسلمين بالأمر السهل، ولكنه كان مولعاً بالصعب وفتح المستغلق من الأمور.

فاعتاد المشقة وضحى براحته، في سبيل حفظ دماء المسلمين، وإحلال الأمن والسلام، ببتر مثيري الفتن بين المسلمين قدر الإمكان، فلا تكاد ثورة تنشب هنا أو هناك حتى يطير إليها ويخمدها بأيسر الحلول وأحسنها، وسرعان ما يطفئها.

وها هو الشاه منصور وقد استجاب لداعي هوى نفسه، وشق الطاعة على السلطان تيمور رافعاً علم الثورة في فارس، وبدأ بالإجرام بأقاربه للاستئثار بالحكم والملك.

تحرك السلطان تيمور تحرُّك الإعصار إلى البلاد الثائرة ليأخذ بزمام ملكها، ويخلِّص زين العابدين من السجن ويعيده للعرش، رغم خطئه السابق كونه الوصي الشرعي عليه، ويضع حداً للشاه منصور، فقصد (**عراق العجم**) في جمع عظيم، فملك (**أصبهان وكرمان وشيراز**).

سقطت قلعة (**سفيد**) الحصينة بيد القوات التيمورية حيث كان زين العابدين.

ومن ثم بث السلطان تيمور جنوده في كافة الاتجاهات بحثاً عن قوات شاه منصور، وهو في طريقه لحصار شيراز وعلى مقربة من مدينة (**باغستان**) جوار شيراز، وقع الاصطدام الأول بين قوات السلطان تيمور، وقوات شاه منصور.

وعندما برزت القوات للقتال، انسحب أمير خراساني يبطن الودَّ للسلطان تيمور وجلُّ عسكره كان معه، فبقي شاه منصور في عددٍ أقل من جنود فارس، وكانت تلك بناء على خطة متَّفق عليها مع السلطان تيمور، لما فيها من حفظ للدماء وتثبيطٍ لهمم جند الخصم.

ولكن الشاه منصور قاتل بمن بقي معه طيلة يومه. ويظهر أن السلطان تيمور عمد بخطته المطاولة في تلك الواقعة، للحفاظ على من مع الشاه منصور دون قتلهم، إذ أن جيشه المؤلف من سبعة فرق أي سبعين ألفاً يستطيع سحقه في أقل من ساعة.

ولما كان الليل انهزم جند الشاه منصور... ولكنه قام بغارة ليليِّة فاشلة على السلطان تيمور بمن معه.

ويذكر «**ابن عربشاه**»:

(أن الشاه منصور دخل بين النساء واختفى بينهن، وتغطى بكساء ثم طردنه، وقاتل حتى أنهكته الحرب وكلَّت يداه، ومن ثم اندسَّ بين القتلى والجرحى مختبئاً)[1].

افتقد السلطان تيمور الشاه منصور، ولم يقف على حاله، فأمر بتفتيش الجرحى والتنقيب عنه بين القتلى:

‹**عثر أحد الجند عليه وبه أدنى رمق، ونادى: الأمان الأمان، أنا شاه منصور فاكتم أمري، وخذ هذه الجواهر، وخافِت في قضيتي ولا تجاهر بها، ولا رأيتك ولا رأيتني**›. ولكن العسكري وثب على شاه منصور وقطع رأسه، وأتى به إلى السلطان تيمور.

فهو لا يبغي جواهر ولا خيانة للسلطان تيمور بيك بل رضاه.

---

[1] لولا سقم الألفاظ المترادفة المبهمة وصعوبة فهمها لتم نقل النص من كتاب "عجائب المقدور في نوائب تيمور" الصفحة /٩٣-٩٥/. ويبدأ بسرد القصة عن هزيمة السلطان تيمور بيك أمام شاه منصور، واختبائه بين النساء، ثم يناقض نفسه بنفس القصة دون شيء من الخجل أو الوعي.

ثم ضرب السلطان تيمور الحصار على شيراز، فسارع أهلها إلى الاستسلام بعد مقتل الشاه منصور، ونزلوا عند شروط السلطان تيمور، وصودرت مخلَّفات شاه منصور، وسارع الحكام المظفريون الأُخر، إلى تقديم فروض الطاعة.

راسل السلطان تيمور من داناه من أقارب شاه «**شجاع**» واستمال خواطرهم، وأعطى الأمان للحاضر والغائب ممن قاتل في صفوف شاه منصور. وضبط أحوال مدينة شيراز، وأقرَّ فيها خيلها ورجالها.

جاءه شاه «**يحيى**» من (**يزْد**)، والسلطان «**أحمد**» من (**كرَمان**)، خاضعيْن طائعين.

وعصى السلطان «**أبو إسحاق**» في (**سيرجان**)[1]، فأنعم بالهدايا على من أطاع وانقاد، ولم يتعرض لمن أظهر العناد، ولم يشق العصا بينه وبين مخالفيه، بل أكرم من أطاعه، ليرغب في طاعته مَن عصاه دون قتال.

وألغى الرسوم والضرائب الجائرة التي فرضها آل المظفر على الرعية خلال حكمهم، عندما رفع كل أمير منهم لواء الاستقلال في ناحية معيَّنة من بلاد فارس...

وأحسن إلى «**زين العابدين**» الذي هو وصية أبيه رغم إساءاته السابقة، وجعل له راتباً يكفيه وذويه، وكذلك عامل سائر البلاد بالأمان.

* * *

[1] **سيرجان**: مدينة بين كرمان وفارس، وتقع حالياً في إيران.

نهــاية المظفريين

الذين هم لحسنهم مسيؤون

قام السلطان تيمور بتمهيد البلاد وتوطيد قواعد ممالك (**تركستان**)، إلى بلاد (**خراسان**)، فاستقبله الملوك والأمراء والسلاطين والوزراء، وسارعوا إليه من كل جانب، يلبون دعوته بين رغبة ورهبة، وسلَّموه أمورهم، وربطوا نواصيها بأمره، واجتمع عليه من كان طائعاً، ومن كان في الجبال ممتنعاً.

ومن ثم توافدت شكاوي العلماء والأهالي من أعمال آل المظفر... فقام السلطان تيمور بعقد اجتماع لكافة ملوك (**عراق العجم**)، فاجتمع سبعة عشر نفراً، ما بين سلطان وابن سلطان، وابن أخي سلطان، كلهم في ممالكه ملك مطاع.

مثل السلطان «**أحمد**» أخي «**الشاه شجاع**»، وشاه «**يحيى**» ابن أخي «**شاه شجاع**»، ولما كانوا عنده في الخيمة وهو بينهم وحده، ثم خرج لبعض الأمر، أشار «**الشاه يحيى**» وقد اغتنم فرصة خروجه أن قد أمكنت الفرصة من قتل السلطان تيمور، ونهاية تلك الغصَّة عليهم..

تردد الملوك عند التنفيذ، فأجابه بعضٌ وامتنع بعض، ولما رأى «**الشاه يحيى**» ترددهم خاطبهم مهدِّداً:

(**إن لم تمتنعوا عن الكلام في هذا المجال، فسأخبره باتفاقنا وأُطلعه على الحالة**)، فامتنعوا وأجمعوا العدول عن هذا الرأي لاختلافهم، ولا يزالون مختلفين.

وكما يقول «**ابن عربشاه**»:

(**وكأنه طالع أحوالهم أو تفرَّس أقوالهم، فأسرها في نفسه ولم يبدها لهم**).

ثم يناقض نفسه أيضاً بقوله:

(**والله أعلم بعدم مصداقية هذا القول الثاني واختراعه:**

أن «اسكندر الجلابي» كان في مجلس فيه السلطان تيمور، وقد سأله السلطان تيمور: إن حَكَمَ القضاء بوفاتي، من تراه يتعرَّض لأولادي؟. فأجابه «الإسكندر»:

أول من ينازع أولادك المشائيم «أنا وأرشيوند وإبراهيم»، فإن نجا منهم من مخاليبي أحد فإنه لا يخلص من أنياب «إبراهيم الأسد»، وإن أفلت منهم أحد فإنه لا مخرج له من شرك «أرشيوند». فلم يتعرض السلطان تيمور لإسكندر بضرر وشين).

لا شك بأن صيغة هذا القول باطلة لا وجود لها. ولكن معناها صحيح، فهؤلاء الأمراء الوارد ذكرهم هكذا يفعلون لو توفي السلطان تيمور، أمَّا أن يلفظ «**اسكندر الجلابي**» هذا القول، ويجهر به ويفصح عن نواياه الشريرة تجاه أولاد السلطان المهيب الرهيب بوجه السلطان المهيب تيمور، فهذا القول لا يقبله إلاَّ الأطفال، لذا سبق عربشاه هذا القول بكلمة:

(**والله أعلم بمصداقية هذا القول واختراعه**) كما مرَّ.

لا يجرؤ إنسان بين يدي سلطان عظيم مهاب كالسلطان تيمور على هذا القول وفيه ذرة عقل، ولو فعلها مجنون فإنه كمن جلب أجله بيده، معنى القول قد يكون حقاً، أما لفظه بهذه الوقاحة، والتجرؤ على السلطان الحاكم، فمستحيل، إلاَّ أنه قول مخترع من عقل «**ابن عربشاه**»، صاغه ووضعه معبِّراً عن الوضع الراهن إذ ذاك، لكن هذا القول «حقيقةً لم يقع حتماً، فهو دسّ».

والسلطان المؤمن ظِلُّ الله في الأرض، والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين، فهذا القول الفاسد، هو إذلال للسلطان الحاكم، لا يتجرَّؤ على قوله معتوه ولا مجنون، فمن فيه ذرة عقل يعلم أنه تصورٌ حاقد، ولا واقع له، ذلك لأن السلطان المؤمن ظلّ الله في الأرض، فلا يجوز السكوت بحقِّ عدو الله.

مكث السلطان تيمور أياماً، وجلس للناس جلوساً عاماً، وقد عمل على رفع ألوية العدل، وضبط أمور البلاد، وإلغاء الرسوم والضرائب الجائرة، التي فرضها آل المظفر خلال حكمهم واستئثارهم بالسلطة.

واستمع إلى مطالب العلماء وأهالي البلاد وشكواهم عن أفعال آل المظفر القبيحة، ولذلك وباستحقاق أعمالهم بالمحاكمة، أصدر أمراً باعتقال جميع أفراد الأسرة المظفرية الحاكمة/٧٩٥هـ - ١٣٩٣م /، حتى الذين جاؤوا إليه مقدِّمين خضوعهم. وقد حلم عليهم إلا من كَشَفَ استحقاقهم للقتل بحسب إجرامهم،

وقد بلغه أنهم تواعدوا على الفتك به من قبل عند اجتماعهم في خيمته، ولكن: ﴿. .إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾[1].

وأقام بعض الأمراء منهم في سمرقند، من أمثال «**زين العابدين**» وشقيقه «**سلطان شبلي**»... وقرر في ممالكهم أبناءه وأحفاده، وأعاد بعض الأمراء الذين سلبت منهم السلطة إلى عروشهم، كإقليم (**لرستان**)[2] أعاده إلى «**مظفر الدين أفراسياب**»، حيث أنعم عليه بإمارته، وأعاده إلى مكانته، وتتالت عليه ذريته حتى /٨٢٧هـ/ حيث قام البعض منهم للتنافس على الحكم، وكان من جراء ذلك أن أرسل «**ميرزا إبراهيم**» بن «**شاه روخ**» جيشاً أخرجهم من البلاد بما جنت أيديهم.

ومن ملوك ذلك الإقليم الملك «**عز الدين**» بن «**شجاع الدين محمود**»، الذي عقد اتفاقات ومعاهدات مع سلاطين العراق وحكامه. مما زاد العلاقة سوءاً بين الشرق الإسلامي وغربه، فأغار السلطان تيمور بيك عليه وحاصره في قلعة (**داميان**)، ثم قبض عليه وأرسله إلى سمرقند.

وأرسل ابنه «**سيدي أحمد**» إلى (**أندخان**)[3]، وبعد تربيته ثلاث سنوات تحت ظل العلماء، أعاده إلى (**لرستان**) حاكماً كالسابق، غير أن سوء سلوكه وجلافته وسماجته في تصريف الأمور أثرت فيه.. فطورد ولوحق وكان طيلة عهد السلطان تيمور بيك هائماً على وجهه في الجبال في (**لرستان**)، في أسوأ حال وأبشع صورة.

وكذلك أقام في ولاية (**العمادية**) الأمير «**زين الدين**» بن «**بهاء الدين**»، وطالت مدة حكمه في أيام فتوحات السلطان تيمور بيك، وفي عهد ولده الأرشد «**شاه رخ سلطان**». وخلف من بعده ذريته تحت ظل الدولة العثمانية منذ عام/٩٧٤هـ/.

* * *

(١) سورة النساء: الآية (٧٦).
(٢) إقليم يقع في إيران اليوم.
(٣) أندخان: وهي من قرى (فرغانة).

في استراباذ
القضاء على الحشاشين

لما عاد السلطان تيمور من غزوته الأولى لإمبراطورية «**توكتاميش**»، وعبر نهر (**أموداريا**) عام ١٣٩٢م/، قام بقتال طائفة ‹الحروفية› وقضى عليها..

ويطلق على هذه الجماعة اسم ‹**الحشاشين**›، وتروى عنها أقاصيص كثيرة، للخيال والأوهام نصيب كبير فيها.

تفرَّعت هذه الفرقة في أواخر القرن الحادي عشر، بزعامة رجل يسمى «**حسن الصباح**»، التفَّ حوله عدد كبير من الأنصار من أمثاله، من سكان البلاد الجبلية الواقعة (**جنوبي قزوين**).

واستطاع احتلال قلعة (**آلاموت**)، وزاد في تحصينها.

وكان يستحلُّ قتلَ من لا يؤمن بتعاليمه أو يسخر منها، والقضاءَ على أية شخصية في آسيا يعتبرها خطراً عليه.

ولجأ إلى وسائل سرية في تنفيذ أغراضه، مستغلاً بساطة أتباعه الخبثاء، واعتقادهم في نزاهة مآربه.

كان تأثيره عليهم بأساليبه الشيطانية، فكانوا أطوع له من بنانه، يُغري أحدهم بقتل أمير أو حاكم في بلد قريب أو بعيد، فلا يشعر هذا المسكين إلا وقد أصابته طعنة خنجر من مجهول تسلَّل إليه خفية.

وكان له في هذا المجال ضحايا كثيرة، منها «**نظام المُلْك السلجوقي**» الذي كان من قبل صاحباً له، وقد تمكن أنصاره من أن ينشئوا فروعاً لمذهبهم في (**سوريا**) وغيرها، وتحصنوا في أماكن جبلية منيعة.

ولما مات آلت الوراثة إلى ذريته فتعاقبوها ابناً عن أب، وساروا على نهجه.

وينسب إليهم قتل خليفتين ببغداد:

«**المسترشد والراشد**»، وبعض أمراء (**حلب، ودمشق، والموصل**).

وقد سبَّب نشاط هذه الجماعة فزعاً ورعباً بين ملوك آسيا وأمرائها، وكان طبيعياً أن ينتشر صيتها في كل البلاد، وأن يتناقل الناس أخبارها موسعين فيها مجال الخيال، وأن ينسبوا إليها كل جريمة لم يعرف الباعث عليها..

ولما غضب عليهم «**مانجو خان**» بسبب قتلهم لأمير مغولي، في سنة /١٢٥٥م/ سيَّر إليهم أخاه «**هولاكو**» فدمر حصونهم، واستولى على قلعة (**آلاموت**) وغيرها من قلاعهم، وبهذا انقرضت هذه الطائفة في بلاد الفرس، ولكنها ابتدأت تظهر ثانية في عهد السلطان تيمور بيك الذي قضى عليهم أيضاً.

أما في (**سوريا**) فقد تولى سيدنا «**الظاهر بيبرس**» هدم حصونهم وإبادتهم.

ولعلك تسأل:

«كيف تسنى لرئيس هذه الجماعة إغراء أتباعه بارتكاب جرائم القتل في بلاد غريبة عنهم؟!. وكيف يطيعونه مع ما يتعرضون له من خطر محقَّق على حياتهم»؟!..

يقول «**ماركو بولو**» الإيطالي الذي مر ببلاد الفرس سنة /١٢٧٤م/، وسمع الشائعات التي يتناقلها الناس عن هذه الطائفة ودوَّنها في مذكراته. وقد وصف الوسائل التي كان يتَّبعها زعيمهم «**علاء الدين**» الملقب ‹**بشيخ الجبل**›، يقال:

(**إن هذا الرجل اختار وادياً فسيحاً بين جبلين وأحاطه بقلاع وأسوار عالية، وغرس فيها جنة أرضية تنمو بها أشجار الفاكهة والأزهار العطرة، وتنساب فيها جداول من الماء واللبن والعسل والخمر، وتتخللها قصور أنيقة، زيِّنت بأثاث مزخرف بالذهب والجواهر، وترتع في جنباتها العاهرات والمومسات[1]، يرقصن ويغنين، ويعزفن الآلات الموسيقية. فإذا أراد شيخ الجبل أن يغتال أميراً، عمد إلى اختيار فتى من أتباعه معروف بالجرأة والإقدام، يرسل في طلبه ويستقبله في قلعته الحصينة، ويتحدث معه في الدين وضرورة التمسُّك به، ويسهب في وصف الجنة التي أُعدَّت للمؤمنين، وفي أثناء الحديث يقدم للفتى شراباً لذيذ الطعم ممزوجاً بالحشيش، فيحتسي جرعات منه تتخدَّر بها أعصابه على الأثر ويستولي عليه النوم، فيُحمل إلى الحديقة، وعندما يستيقظ يجد ما لا عينه رأت،**

[1] المومسات: جمع مُومِسَة: بِنْتُ الهَوَى، الفاجِرَةُ جهاراً.

ولا أذنه سمعت، فينصرف إلى التمتع بملذاته، وللحشيش عليه تأثير، وينهمك فيها، ثم تسقيه الفتيات شراب الحشيش، فتعتريه غيبوبة يحمل في أثنائها إلى القلعة، وعندما يصحو يتسائل أين كان؟. فيجيبه شيخ الجبل:

لقد هيأت لك زيارة عابرة للجنة، فيلتمس منه العودة إليها، فيجيبه قائلاً:

إن الحياة الأبدية فيها حُفَّت بالمكاره، وتستلزم منك الإقدام على عمل ديني واجب النفاذ، وهو أن تقتل الأمير الفلاني، فإذا أصابك مكروه في تأدية هذا الواجب، حملتك الملائكة إلى الجنة لتحيا فيها حياة سرمدية، وإذا عدت سالماً سهلتُ لك سبيل الوصول إليها. ولا يساور الفتى شكٌّ فيما يسمع لسذاجته وجهله الأعمى، واعتقاده الراسخ في زعيمه الديني، فينصرف وقد عقد النية على تأدية الرسالة التي عهد إليه بها).

ولا عجب في رواية «**ماركو بولو**»، إذ أن طائفة الحروفية والفدائية، امتداد للطائفة الباطنية، التي خرجت عن نهج المسلمين، وقد وضعها قوم أُشرب في قلوبهم الكفر، وبغض الدين، وكراهية النبي الكريم ﷺ، من الفلاسفة والملاحدة والسحرة، ليصرفوا الناس عن دين الله، وظاهر مذهبهم فروع الشريعة الإسلامية، وباطنه الكفر المحض.

‹**ونكروا القيامة والبعث والنشور، والجنة والنار، وجعلوا لكل رمز إشارة**›.

وكما أنهم احتالوا في أصول الدين، احتالوا في خداع أتباعهم واستمالة قلوبهم، فأباحوا لهم جملة اللذات والشهوات، وأباحوا لهم كافة المحرمات والمعاصي، وأسقطوا عنهم فرائض العبادات.

هؤلاء أعداء الدين، تحت ستار الدين، الذين يخاطبون جهلة الناس بحسب عقولهم وأهوائهم وعقائدهم، ليفتنوهم عن دينهم التقليدي القشري، ويزحزحوهم عن عقائدهم..

ما أن علم السلطان تيمور بيك أن لهم وكراً في شمال فارس، حتى هدمه وقتل سكانه جميعاً، وأراح الناس من شياطين الإنس هؤلاء.

* * *

قتال العراق

أرسل «**شاهُ ولي**» أميرُ ممالك (**مازندران**) إلى سلطاني العراق، للاتفاق ضد السلطان تيمور بيك، ولكنه لم يفلح رغم إغرائه لهما، فقال:

(أنا ثغركم، إن انتظم أمري انتظم أمركم، وإن نزل بي منه بائقة، فإنها بممالككم لاحقة، فإن ساعدتموني بمدد، كفيتموني هذا النكد، وإلا فتصيران كما قيل:

من حُلقــت لحيــةُ جار له　　　فليســكب المــاء على لحيته)

فأما «**شاه شجاع**» فأبعد قوله ورماه، وهادن السلطان تيمور كما ذكرنا وهاداه، أما السلطان «**أحمد بن أويس**» أجابه بجواب مهمل، وقال:

(**هذا الأشلّ الأعرج الجغطائي ما عساه أن يفعل؟. من أين للأعرج الجغطائي أن يطأ العراقيْن؟. وإن بينه وبين هذه البلاد إزالة الشوك، ولكَمْ بين مكان ومكان، فلا يخل العراق كخراسان. ولئن عقدتْ على التوجه إلى ديارنا نيته، لتحلَّن به منيَّته، ولترتحلنَّ عنه أمنيته، فإنا قوم لنا البأس والشدة، والدولة والنجدة، ولنا يصلح التشامخ والإباء**).

ولما كان القضاء على «**شاه ولي**» قدَراً واقعاً بسبب أعماله، فقد لاقى حتفه على يد «**أمير الريِّ**»، الذي قتله وأرسل رأسه إلى تيمور بيك.

ونجح السلطان تيمور بفتح (**تبريز**) ثاني المدن الرئيسية في أملاك الجلايريين.. فاكتفى «**أحمد بن أويس**» الجلايري بالانسحاب إلى المدينة الرئيسية التالية (**بغداد**)، ثم تحالف مع «**قرا محمد**» زعيم قبيلة (**القر - قيونلو**) التركمانية، ومع جماعة الأعراب، لقتال تيمور بيك.

وجاء في ‹**شرف خان البدليسي**›:

(**وفي هذه السنة طغى نهر دجلة طغياناً عظيماً، وهدم جميع بنايات وقصور بغداد، ما عدا بعض عمارات عالية سلمت من الخراب والغرق، وقد مات خلق كثير، زهاء أربعين ألف شخص، وأشار مولانا «ناصر البخاري» إلى هذا الحادث بهذا البيت الفارسي:**

‹كان لدجلة هذه السنة سير عجيب كسير السكارى فالأقدام في السلاسل والزبد على الشفاه كأنه قد جن جنونه›).

وقد التهب السلطان ابن أويس غيظاً، وثار ثائر غضبه وحميته على السلطان تيمور بيك، فجهز جيشاً عظيماً، جعل أمر قيادته مودعة إلى «**أمير سنتائي**»، وفوَّض إليه مهمة صدّ غائلة الأمير تيمور بيك والوقوف في وجهه، وكانت تلك الحملة السبب المباشر للتوجه نحو ابن أويس وقطع دابره.

وقرب مدينة (**السلطانية**)(١) التقى الجيشان، وكان للترتيبات العسكرية التي قام بها السلطان تيمور بيك في نفوس الجيش الجلايري وقع كبير، ففروا من المعركة، وتفرقوا شذر مذر في الأنحاء والأطراف، فعاد الأمير قائد الجيش إلى بغداد بخفي حنين، فغضب عليه السلطان ابن أويس، فألبسه المقنعة وأشهره في بغداد، بعد أن ضربه وأوجعه لِما رأى من هزيمته، أما السلطان تيمور فإنه لم يستمر على سيره نحو بغداد، وإنما اكتفى بهذا النصر، وعطف على (**همذان**) وما يليها، واستناب فيها"تاركاً الفرصة لأهل العراق بالتفكير في مصيرهم".

ولما كانت تحركات جيش السلطان تيمور بيك، مجهولة الجهة، إذ أنه إن أراد السير إلى جهة، أظهر أنه عازم إلى غيرها، وها هو استولى على (**همذان**) وبلاد (**اللر**)(٢)، ولم يبقَ حائل بينه وبين بغداد، وهذه الأخبار قد اضطرب لها العراق وسلطانه.

أما السلطان ابن أويس فقد انتابته الهواجس وأصابته الفِكَر، وأعوزته الحيَل في الدفاع والنضال، وسدّت الطرقات أمامه، فكأنه يتوقع النازلة، ويترقب القارعة، فلم يجد خلاصاً إلا بالهزيمة، وأن يترك (**العراق وتبريز**)، إذ كان شديد العسف بالرعية، وقد عميت عليه الأخبار، فإذا أرسل أحداً من الأمراء للاستطلاع، يرجع إليه بجواب غير شاف.

وجاء في كتاب ‹**موسوعة العراق بين احتلالين**›:

(وكانت بين السلطان أحمد وبين «توكتاميش خان» مواصلة ومراسلات، والرسل بينهما تتردد، ولكن توكتاميش استغل فرصة ضعف السلطان أحمد، وأن البلاد في هرج ومرج، والأمراء في مقاتلة

(١) **السلطانية**: مدينة أثرية بدأ تأسيسها أرغون من آل هولاكو وأتمها السلطان الجايتو.

(٢) **بلاد اللر**: وتعرف هذه المنطقة في بلاد ايران باسم (لورستان) أو (بلاد اللر) ، (المثلث البختيارى/ اللوري/ البشتكو).

مع سلطانهم أحمد، فدخل تبريز عنوة، ونهب ما فيها، وكان ذلك سنة /٧٨٧هـ/، وهذه الواقعة أغضبت السلطان تيمور، وكان لمخابرات توكتاميش ومراسلاته مع ملوك مصر وقع عظيم).

وفي ‹**حبيب السير**› يوضح أكثر عن تيمور بيك ووصوله إلى بغداد بتفصيل، قال:

(**إن الأمير تيمور بيك «كوركان»**[1] **بعد أن فتح مملكة العجم، لم يرَ قاصداً من سلطان بغداد، ولا أذعن له بطاعة، فكان همّ الأمير تيمور بيك، مصروفاً إلى فتح عراق العَرب).**

وفي /**٢٦رجب سنة ٧٩٥هـ**/ توجه من (**أصبهان**) نحو (**همذان**)، وبقي فيها بضعة أيام للاستراحة، وفوض إدارة أنحاء أذربيجان إلى «**الشهرزاده معز الدين ميران شاه**»، ويوم الثلاثاء /**١٣شعبان**/ في هذه السنة نهض من (**همذان**)، وفي أوائل رمضان وصل صحراء (**قولاغي**)...

وفي الأحد /**١٠رمضان**/ عاد من صحراء (**قولاغي**) ووافى «**آق بولاق**»، وقضى أيام رمضان هناك. وأجرى في غرة شوال مراسيم العيد، وبعد يومين جاءه الشيخ «**عبد الرحمن الأسفرايني**» من أعاظم مشايخ العصر، وبيَّن له أنه رسول السلطان «**أحمد الجلايري**»، فعظَّمه الأمير تيمور بيك واحترمه غاية الاحترام، إلاَّ أنه لم يقبل منه الهدايا من جراء أن «**السلطان أحمد**» لم يضرب السكة باسمه ولا خطب له.

أما الشيخ فإنه نال بشخصه من الأمير تيمور بيك الخلعة وكل توقير ومكانة...

و لم يتوان الأمير تيمور بيك في السير وأعاد الرسول.

وفي يوم الجمعة /**١٣شوال**/ نهض الأمير تيمور بيك من آق بولاق، وفي ثلاثة أيام وصل مزار «**الشيخ يحيى**» المسمى «**بقبة إبراهيم**»، وحين عاين أهل القبة غبار العسكر قبل وصولهم إليهم، أرسلوا إلى بغداد حمامة بورقة تخبر بمجيء تيمور بيك، فلما وصل تيمور بيك القبة سأل منهم: (**هل أرسلتم خبراً**).

قالوا: (**نعم أرسلنا حمامة**).

فطلب منهم حمامة أخرى، وأمرهم في الحال أن يكتبوا كتاباً آخر يبينون فيه الغبار الذي رأيناه كان غبار التراكمة والأحشام، الذين هربوا من عسكر تيمور بيك، وجاؤوا إلى هذه الأطراف، وأرسلوها،

---

[1] **كوركان**: أي صهر الملوك.

فلما وصلت الحمامة الأولى إلى بغداد عبر «**السلطان أحمد**» إلى الجانب الغربي، وعبر جميع أثقاله ويُراقه وخيله وعسكره وعياله، ولما جاءت الحمامة الأخرى سكن روعه، إلاَّ أنه توقف هو وأرسل الأثقال أمامه.

أما تيمور بيك فقد سارع في سيره نحو بغداد...

وفي /**٢٩شوال**/ وافى الأمير تيمور بيك بغداد...

أما «**السلطان أحمد**» فإنه عبر إلى الجانب الغربي وأغرق السفن، ورفع الجسر، وفر إلى الحلة، وقد عبر جيشه ‹**بسفينة الثقات**›، التي تمكن أمراء الجيش التيموري من الحصول عليها دون أن يصيبها ضرر، وقد ركبها السلطان تيمور بيك، كما أن أمير زاده «**ميران شاه**» عبر (**دجلة**) ومضى إلى (**العقابية**).

والخلاصة: أن السلطان «**أحمد بن أويس**» عبر بالسفينة الخاصة به ‹**المسماة شمس**›، وحمل ما استطاع حمله من نقود ومجوهرات ونفائس على البغال والإبل، ومضى في طريقه بسرعة لا مزيد عليها.. وكان معه جماعة من الأمراء.

فتعقب أثره رجال الأمير تيمور بيك ولم يمهلوه في سيره، فانقطع جماعة من قومه، وترك أثقالاً كثيرة. فلم يُظْفَرُ به...

وفي كتاب روضة الصفا مثله، وزاد أنه لم يتعرض جيش الأمير تيمور بيك للأهلين، واستراح هناك مدة... سوى أنه أخذ منهم «مال الأمان»، ولم يقع أي تعد عليهم من الجيش، وفيه موافقة لما جاء في ‹**عجائب المقدور**›، ونَقل أن المؤرخ «**نظام الدين**»[1] شاهد جيش تيمور بيك في بغداد، وبين أنه لا يحصى عدّاً ولا يحصر استقصاء...

فالناس اطمأنوا وطابت خواطرهم، وأما التجارة فإنها اتصلت بالعراق من سائر الممالك التي في حوزة الأمير تيمور بيك بأمان وطمأنينة...

[1] **ونظام الدين** هذا هو: المعروف بنظام الشامي، كتب تاريخ السلطان تيمور على حدة في كتاب ظفرنامه، وكان بأمر من السلطان تيمور، وفي كتابه هذا أوضح عن قبائل الجغطائي وأحوالهم التاريخية، ويحتوي وقائع تيمور بيك إلى سنة /٨٠٦هـ/ أي قبل وفاته بسنة، ونسخة هذا الكتاب في المتحف البريطاني برقم/٢٩٨٠/ إسلامده تاريخ ومؤرخلر.

والحاصل من النصوص المتقدمة، عرفنا بعض الشيء عن فتح بغداد والاستيلاء عليها، فصارت العراق ضمن ممتلكات تيمور بيك، وتحت سلطته وسيطرته، ومن ثم استولى على أنحاء بغداد الأخرى، وسار بعض أمرائه إلى (**واسط والبصرة**)...

وأما كثافة الجيش وكثرته فإنها لم تقف عند هذا الحد، وإنما انتشرت في الأنحاء الأخرى ووجهتها (**الموصل**)، وفي طريقها مضت إلى (**تكريت**)...

وأن تيمور بيك توجه من (**بغداد**) إلى (**تكريت**) في /**٢٤ذي الحجة سنة٧٩٥هـ**/.

* * *

فضائح ابن أويس صاحب بغداد المشينة

لما أصبح السلطان تيمور بيك على حدود البلاد العربية، وكانت أخباره قد سبقته إليها، وأحس أمراؤها بالخطر الدَّاهم، راحوا ينشدون الوحدة، ويبحثون عن وسائل دفع الغزو التتري الذي اقترب بخيله ورجاله، وأصبح على الأبواب.

وكان أول اتفاق أُبرم بين (**مصر وبغداد**)، كما استطاع هذا المحور أن يضم الثائرين على التتار (**كالتركمان**) والقبائل التي دخلت الحدود لائذة، طالبة الغوث ضد المسلمين من المسلمين. فانضموا إلى سلطانيْ مصر وصاحب بغداد، وبالغوا في إغرائهما على محاربة السلطان تيمور بيك، لزيادة التفرقة بين المسلمين الذين هم عليهم حاقدون.

كان «**السلطان أحمد**» مصرّاً على الادِّعاء بأنه حامي المؤمنين، مع أنه عُرف عن أحمد هذا سوء أخلاقه وتهتكه، ومجاهرته بالفجور والفساد. يضاف إلى ذلك إساءته الحكم في بغداد، وقد نكَّل بإخوته، وأساء معاملة قادته وأمرائه، وبالغ في ظلم الرعية. وقد دفعت هذه الأعمال سكان بغداد إلى مكاتبة السلطان تيمور بيك مستنجدين به، يحرِّضونه على القدوم إليهم لتخليصهم.

وجاء في ‹**تاريخ ابن الفرات**›:

كان أهل بغداد قد كرهوا «**القان أحمد**» بن «**القان أويس**» سلطان بغداد، لكثرة ظلمه للرعية، وتعسفه وقتله الأمراء والأكابر من أهل دولته، فكاتبوا «**القان تيمور بيك**» مدبر مملكة التتار، وكان قد ملك (**توريز**) وغيرها من البلاد الشرقية، فلما وصل إليه قُصَّاد أهل بغداد وكتبهم باستدعائه إليهم، قصد بغداد، فلما بلغ القان «**أحمد بن أويس**» صاحب بغداد، بحركة تيمور بيك ووصوله إلى قرب بلاده، أرسل كشافة إلى سائر الطرقات الموصل منها إلى بغداد، وأرسل في صحبتهم شخص من جهته يثق إليه ومعه طيور بطاقة، فلما خرجوا من عنده توجه كل منهم إلى الجهة التي عين إليها، فتوجه الجميع إلى عند تيمور بيك، ودخلوا تحت طاعته فعميت الأخبار عن القان أحمد، فلم يشعر إلا وقد دهمته العساكر التيمورية.

ويذكر «**ابن صصري**» صاحب كتاب ‹**الدرَّة المضيئة في الدولة الظاهرية**› فيقول:

(كان سبب هجوم تيمور بيك على بلاد ابن أويس صاحب بغداد، أنه جار على الرعية، وحكم فيهم بغير الأحكام الشرعية، وأخذ أولادهم المردان بالقهر، وصار يمسكهم عنده بالسنة لا بالشهر، فكثرت عليه الشكاوي إلى الله تعالى، ومَرَضُ الجور ليس له غير عدل الله مداوي. فسمع الله من عباده الشكوى، وسلط عليه من هو أقوى، فسلبه سلطانه، وغرَّبه عن أوطانه، لكن صدق الله العظيم في قوله:

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[1].

ويقول: **حكى لي رجل من أولاد بغداد عارف بأمور السلطان أحمد، قال:**

كان «للسلطان أحمد» ثلاثة أخوة مثل الأقمار من أبيه، عندهم عقل وأدب وحشمة، فخاف على الملك منهم، ومال بوجهه عنهم، قتل منهم اثنين، وأكحل الآخر وتركه بلا عينين.

وذبح بين يديه جماعة من أمرائه، ورضي بالمنكوس من عقله ورأيه، ولم يستغفر من ذنبه، ولم يعتذر حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر.

إذ كان في ظلمه شديد: ﴿. . وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[2].

ويذكر أيضاً:

أنه لما دخل السلطان أحمد دمشق، خرج نائب الشام والعساكر جميعها فاستقبلوه، ودخل معه من جماعته مقدار خمسمائة نفر، ونزل في القصر الأبلق والميدان. وتسيَّبوا في دمشق وهم قوم مفسدون:

أكل الحشيش عندهم ليس بعيب، يظاهرون بالفواحش، وقد جرى عليهم ما جرى وهم ما يرتدُّون عن الفواحش. ومقتهم أهلُ دمشق على قلة دينهم، وما سلَّط الله عليهم السلطان تيمور، إلا ببعض ما يستحقون).

وقد ذكر والي القدس (**شرف الدين المرجاني لابن صصري**) ما يلي:

---

[1] سورة الحج: الآية (١٠).

[2] سورة فصلت: الآية (٤٦).

(لما دخل السلطان أحمد إلى القدس، التقاه نائب القدس الشريف، ودخل إلى القدس وزار، وعَمِلنا له ما يجب علينا من جميع ما يحتاجه ونحن واقفون في خدمته حتى رحل، والذين معه لم يشتغلوا بعبادة ولا صلاة، ولكن مشتغلين بقلة الدين).

ولقد ذُكر أن ابن أويس سأل الذين يبيعون الحشيش: (**بكم بعتوهم**)؟.

فأجيب: (**بألف ومائتي درهم**)، وهذا أعجب ما يكون.

ذلك «**أحمد بن أويس**» الذي قامت الدولة الإسلامية آنذاك بقتال مسلمي وراء النهر لأجله!!.

كيف توصل ابن أويس للمُلك؟.

يذكر «**ابن عربشاه**»:

(أن والده الشيخ أويس كان من أهل الديانة، ملكاً عادلاً وإماماً شجاعاً فاضلاً مؤيَّداً.. قليل الشر، كثير الخير، سيرته حسنة، وكان محباً للفقراء، معتقداً للعلماء والكبراء. أوصى «بحسين» ولده وأكبر بنيه من بعده، ولما توفي استقر ولده «جلال الدين حسين» مكانه، وأفاض على الرعية فضله وإحسانه، وكان كريم الشمائل، جسيم الفضائل، وافر الشهامة، ظاهر الكرامة، أراد أن يمشي على سنن أبيه... ومن ثم وثب السلطان «أحمد بن أويس» ‹حامي المؤمنين›!. على أخيه فقتله، وقام لينصر المُلْك والدِين مكانه، فخذله.. ولما استولى على ممالك (العراق)[1]، مدَّ يد تعدياته، وضمّ جناح الشفقة والإرفاق، وشرع يظلم نفسه ورعيته، ويذهب في الجور والفساد يومه وليلته، ثم بالغ في الفسق والفجور، فتجاهر بالمعاصي، وظاهر بالشرور، واتَّخذ سفك الدماء إلى سلب الأموال، وثلَمَ الأعراض ثلماً. حتى أن أهل بغداد مجُّوه، واستغاثوا بالسلطان تيمور بيك).

أوليست هذه الوقائع تشهد بإصلاحات تيمور بيك ونجدته للمغلوبين على أمرهم؟. لإحقاق الحق وإنقاذ أهل بغداد من براثن القاتل لأخيه الضال المضل!.

[1] وكانت قصبة ملكه (تبريز)، ولكنه تركها فاراً إلى (بغداد) من} توكتاميشζ شريك الصراع ضدّ السلطان تيمور بيك، ومن ثمّ من السلطان العظيم تيمور بيك.

أوَ ليس حال المسلمين الكذابين الضالين المضلين المتمسِّحين بالدين دجلاً، أهلاً لما استحقوا على يدي السلطان العادل تيمور بيك العظيم الصالح المصلح، السلطان الرحيم بالصادقين، الشديد على الطاعنين بالدين باسم الدين؟!.

* * *

مـــابـرة فــاشــلــة

غضب «**السلطان أحمد**» واضطرب، وجهز جيشاً عرمرماً بقيادة «**سنتاي**» لقتال السلطان «**تيمور بيك**» على حدود (**عراق العرب**)، فانهزم أمام قوات السلطان تيمور في المعركة التي دارت قرب (**السلطانية**) عام /١٣٨٧م/، التي كان من نتائجها دخول السلطان تيمور إلى (**تبريز**).

وقد تعرض «**سنتاي**» للتوبيخ والضرب عند عودته إلى بغداد، وزاد الحيف والظلم على أهل بغداد، مما جعل لسكان بغداد دافعاً إلى مكاتبة تيمور بيك والاستنجاد به، لصدِّ ظلمه وطغيانه، وعندما استولى على (**تبريز**) وأضحى قريباً من بغداد، أخذوا يستغيثون به ويحرِّضونه على القدوم إليهم.

وكان أحمد يغذِّي نفسه بالشكوك، وأهواءه بالقسوة والفظاعة، كما وكان يخاف على كنوزه المكدَّسة في صناديقه، ويخاف أكثر من ذلك من مماليكه الذين يحرسونها، فجمع أمواله وكنوزه وبعث بها إلى مصر..

أرسل عيونه وكشافته شرقاً ليأتوه بأخبار السلطان تيمور، ووجَّه في الوقت ذاته مفتي بغداد الأكبر،كرسول سلام إلى تيمور بيك مع هدايا نفيسة.

وأرسل في نفس الوقت هدايا مماثلة إلى حليفه عند الحاجة، «**قره يوسف التركماني**».

أعاد السلطان تيمور بيك المفتي مع كلام لطيف، إذ لم يكن راغباً في هدايا أحمد «**فهي رشوة لتحمله على الرضى بالظلم والحيف على المسلمين**»، فكان مصرّاً على استسلام بغداد وتخليصهم من الجلايري المغولي «**أحمد بن أويس**» الظالم.

وأرسل مع المفتي هدية خاصة من عنده إلى أحمد، وهي رأس «**شاه منصور**».

والحقـــيقـــة: أن السلطان «**تيمور بيك**» كان يعرف باتفاق صاحب بغداد مع «**قره يوسف التركماني**»، لأن عيونه في كل مكان ينهون إليه الحوادث الكائنة في مواطنهم وبلادهم التي يقيمون فيها على جلِّيتها، ويكاتبونه بجميع ما يطلب، فلا يتوجه إلى جهة إلا وهو على بصيرة من أمرها، وبلغ الأمر أنه إذا أراد قصد جهة يكاتب عيونه فيها بعنايته، فيهيِّئون له الأمور.

وكثيراً ما كان يقدم إلى البلد، فلا تعرف أقادم هو عليها أم قاصد إلى سواها، فيأخذها على حين غرَّة، ويحقن دماء أهلها بتلك الإشاعات التي يروِّجها له عيونه.

فكان يلجأ إلى أسلوب التوْرية بحروبه، كما كان ﷺ يفعل ‹**والحرب خدعة**›.

* * *

الحركة إلى بغداد

كان «**السلطان أحمد**» في هذه الأثناء يتخذ تدابيره من أجل السلامة، واستمر على اتصاله مع حلفائه التركمان، ومع «**المماليك**» في دمشق، واختار بعناية جماعة من خواصه، مع خيول سريعة كحرس له ولعائلته وكتره، من أجل لجوئه إلى الفرار، وعلى بعد /**١٤٠كم**/ من حدوده، وضع مراقبين مع حمام زاجل لإعلامه بأية إشارة تنبئ باقتراب تيمور بيك.

ولكن تيمور بيك نجح باكتساب كشَّافة السلطان أحمد بإكرامهم بالمال، وضمَّهم إلى جانبه، وأصبح سلطان بغداد على جهل تام بأخبار تيمور بيك، في الوقت الذي كان تيمور بيك يتلقى أخبار السلطان أحمد من عيونه في بغداد بواسطة الحمام الزاجل. ولما عزم السير إلى بغداد أفرز «**تومان**» فرقة من جيشه لإشغال التركمان، ومن ثم تحرك هو بنفسه معهم كما لو كان في نيته الانضمام إلى هذه الفرقة، ثم تحوَّل سالكاً طرقاً جديدة غير معروفة باتجاه الشمال من جوار (**همذان**)، ليدخل أرض (**العراق**) من خلال معابر جبلية وعرة ضيقة، تصل إلى المجرى الأعلى لنهر (**الزاب الأسفل**) قرب منطقة (**شهر زور**).

ودأب على الوصول إلى بغداد، قبل أن تسبقه أخباره إليها، فعمد إلى المسير الليلي واتجه من (**شهرزور**) جنوباً إلى بغداد على رأس فرقة من خيرة فرسانه، مع أحسن الخيول المتوفرة، ومع كل جندي حصان احتياط، وراح يقطع /**١٤٠كم**/ عبر السهول دون ترجل، إلى أن ظهر أمام أسوار بغداد مفاجئاً سكان المدينة وحاكمها، وقد عبر دجلة وجنده على قُرَبٍ منفوخةٍ، والخيل تسبح إلى جانبهم.

كان السلطان أحمد الجبان جاهزاً للفرار، فما أن أبصر كشافة تيمور بيك على مرمى سهم من أسوار العاصمة حتى عبر النهر، ودمَّر جسر القوارب وراءه، ودخلت قوات السلطان تيمور بيك بغداد دون مقاومة، وأسرعت الخيَّالة عدواً نحو القصور، ولما تأكدوا من هرب السلطان عمدوا إلى مطاردته، وكان يسبقهم بعدة ساعات، ودامت المطاردة يومين وليلة، نظَّف السلطان أحمد فيها القرى والدساكر ومخيمات الأعراب على طريقه من كل خيل صالحة للركوب، فكانت مطاياه دائماً في حالة حسنة، وخيول المطاردين أنهكها التعب والعطش، فكفوا عن المطاردة مرغمين، ولكنهم وقعوا على أمتعته

الخاصة، وخيول قافلته المحملة دون حراسة، ووصل السلطان أحمد إلى دمشق حيّاً، ولكن نساءه وأولاده وقعوا في الأسر، وماذا عليه، فقد كان فاقداً للشرف رذيلاً بلا إنسانية من قبل، فما أن مضت العاصفة عليه، حتى احتضنه سلطان المماليك في القاهرة، وأعطاه نساء وعبيداً.

* * *

وسنترك شاهد عيان يحدثنا عن السلطان أحمد إلى هذه الأيام[1]:

إن صاحب كتاب ‹**بزم ورزم**› كان في بغداد أيام الوقعة، وفرّ مع من فرّ مع السلطان، إلا أنه قُبض عليه.. ومن ثم فرَّ إلى سيواس، وقد نعت السلطان أحمد لسلطانها إلى هذه المدة، فقال ما ملخصه:

(إن السلطان أحمد في حين ملك زمام السلطنة، واستولى على العراقين وأذربيجان بعد قتله أخيه «حسيناً»، صار يفتك بأمرائه الكبار، وأعاظم رجاله ممن كانت لهم التدابير الصائبة، والقدرة على إدارة المملكة، الواحد بعد الآخر، ولم يلتفت إلى أنهم كانوا أصحاب كفاءة ودراية، وأنهم أهل الرأي الصائب، والتدبير اللائق... كانوا معروفين في التزام الأخطار، واقتحام الأهوال، فأضاع تجاربهم وأغفل آراءهم.... وكانوا كما قال الأول[2]:

إذا ما عدوا بالجيش أبصـــرت	**عصـــائب طير تهتدي بعصائب**
وهم يتســـاقون المنيـــة بينهم	**بأيديهم ببعض رقاق المضارب**
ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم	**بهن فلول من قراع الكتائـــب**

قتل هؤلاء الواحد بعد الآخر، وأقام مقامهم الأذناب من المتجندة، ومن أوباش الناس، ممن هم غير معروفي المكانة ولا النسب، وخاملو الذكر لا عقل لهم يدبِّرهم، ولا شجاعة تؤهلهم.. عطل من الفضائل.. فنالوا المنازل الرفيعة بلا جدارة واستحقاق.

---

[1] المؤلف ممن هرب مع السلطان ابن أويس، وضرب جهة النجف، ولكنه ألقي القبض عليه وأحضر إلى «ميران شاه» في الحلة، ومن ثم عفا عنه ميران شاه وعطف عليه بنظر عنايته ولحظه بعين رأفته فسلم من الأخطار... كما قال... ولما سنحت الفرصة لصاحب الكتاب المذكور للهزيمة سار ليلاً ووصل قلعة (صور)، وفيها توجه إلى (سيواس) وبقي عند سلطانهم، وقدم له كتابه: (بزم ورزم). وفي هذا النص المنقول يقف المرء على حالة السلطان أحمد بن أويس مما فيه الكفاية. والشاهد «**عزيز بن أردشير الاسترابادي**» صاحب كتاب (بزم ورزم) نديم السلطان أحمد الجلايري ببغداد.

[2] هو الشاعر النابغة الذبياني.

إن سوء هذا التدبير كان أكبر باعث للعدول عن محجة الصواب، فكثرت الفتن وزادت الاضطرابات، وظهرت من كل صوب، وانحلت الأمور، والتذمُّرات بلغت حدها...

ففي هذه الأيام ظهر «توكتاميش خان» في مائة ألف من الجند في ذي الحجة سنة /٧٨٧هـ/. اجتاز بهم باب الأبواب، وساق جيوشه على (تبريز) دار الملك، وكانت آنئذ أشبه بالجنة، فأغاروا عليها وقتلوا منها نحو عشرة آلاف من النفوس، وفعلوا فعلات قاسية، فأسروا أولاد المسلمين، وذهبوا بهم إلى أقصى (تركستان)، ولم يقصروا في هتك الأعراض، وقتل الأبرياء، وفعل الفساد، فكانت هذه مقدمة الشرور، وأول الآلام والرزايا على العباد والبلاد، إذ تبعتها وقائع تيمور وأعوانه[1]...

ولم يوجد في القوم من يذب عن البلاد، أما «**السلطان أحمد**» فقد توالت على مملكته الأرزاء من حين ولّي.

وكان كما قدمنا يفتك بالأمراء الواحد إثر الآخر، فحدث ما حدث من وقائع «**توكتاميش**» و «**تيمور بيك**»، فهرب إلى العراق وجاء بغداد، ولكنه لم ينتبه من غفلته، ولا التفت إلى ما أصابه، وإنما تمادى في غيِّه، وانهمك في ملاذه، وما كان فيها من أنس ومجالس لهو، كأنه خلق لهذه الأمور، ومضت الحال عليه، وهو غارق في بحر المعازف والملاهي، وارتكاب المحرمات والمناهي، بل مستغرق فيها استغراقاً لا يكاد يكون معه صحو.. لحد أنه لم يلتفت ولو لحظة واحدة إلى إدارة الملك، كأنه بعيد عنها لاهمه، ويرى وقته الثمين يجب أن لا يضيع في مثل هذه الإلتفاتة.

ومضت على ذلك مدة سبع سنوات، وهو على ماعليه، ويصدق فيه ماقيل:

إذا غدا ملك باللهـــو مشـــتغلاً	**فاحكم على ملكه بالويل و الحرب**
أما ترى الشمس في الميزان هابطة	**لما غدا برج نجم اللهو والطـــرب**

ونتائج ذلك معلومة، فقد سببت هذه الغفلة إهمال الأمور، واختلال القواعد، واضطراب الأوضاع، وتشوش الأحوال... وفي الوقت نفسه كَسَدَ سوق العلم، وراج النفاق، وضاعت الحكمة أو ابتذلت...

---

[1] لا ريب أن الكاتب سيفهم مجريات الأحداث حسبما أملاها عليه قادته في البلاد السلطاني، لاسيما أنه هرب بعد أن عفي عنه وأعطي الأمان ونال الإكرام، مما يدل على إخلاصه لبطل العرب «ابن أويس».

وأهملت الفضائل.. ومن ثم تسنّم الجهال والمجاهيل أعلى المراتب، وأسنم المناصب، فجرى ما جرى، ووقع ما وقع، فلم يحصل مدافع عن حوذة البلاد، ولا صاد عن حريمه، فصار الناس بين قتيل وأسير، وكانت أموالهم نهباً وغنائم مقسمة، وهكذا يقال عن الأمور الأخرى... فضربت على القوم الذلة والمسكنة... أصابته الضربة، وهو على حين غفلة، فلم يسعه إلا الفرار إلى بلاد الشام، ولم ينتبه للحوادث قبل الواقعة، وإنما أضاع الحزم، وفقد العزم...

وعاجز الرأي مضياع لفرصته   حتى إذا فات أمر عاتب القدر

فلله العجب. لا برز بروز الشجاع، ولا انهزام الحازم الجازم، غفل سهواً، واشتعل زهواً ولهواً، حتى جرى ما جرى، من تقلب الأحوال، وتغلب الأهوال، واستقلال الأراذل، واستئصال الأفاضل، وازدحام الفتن، واقتحام المحن، وهتك الأستار، وقتل الأحرار، وسبي الحرم، وأسر الخدم والحشم، وانحلال نظام الأمور، واختلال مصالح الجمهور، وانكسار الناموس[1]، وانحصار الناس في اليأس والبؤس، وتخريب البلاد وتعذيب العباد، فبقيت المدارس مندرسة، والخوانق مختنقة، والبرايا عرايا، والأجلة أذلة، والبدور أهلة، وبلغ الأمر إلى أن وقع في كربة الغربة، وحرقة الفرقة، وحيرة الغيرة، وكسرة الحسرة، ودهشة الوحشة، وابتلي بالجور بعد الكور، والذلة بعد العزة، والقلة بعد البُزَّة، فأصبح نادماً على ما فات، وقال هيهات وهيهات:

﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ (٢٩) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ﴾[2].

إلى الله أشكو عيشة قد تكدرت   علـــي و دهراً ألحـــت نوائبـــه

تكدرت من بعد الصفـــاء نميره   وأحزن من بعد الســـهولة جانبه

أما «**ميران شاه**» ابن تيمور بيك، فإنه عبر الفرات، وسار يتعقب أثر السلطان أحمد...

وهذا مال إلى طريق الشام، فسلكه خائفاً وجلاً ‹**كم دبَّ يستخفي وفي الحلق جلجل**› وناله من الندم ما ناله، وأصابه من الرعب ما أصابه... ولكن لم ينفع ذلك الندم: ﴿ . .وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾[3]:

---

[1] الشرع الشريف وحدود الله.

[2] سورة الحاقة: الآية (٢٩-٣٠).

[3] سورة ص: الآية (٣).

إذا كنت ترضى أن تعيش بذلة — هلا تســتمدن الحسام اليمانيا

ولا تســتطيلن الرماح لغــارة — ولا تســتجيدن العتاق المذاكيا

عثر عليهم القوم في صحراء كربلاء، فلم ينج هو وأعوانه إلا بشق الأنفس:

نســوا أحلامهم تحت العوالي — ولا أحلام للقــوم الغضــاب

إذا كانت دروعهــم نحــوراً — فما معنى الســوابغ في العياب

وعلى كلٍّ نجا السلطان أحمد من تلك المهلكة، وأما أعوانه كل واحد منهم سلك ناحية، فتفرقوا في الصحاري شذر مذر، فاختفوا فيها.

* * *

السلطان تيمور وأهل بغداد
٧٩٦هـ - ١٣٩٣م

قام سكان بغداد بأنفسهم بفتح أبواب المدينة للقوات التيمورية، واعترفوا بسيادة السلطان تيمور بيك، لم يصادر السلطان تيمور إلاَّ القليل المتبقي من أموال «**السلطان أحمد**» وذخائره ونفائسه، ولم يفرض على السكان غير أموال الخراج، ولما كان تعاطي الخمرة في بغداد شائعاً فقد أمر بإلقاء جميع الخمور في دجلة، وإغلاق بيوت الدعارة التي كانت منتشرة في المدينة، ونقل أرباب الحرف إلى (**سمرقند**)، وذكر «**ابن عربشاه**»: (**أن السلطان تيمور لم يخرب المدينة**).

ويروي «**غروسيه**» أن السلطان تيمور دخل بغداد دون قتال.

وبالطبع جلس السلطان تيمور إلى الناس يسمع شكاويهم، ويقيم الحدَّ والقصاص على أهل الفسق والفساد والمخالفات، فنفى من في حدِّه النفي كالزناة، إلى أواسط (**آسيا وخوارزم وأذربيجان**)، وقتل من استحق القتل بجرم ارتكبه.

عين حاكماً من قبله على بغداد، وأصبح اسمه مقروءاً في السكة، وأرسل من بغداد جيشه إلى (**ديار بكر**) فاستولى عليها، وواصل السير إلى مدينة (**تكريت**) على (**نهر دجلة**) بين (**بغداد والموصل**)، وكان يحكمها أمير مستقل لا همّ له مع قومه، إلاَّ سلب القوافل وقطع الطرق، وقد عصت عليه، ولا تزال لم تذعن له بطاعة، وجاء وصفها آنذاك في «**ابن خلدون**»:

(**تكريت مأوى المخالفين وعش الحرابة ورصد السابلة**).

كانت المدينة قلعة حصينة، تقع على ربوة عالية، ويحيط بها سور سميك ذو حصون منيعة، لا يمكن الوصول إليها إلا بطريق واحد، خلال صخور وعرة المسالك.

أرسل السلطان تيمور إلى حاكمها يطلب منه تسليمها فأبى، وسد الطريق المؤدي إليها، فأمر السلطان تيمور بمحاصرتها ريثما تُسلَّم له بالأمان، ودام الحصار خمسةً وعشرين يوماً إلا أنها لم تستسلم، فأمر المهندسين بصنع منجنيقات ضخمة لتقذف مبانيها، ولكن هذا لم يثمر، فعهد السلطان تيمور إلى فريق

من الجنود البواسل أن يتسلقوا الصخور بأية تضحية، ويفتحوا فجوات في أساس السور بآلات الحفر ثم يملؤوها بالوقود والزيت ويشعلوا النار فيها، وقام الجند بما أُمروا غير مبالين بما قد يصيبهم، وتصدعت الجدران في مواضع كثيرة، وتسلق السلطان تيمور الصخور، وتبعته جموع من جيشه ودخل المدينة، فاستسلمت له، بعد مقاومة ضعيفة من الحراس.

عفا السلطان تيمور عن السكان الوادعين، ولكنه جمع المحاربين «قطَّاع الطرق للتجار والمسافرين والحجاج»، وقاصصهم وفصل رؤوسهم، وكتب:

(**تلك عاقبة الباغي الأثيم**).

وبعد أن أخضع السلطان تيمور بيك قلعة (**تكريت**)، جاءت إليه قلاع ونواحي تلك الجهة خاضعة، ومنها الأمير "**عز الدين**" حاكم (**الجزيرة**)، الذي خفّ إلى مقابلة السلطان تيمور بيك، والتشرف بسدَّته السنية، رافعاً هدايا وتحفاً عظيمة، فغمره السلطان وأناله من لدنه العطف والرضى، وأعاده إلى ولايته، ولكن السلطان تيمور بيك أرسل طائفة من رجاله يحملون هدايا عظيمة وتحفاً نادرة إلى بلدة (**السلطانية**). وكان من هؤلاء الرجال أحد الأكراد من العشيرة (**البختية**)، ويدعى "**شيخ**"، ولما وصلوا الجزيرة، حاد عن الصواب، وتعدى على تلك التحف والهدايا، وأخذها لاجئاً إلى "**عز الدين**" حاكم (**الجزيرة**)، الذي شارك هذا المأفون الأثيم في عمله ناقضاً العهد.

ومع أن السلطان تيمور بيك كان قادراً على أن يلزم "**عز الدين**" الحجة، إلا أنه أرسل إليه رسوله مرتين يقول له:

(**إذا قبضت على الشيخ وأرسلته إلي فإني أصفح عنك، وإلا سأدمِّر جميع قلاع بلادك، وأجعلها خراباً يباباً تحت سنابك الخيل**).

وأبى "**عز الدين**" تنفيذ المطالب، مغتراً بحصانة قلعته ووفرة المياه حولها، كونها على شط (**دجلة**).

وزحف السلطان تيمور بيك إليه خفيفاً، وأغار على الجزيرة، مجتازاً بالجيش جميعاً (**نهر دجلة**)، وباغت العدو ليلاً حيث أحاط بالجزيرة وقت السَحر من كل الجوانب، ولم تمض ساعة إلا وكان السلطان تيمور مستولياً على القلعة والمدينة معاً.

فرَّ الأمير «**عز الدين**» تاركاً وراءه كل شيء وهو بين الحياة والموت.

أمضى بقية حياته مختفياً متحمِّلاً المشاق والتعب بين عشيرة (**أورخى**) إلى أن مات.

ومن الملوك أيضاً الأمير «**الأشرف**» بن الملك العادل والي (**حسنكيف**) ممن بادر إلى تقديم الطاعة إلى العتبات الملكية التيمورية بالحضور إليها، فشمله السلطان تيمور بالرضى والقبول وأقرَّه على ملكه، ولبث على هذا المنوال حتى توفي، وخلف من بعده الملك «**خليل**» ابنه في ظل الميرزا «**شاه روخ**» بن السلطان تيمور بيك، وبعد أن تم للسلطان تيمور بيك فتح (**الجزيرة والموصل وتكريت وماردين وآمد**)[1] توجه عن طريق (**سيواس**) على هضاب (**ألاطاق**)، حيث حطَّ ركابه السلطاني في سهل (**موش**)، وهناك بادر «**حاجي شرف**» إلى البلاط السلطاني حاملاً معه هدايا وجياد عربية مطهَّمة.

ولما رأى السلطان تيمور بيك سبْقه إلى المسالمة في تلك الربوع، بالغ في إكرامه «**حاجي شرف**» فشمله بعواطفه الملكية، ومنحه ثقته الغالية، مغدقاً عليه نعمه وآلاءه، ومنعماً عليه بخلع سنيّة، ورتب سامية، كسيوفٍ مذهَّبة، وثياب مقصَّبة ومرصعة بالذهب واللآلئ. وعلاوة على إبقائه في منصبه الموروث في حكومة (**بدليس**)[2]، ضم إليه مقاطعات أخرى مثل (**باسين، أونيك، ملا ذكرد**)، وأصدر إليه براءة عالية مؤكِّدة بالأيمان الغليظة بإسناد تلك البلاد إلى عهد صداقته وإخلاصه.

ولم يكن «**لحاجي شرف**» نظير في الدين والصدق والإخلاص والطيبة في جميع بلاد (**كردستان**)، وكان على وئام تام وخضوع كلِّي لجميع رجال صاحب السلطان تيمور بيك.

هذا وقد بقيت تلك البراءة السامية التيمورية لدى أسرة «**شرف الدين**» حتى سنة /**٩٤٠هـ**/.

ومن هذه القلاع التي سلمت له (**إربل**)، وجاء في ‹**روضة الصفا**› أن حاكم (**إربل**) الشيخ (**علياً**) جاء الأمير تيمور، وقدم له الهدايا اللائقة، فقبلها منه وعادت إربل بلدة تابعة له، وكذلك خضعت له البصرة والبحرين، وبعد أن عيّن السلطان تيمور بيك نائباً في بغداد، نزل (**رأس العين**)[3] فملكها، ونازل (**الرها**) فأخذها بغير قتال، واتفق هجوم الثلج والبرد يومذاك.

---

[1] **آمد**: كانت قصبة ديار بكر على يمين دجلة وهي في تركية اليوم.
[2] **بدليس**: من نواحي أرمينيا قرب خلاط.
[3] **رأس العين**: بلدة في الجزيرة السورية قرب ماردين.

ولما بلغ صاحب الحصن، جمع خواصه وما عنده من التحف والذخائر، وقصد السلطان تيمور بيك، ليدخل في طاعته، فقرر ولده «**شرف الدين أحمد**» نائباً عنه، وسار إلى أن اجتمع بالسلطان تيمور بالرها، فقبل هديته وأكرم ملتقاه، ورعى له كونه راسله قبل جميع تلك البلاد، ثم خلع عليه وأذن له بالرجوع إلى بلاده، وأصحبه بشحنة من عنده، ثم قصده صاحب (**ماردين**)، وجرت بينهما علاقات على الوجه الذي سيمر ذكره فيما بعد.

المراسلات الأولى:

بعث السلطان تيمور بعد بغداد برسل إلى (**القاهرة**)، يحملون رسالة شفوية إلى سلطان المماليك، قال هؤلاء الرسل:

(في أيام جنكيز خان تحارب أجداد مولانا مع أجدادكم، ثم عقد الصلح وقام السلام بينهم، وبعدئذ صارت إيران جميعها فريسة للفوضى والحرب الأهلية، وقد أعاد مولانا الشاه السلام إلى إيران التي تقوم حدودها متاخمة لحدودكم، وبناء على ذلك فقد أرسلت سفراء إليكم، عارضين أن يتنقل التجار بيننا وبينكم بحرِّية، وأن لا تكون بعد الآن نزاعات وخصومات.. والحمد لله الذي هو وحده السيد على جميع المماليك).

سجن سلطان مصر رسل السلطان تيمور وهم مسلمون، وتذكر إحدى الروايات أنه قتلهم واغتبط بفعلته الوحشية هذه، وهناك قول: ‹أنه اعتقلهم ليغيظ السلطان تيمور بيك›، وهو الرأي الأرجح عمّن ادعى زوراً أنه قتلهم، لأن الرسل لا تقتل، بل تحرك بقواته المملوكية للقتال.

وفي تلك اللحظة وجد «**الظاهر برقوق**» حليفاً مخيفاً وغير متوقع بظنه[١]، إذ أن السلطان تيمور بعد بغداد لم يكن مرتاحاً من الحالة السائدة في شمال العراق ومناطق (**كردستان وديار بكر**)، حيث كان يحكم عدد من الحكام الأكراد والتركمان، ومن تلك المناطق قلعة (**تكريت**) كما ذكرنا[٢].

---

[١] وهذا الحليف هو السلطان بيازيد العثماني الذي كفَّ عن اعتداءاته وتوسُّعاته ضمن الأراضي التابعة للسلطة المملوكية، وألقى وراء ظهره كافة النداءات الحبيّة السلمية التي وجهها إليه السلطان تيمور بيك، والاتفاقات لمجاهدة الكفار تكبراً واستعلاءً، بعد أن جعل وزيريه قاطعي الطريق أحمد بن أويس ويوسف التركماني، وسنأتي على تفصيلاتها.

[٢] الذين دأبوا على قطع الطرقات وتثبيط التجارة، وقطع السبل على الحجاج لبيت الله الحرام.

هذا، وفي هذا التحرك من قبل السلطان تيمور رأى السلطان العثماني «**بايزيد**»[١] أن السلطان تيمور تجاوز حدود بعض أراضي (**الأناضول**)[٢]، مما أثار غضبه ودأب على قيام تحالف وثيق بين سلطان المماليك وسلطان العثمانيين الأتراك الغربيين مهما تكن النتائج، مع إراقة دماء المسلمين بالاتجاه الغربي، وقرر السلطانان المغبونان طالبا المجد الدنيوي لا مجد الله تأديب السلطان تيمور، رغبة بالظهور والتعالي، والاعتزاز بما لديهما، وألقيا وراء ظهرهما كافة النداءات السلمية لنصرة دين الله، وحفظ الأمن في ربوع البلاد الإسلامية، وحتى القيم المتعارفة بين الأمم على مرّ التاريخ من أن الرسل لا تقتل، ولكنهم اعتقلوهم، إنها النعرة الإبليسية لحب الأنانية والعلو في الأرض، فكانا يعتقلان الرسل.

وبدا وكأن الزحف التيموري الفاتح انتهى بالاتجاه الغربي، ورأى كلاهما السلطان العثماني، وسلطان المماليك، أن لا شيء يعترض طريقهما حتى (**الفرات وبحر قزوين**)، إذ جناحا الجيشين محميَّان، شمالاً بالتركمان، وجنوباً بالعرب السوريين. فضلاً عن حليفهما «**توكتاميش خان**»[٣] ملك الهوردة الذهبية، الذي تحرك على حدود (**أذربيجان**) كما ذكرنا مسبقاً، أثناء المعارك في ديار الهوردة الذهبية.

لذا اضطر السلطان تيمور للمغادرة إلى سمرقند، والقضاء على الهوردة الصابئة أولاً، أما المسلمون من الأتراك العثمانيين والجراكسة المماليك، فإن لهم سبلاً غير الحرب الدموية، ولعل الله يُحدث أمراً.

زحف الأتراك العثمانيون وتقدموا حتى الموصل، وزحف جيش المماليك على دجلة ودخل بغداد آتياً معه بالسلطان الهارب «**أحمد بن أويس**» مع سيرته السيئة، ليعيده إلى قصره، ويحكم باسم مصر بالتبعية.

* * *

ملاحظة هامة:

ولعل سائلاً يسأل: لم أخفيتم الرسالة المعروفة بين المؤرخين والتي تُظهر السلطان تيمور على حقيقته؟!.

---

[١] بما أملاه عليه ضيوفه من قطاع الطرق كأحمد الجلايري ويوسف التركماني، وقد وجدا عنده أرضاً خصبة لزرع بذور الشقاق، بسبب سرعة غضبه وحماقته، فلعبا عليه وأوقعاه في شراكهما ضد السلطان المسلم تيمور بيك.

[٢] أطلق الجغرافيون هذه التسمية على بلاد الروم وأرضهم ((آسية الصغرى)).

[٣] ملاحظة هامة: لم نتقيد بالترتيب الزمني حين سردنا نهاية الملك توكتاميش خان هذا الصابئي الخائن الذي أبت نفسه الخبيثة إلا الإساءة الدائمة للسلطان تيمور بيك الذي أنقذ حياته وأحسن إليه، لكن توكتاميش خان في هذه الفترة الزمنية التي نقصُّ فيها وقائع السلطان تيمور بيك مع برقوق الدجَّال لم يكن بعدُ قد مات بل جرت الحوادث المذكورة أعلاه بعد هزيمته الأولى.

هولاكو يُرسل وتيمور بيك يُتَّهم

لعلك تقول وما علاقة «**هولاكو**» بموضوعنا، وقد مضى زمانه منذ ما يقرب مائة عام، أقول: لقد جاء في ‹**تاريخ ابن الفرات**›:

(لقد شاع بين الناس والجند عند خروج السلطان «**الظاهر برقوق**» سنة /٧٩٦هـ/ أن تيمور بيك أرسل رسلاً ومعهم كتاب إلى الظاهر برقوق يهدده فيه بسبب موت رسله، ويقول إن الرسل لا تقتل، وهذا كله لا أصل له، ولكن الرسائل المذكورة هي بين «**هولاكو والملك الظاهر**»، ولا علاقة لتيمور بيك بهذا الزعم الملفق، ومن مضمون كتاب وصل إلى الملك الظاهر على ما أشيع:

(**اعلموا أننا جند الله مخلوقون من سخطه، ومسلطون على من حلّ عليه غضبه، لا نرق لشاكي ولا نرحم باكي، قد نزع الله الرحمة من قلوبنا فالويل ثم الويل لمن لم يكن في حزبنا ومن جهتنا، قد خربنا البلاد وأيتمنا الأولاد، وأظهرنا في الأرض الفساد..**).

وكذلك جاء جواب «**الظاهر برقوق**» على ما أشيع:

(**حصل الوقوف على ألفاظكم الكفرية ونزعاتكم الشيطانية، وكتابكم يخبرنا عن الحضرة الجنابية وسيرة الكفرة الملائكية...**).

والغريب:

أن هذه الرسالة أخذها أغلب المؤرخون حتى «**ابن عربشاه**» عن «**المقريزي**».

ويقول المقريزي في كتاب ‹**السلوك لمعرفة دول الملوك**› الجزء /٣/ صفحة /٥٣٧/:

(**أرسل تيمور أولى رسائله إلى برقوق على يد رسول خاص، وكتب له الجواب المناسب، ولم يكشف عن فحوى الرسالة**).

وبعد أن يذكر «**ابن عربشاه**» نص الرسالة والجواب يقول:

(**ثم إني وجدت في نسخة محا مر الدهور بتقادمه مدادها، وبيَّض كر العصور على وجه الزمان من شيبها سوادها، صورة هذا الكتاب، وهيئة هذا الخطاب، من إنشاء «نصير الدين الطوسي» على لسان**

«هولاكو» التتري، مرسلاً ذلك إلى سلطان مصر، وصورة الجواب بعينه إنشاء من كان في ذلك العصر).

ونص خطاب هولاكو كاملاً عند «**المقريزي**» في السلوك جزء /١/ قسم٢ صفحة /٤٢٧-٤٢٨/.

ويفيدنا ابن «**قاضي شهبة**» بأحداث سنة /٧٩٦هـ/ مستهل شهر ربيع في تلك السنة بقوله:

(وفيه جاء مرسوم السلطان بطلب الشيخ «بدر الدين محمود الكَلُستاني» مدرس "الصرغتمشية" ليقرأ كتاباً ورد من جهة تيمور، ولم يوجد من يقرؤه، فأشار القاضي «جمال الدين القيصري» بإحضاره ليقرأه، فسار على البريد وكان في ذلك سعادته...).

إذن الرسالة جاءت مكتوبة بقلم (**الأويغور**)، مع العلم أن ذلك القلم يشتمل على /١٤/ حرفاً، و لم تكن فيه حروف الحلق /أ، هـ، ع، ح، غ، خ/، وبه كان يكتب الجغطائية ((**أهل بلاد ما وراء النهر**)) توقيتهم ومراسلاتهم ودفاترهم وأشعارهم.. على ما ذكر ابن عربشاه[1]، فمن أين جاءت الرسالة ذات البلاغة العربية من طباق وجناس ومقامات همذانية؟!.

[1] عجائب المقدور في نوائب تيمور لابن عربشاه الصفحة /٤٧٧/.

بطل العرب والمسلمين

أحمد بن أويس!.

قفل المماليك راجعين من بغداد إلى مصر، والأتراك من الموصل، واقتنعوا بما أنجزوه، ومن ثم بقي السلطان «**أحمد**» واستلم السلطة ببغداد وحيداً، ليتدبر أموره بنفسه.

أرسل السلطان أحمد جواسيسه لينهوا إليه معلومات عن السلطان تيمور، وجاؤوا إليه يهرعون بروايات غريبة من سمرقند فقالوا:

(لقد رأينا ما رأينا بأم أعيننا.. المدينة ليست كما كانت من قبل، إنها الآن مدينة قبب زرقاء وأفنية من رخام، لقد شاهدنا مولى التيموريين عند مبنى إحدى السرايات، وكان غير مرتاح إلى عمل البنائين فأمر بهدم البناء، ومن ثم لمدة عشرين يوماً كان يأتي بنفسه كل يوم راكباً على حصان، ليراقب والله شاهد على أن ما حدث هو كما نقول: لقد أعيد تشييد القصر في ظرف عشرين يوماً بتمامه حتى آخر حجر وآخر عقد وآخر قرميدة في القبب!. والعقد يعلو /٢٤رمحاً/، وباستطاعة خمسين رجلاً أن يصطفوا في عرضه!.)

فغر السلطان أحمد فاه وسأل : (**هل من مزيد**)؟.

فقالوا: (**إن السلطان تيمور يجلس إلى فقهاء السنَّة والعلويين**).

ثم قال: (**ماذا قال عني؟. ماذا يفعل**)؟!!.

فقالوا: (**لم نسمع منه شيئاً عن سموك، وهو الآن في طريقه إلى غزو الهند**).. ارتعدت فرائص «**السلطان أحمد**»، ولم يعد يشعر بالراحة، رغم علمه أن السلطان تيمور يبعد عنه ما ينوف عن /١٧٠٠كم/.

أخذ يشك في وزرائه ومستشاريه، وعمد إلى قتل بعضهم بيده،بحيث كان يرسل واحداً ويقول له اقتل فلاناً ولك ماله وبيته، ومتى تمَّ الأمر أرسل آخرَ فيقتل ذلك القاتل، وهكذا قتل الواحد تلو الآخر، حتى قتل خلال أسبوع ألفين من أمرائه وأقاربه ومقربيه، وقتل عمته «**وفاء خاتون**»، وهي التي ربته كما

جاء في كتاب ‹**روضة الصفا**›، وكذلك قتل أكثر الحرم والخدم الذين كانوا عنده، ثم بعد ذلك أغلق عليه الباب، و لم يترك لأحد من الناس إليه سبيلاً.

ونقل مقره إلى قصر النساء المهجور تقريباً، وأحاط نفسه بمماليك قوقازيين، وسيَّافة من العبيد السود، وأعدَّ سرّاً وخفية ثمانية خيول قوية وأصيلة في إسطبل عبر دجلة بنهاية جسر، وفي حراسة قلة من أتباعه المخلصين.

وكان كل ليلة يعبر النهر متنكراً إلى حيث كانت خيوله تنتظر، وكان ذلك بمثابة تجربة للاطمئنان إلى سلامة طريقه وقوة تنكره، بغية الهروب المسعور فوق الصحاري والقفار، إذ كان دوماً يتمثل رجال السلطان تيمور في أعقابه ذكرى لا تفارق مخيلته، وبينما هو على هذه الحال من الحراسة والعزلة والتخوف، وإذ برسالة تصله، وكانت مديحاً من «**نظْم خالد الذكر حافظ الشيرازي**»، الذي كان السلطان أحمد قد دعاه إلى زيارته في بغداد منذ وقت طويل، وقال حافظ في رسالته وهي بالفارسية:

أحمد يا ابن سلطان أويــــس   الــمـلــك و ابـــن الملـــك

عاشـــق الأيام المترعة خمراً   حبذا لو يأتيك الحظ بشـــيراً

بمجد جنكيز خان وعرش الأكاســـرة!.

ولما مضى على هذا الحال عدة أيام، أمر ستة أنفار من الخدم المقربين بالخفية أن يأخذوا من الإسطبل سبعة خيول خاصة، ويعبِّروها إلى الجانب الغربي، وركب مع ستة أفراد وسار إلى «**قره يوسف التركماني**»، فاستنصره وقال له:

(تعال انهب بغداد).

وجاء به وبعسكره بهذا الطمع والاتفاق على نهب بغداد، ويذكر «**الغياثي**» أن السلطان أحمد فجأة ندم، و لم يدعهم يتعرضوا للمدينة لقاء إعطائهم أمواله ومدخراته، حتى الأقمشة والرخوت من خزانته والخيول والأموال الأخرى حتى أرضاهم.

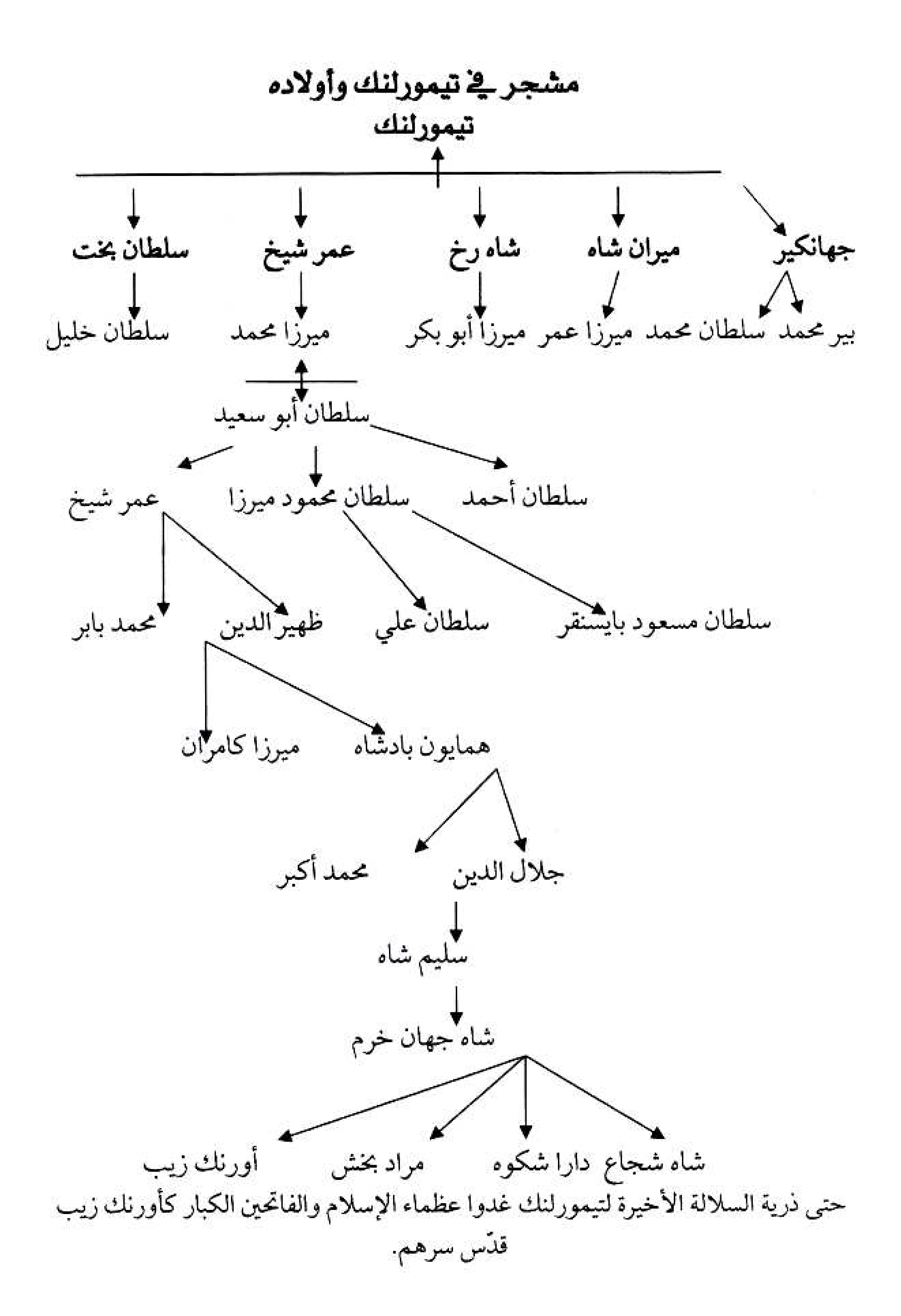
طالت الأيام وشعر أحمد بالأمان ولكن إلى حين، إذ أفاق يوماً ليباغت بضجيج طبول السلطان تيمور فتتحطم آماله ويتقوض هدوؤه :

ورستم حفيد السلطان تيمور الآن أصبح على أبواب بغداد**!**..

* * *

تم بعونه تعالى الجزء الأول ويليه الجزء الثاني





حتى ذرية السلالة الأخيرة لتيمورلنك غدوا عظماء الإسلام والفاتحين الكبار كأورنك زيب قدّس سرهم.

سنرى في الجزء الثاني

أن الضعف الإيماني والتردي الأخلاقي والتقاتل على الدنيا الدنية سبّب طمع الكفرة في بلاد الإسلام، وأدّى إلى التكالب عليها، وطمع الصليبيين بها، وغزوها في عقر دارها، لولا النفَس المحمدي الشمولي، وعطف الإله الرحيم، لزالت بلاد الإسلام كزوال الأندلس، لكنه الدين القويم الذي ارتضاه رب العالمين الرحمن الرحيم أضاء حينها على يد النبلاء السلاجقة الأحرار، فصفعوا الروم بقوة، وتبعتهم جحافل العثمانيين، وأصلحهم تيمور بيك العظيم، فعادت مياه الحياة والنعيم والسعادة إلى قلوب المسلمين، وعادوا فسادوا على العالمين براية الحق الخفاقة بالنور المحمدي المقيم:

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[1].

وسنقف على حقيقة الأوضاع الداخلية التي سادت بلاد الشام ومصر إبَّان حكم الظاهر برقوق وطموحه بقيام دولة مماليك جركسية، وقد تمّ اختصار تلك الحُقبة على شكل فقرات، كيلا يتم الخروج عن بحثنا في سيرة السلطان تيمور بيك.

ومن أراد التطلع والاستزادة لتلك الفترة التعيسة، فقد تمت كتابة المراجع التي يمكن الانتقال والرجوع إليها.

إضافة لما أخذنا نصه من خطط الشام لمحمد كردعلي وابن صصري صاحب (كتاب الدرة المضيئة).

* * *

[1] سورة التوبة: الآية (٣٢).

جدول زمني لأهم الأحداث

السنة الميلادية	
١٣٣٦م–٨ نيسان	ولادة تيمور بيك قرب كش فيما وراء النهر.
١٣٦٩م	أخفقت كافة محاولات الأمير حسين ضدّ تيمور بيك، وكانت نهايته في المعركة الأخيرة، وجلس تيمور بيك على العرش وعمره آنذاك ثلاث وثلاثين سنة.
١٣٧٠م	عبر السلطان تيمور بيك على رأس قواته صحراء (كيزيل كوم)، واستولى على مدينتي خيفا وكات دون قتال.
١٣٧١م	قام الأمير ولي حاكم مازندران بحشد جيش كبير لمقاتلة السلطان أويس.
١٣٧٢م	جاء الأمير ولي إلى بلاد الري، ومنها توجه إلى ساوه ضد السلطان أويس.
١٣٧٤م	خرج السلطان أويس إلى عمارة الرشيدي لقتال الأمير ولي.
١٣٧٥م	توجه الشاه شجاع إلى أذربيجان بقصد مقاتلة السلطان حسين بن أويس، وكانت مقتلة عظيمة بين المسلمين في أطراف همذان.
١٣٧٩م	توجه الشاه شجاع من فارس إلى السلطانية قاصداً أمراء السلطان حسين بن أويس.
١٣٧٩م	وفاة جهانكير بن تيمور بيك، وهجوم المغول على مملكته، فأدبهم وأرجعهم على أعقابهم خاسئين.
١٣٨١م	لجوء توكتاميش إلى تيمور بيك ومناصرته حتى أقامه على العرش.
١٣٨٢م	خرج السلطان أحمد بن أويس على أخيه حسين وقتله.
١٣٨٤م	وفاة الشاه شجاع وتنازع أبنائه على السلطة من بعده، واستمرت المعارك إثر محاولة ضم الشاه منصور كافة ممتلكات الأسرة تحت سيطرته.
١٣٨٤م	استولى تيمور بيك على جيلان، وحضَّ حاكمها على اتباع مذهب الجماعة.
١٣٨٦م	لما بلغ السلطان تيمور بيك أنباء التطاحن والفرقة وإهراق الدماء هبط على فارس غزواً دون قتال على رأس سبعين فرقة من جنده، لزرع الرهبة بملوك فارس كلها لو كانوا مجتمعين بغية حقن دماء المسلمين.
١٣٨٧م	أخمد السلطان تيمور بيك ثورة شيعية مغالية، وألزم أهلها القصاص العادل.
١٣٨٩م	هبط توكتاميش على تبريز بجيشه عنوة، ونهبها، وقتل منها نحو عشرة آلاف، وأسر أولاد المسلمين وذهب بهم إلى أقصى تركستان، وهتك الأعراض، وفعل الفساد، وكانت آنذاك قصبة مُلك أحمد بن أويس.
١٣٨٩م	نكبة دمشق الأولى على يد السلطان برقوق مع القوات المنطاشية.
١٣٩٠م	رجوع برقوق إلى العرش.
١٣٩١م	معركة كندروتشا، وفرار توكتاميش من وجه السلطان تيمور بيك.
١٣٩٢م	انتقضت بعض بلاد الشرق الأوسط، وأغار توكتاميش على البلاد متعرضاً لأطرافها. فنهض إليهم السلطان تيمور بيك بغزوات سريعة ومفاجئة وينتصر عليهم جميعاً.
١٣٩٢م	أسرع قرا محمد التركماني واستعاد تبريز بعد مغادرة تيمور بيك لها، وراسل السلطان برقوق ليقرّه على فعلته وكان ذلك.

١٣٩٢م	نكبة دمشق الثانية على يد اليلبغاوية والمنطاشية ضدَّ السلطان برقوق.
١٣٩٣م	أمر السلطان تيمور بيك باعتقال أفراد الأسرة المظفرية الحاكمة وألزمهم القصاص العادل.
١٣٩٣م	انتشار الشائعات حول انكسار الجيش التيموري، ومبادرة السلطان بيازيد بالإغارة على قيصرية التابعة للسلطان برقوق.
١٣٩٣م/٦رجب	توجه السلطان تيمور بيك من أصبهان نحو همذان، وفوض الأمر إلى ابنه شهرذاده ميران شاه
١٣٩٣م/١٣شعبان	ومن ثم توجه نحو صحراء قولاغي.
١٣٩٣م/١٠رمضان	عاد من صحراء قولاغي ليوافي آق بولاق.
١٣٩٣م	قام سكان بغداد بأنفسهم بفتح أبواب المدينة للقوات التيمورية والاعتراف بسيادة تيمور بيك.
١٣٩٣م/٢٤ذي الحجة	توجه السلطان تيمور بيك نحو تكريت.
١٣٩٤م	عاد السلطان تيمور بيك بجحافله منتصراً، وسارع بيازيد باعتذاره إلى برقوق.
١٣٩٦م	حريقين كبيرين في دمشق.
١٣٩٦م	متابعة الرسل من قبل السلطان تيمور بيك إلى برقوق للحل السلمي بإطلاق أطلمش.
١٣٩٧م	عاد السلطان تيمور بيك إلى بغداد وراسل مجد الدين عيسى السلطان برقوق كي يكون عوناً له.
١٣٩٧م	وصلت رسل تيمور بيك الرحبة وضربت أعناقهم.
١٣٩٨م	طلب بيازيد للتفويض الشرعي بالسلطنة من الخليفة العباسي.
١٣٩٩م	طلب بيازيد أن يخلع عليه لقب سلطان الروم، وأيده السلطان برقوق لطلبه خوفاً على لقب سلطان المسلمين.
١٣٩٩م	توجه السلطان تيمور بيك إلى بلاد إيران، ومنها إلى غزوات السنوات السبع على ما يسميه المؤرخون.
١٣٩٩م	الاستيلاء على قلعة تكريت واكتساح روسيا والهند وعدد كبير من بلاد الشرق الأوسط، ومراسلة السلطان برقوق لإطلاق أطلمش وللحلول السلمية.
١٣٩٩م	تحرك السلطان بيازيد على بلاد السلطان برقوق، ووصلت طلائعه الإبلستين وهو قاصد حلب، فوقف الاتفاق في مصر على محاربته.
١٣٩٩م	وفاة السلطان برقوق، وتولى السلطنة من بعده ابنه الحدث القاصر فرج.
١٣٩٩م	انسحاب الجيش التيموري إلى الهند، وانتهاز السلطان بيازيد فرصة انقسام الأمراء المماليك في مصر عقب وفاة برقوق، وأغار على الحدود السورية، واستولى على ملطية ودارنده مستهتراً بكافة العلاقات السياسية والدينية بين البلدين.
١٣٩٩م	مسير السلطان تيمور بيك من سمرقند إلى المُلتان لافتتاح الهند إثر ثورات الهنادكة ضد الأمراء المسلمين المتنازعين على السلطة بعد وفاة فيروز شاه.
١٤٠٠م	اضطراب الأحوال في بغداد وبسبب ثورات الأمراء على أحمد بن أويس واستولى عليها السلطان تيمور بيك مرة ثانية، واستيلائه على سيواس وملطية ومراسلته السلطان فرج بن برقوق.
١٤٠٠م	الزحف إلى البهنسا وعينتاب وبزاغة في شهر آب.
١٤٠٠م/ آب	سقوط سيواس وبهنسا وعينتاب.
١٤٠٠م/٣٠ تشرين الأول	سقوط حلب.
١٤٠٠م/٢تشرين الثاني	سقوط قلعة حلب، وسقوط حماة على يد ميران شاه.
١٤٠٠م/٢٠ تشرين الثاني	مغادرة تيمور بيك حلب.

١٤٠٠م/٩ كانون الأول	دخوله حماة.
١٤٠٠م/٢٢كانون الأول	وصول السلطان الناصر إلى دمشق.
١٤٠٠م/٢٣كانون الأول	وصول تيمور بيك دمشق بعد أن ترك بعلبك.
١٤٠١م/٣ــــ٤كانون الثاني	مفاوضات الصلح.
١٤٠١م/٧ كانون الثاني	هروب السلطان فرج وحاشيته، وتكرار تيمور بيك لعقد الصلح.
١٤٠١م/١٤ كانون الثاني	حصار القلعة.
١٤٠١م/٤ شباط	استسلام دمشق رسمياً.
١٤٠١م/٨ آذار	سقوط القلعة ومناقشة في حضرة تيمور بيك حول الخلافة العباسية.
١٤٠١م/١٩ آذار	مغادرة تيمور بيك دمشق.
١٤٠١م	طلب أهل قلعة كماخ الأمان من تيمور بيك ودخولها بالسلم.
١٤٠٢م/٨ تموز	معركة أنقرة والنصر على السلطان بيازيد، والاستيلاء على قلعة أزمير، وتأدية إمبراطور القسطنطينية الجزية. وزرع الرهبة في ملوك أوربا ومراسلاتهم له ومهاداتهم.
١٤٠٢م	استقبل السلطان تيمور بيك أطلمش، وأرسل رسله بكتب للسلطان فرج يعرض فيه رغبته في إقامة علاقات المودة مع السلطنة المملوكية. وبكاءه أمام وفد مملوكي حزناً وأسى على دمشق.
١٤٠٢م	سار قرا يوسف والسلطان أحمد بن أويس لقتال السلطان طاهر بن أحمد بن أويس وكانت معركة طاحنة، ثم استيلاء قرا يوسف التركماني على بغداد حتى استعادها التيموريون.
١٤٠٢م	قيام السلطان تيمور بيك بأعمال إدارية في ولاية الأناضول.
١٤٠٣م	دخول السلطان أحمد بن أويس حلب بصورة فقير، وإمساكه بموجب مرسوم واعتقاله.
١٤٠٣م	إصابة بيازيد بمرض الخناق وضيق التنفس مما أدى إلى وفاته، إثر أخبار النزاع بين أولاده وتيمور آنذاك في ضواحي أزمير.
١٤٠٣م	مسير السلطان تيمور بيك إلى بلاد الكرج، وتفويض حكومة بغداد إلى ابنه ميرزاشاه لإصلاحها وعمارتها مما لحق بها في فتح /٨٠٣هـ/.
١٤٠٥م	إرسال هدايا من قبل السلطان تيمور بيك إلى السلطان فرج، واعتذاره عن اضطراره إلى اكتساح بلاده.
١٤٠٥م	المسير إلى الصين والشهادة الكبرى في أوترار.



المراجع التاريخية

١- عجائب المقدور في نوائب تيمور/ أحمد بن عربشاه/ ترجع أهميته للجهود المشكورة التي بذلها محققه أحمد فايز الحمصي.
٢- تاريخ بخارى / أرمينوس بن فامبري/ ترجمة أحمد محمود الساداتي.
٣- الضوء اللامع للقرن التاسع / السخاوي/ المجلد الثالث.
٤- شذرات الذهب / ابن عماد الحنبلي/ المجلد السابع.
٥- شرفنامه / شرف خان البدليسي/ بعض النصوص المنقولة عن شرف الدين يزدي وروضة الصفا (ميرخواند). وكذا الترجمة في المجلد الثاني.
٦- قاهر العالم / السيد فرج/.
٧- الفتوحات الإسلامية الجزء الثاني / زيني دحلان/.
٨- أحداث العصر / جيرار وولتر/.
٩- أعلام الحرب (**تيمورلنك**) / مارسل بريون/.
١٠- الأمير الكبير (**تيمورلنك**) / ج. ج. ساندرس/.
١١- (**تيمورلنك**) / موسوعة كولومبيا/.
١٢- (**تيمورلنك**) / هارولد لامب/ ترجمة عمر أبو النصر، للأسف لم يتقيد بالترجمة حيث يقول: ليس يصح من المعرب العربي أن يتقيد بما تقيد به المؤلف الإنكليزي.
١٣- (**تيمورلنك**) / محمد فياض/.
١٤- (**تيمورلنك**) وحكايته مع دمشق / أكرم العلبي/ تظهر مدى **تفكك** وانحلال المسلمين المصريين، والغزاة على الأبواب وقد بذل جهوداً مشكورة.
١٥- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة.
١٦- العالم الإسلامي في عصر المغول / برتولد شبولر/ ترجمة أسعد عيسى.
١٧- تاريخ ابن الفرات / محمد بن عبد الرحيم بن فرات/ الجزء التاسع ٧٨٩ــــ ٧٩٢هـ.
١٨- (**تيمورلنك**) / الدكتور مظهر شهاب/ رسالة دكتوراه من الجامعة اللبنانية ١٩٨١م ـــ يُعد أكبر موسوعة عربية تتحدث عن (**تيمورلنك**).
١٩- أنباء الغمر بأنباء العمر / ابن حجر العسقلاني/ كتاب التراجم ٧٧٣ــــ ٨٥٠هـ.
٢٠- بدائع الزهور في وقائع الدهور / محمد بن إياس الحنفي/.
٢١- تاريخ ابن قاضي شهبة / أبو بكر بن أحمد الأسدي الشهير بابن قاضي شهبة/.

٢٢- الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية / محمد بن محمود بن صصري/.

٢٣- السلوك لمعرفة دول الملوك / أحمد بن علي المقريزي/.

٢٤- تاريخ ابن خلدون /عبد الرحمن بن محمد الإشبيلي التونسي القاهري المالكي/.

٢٥- النجوم الزاهرة في **ملك** مصر والقاهرة / يوسف بن تغري بردي/.

٢٦- (**تيمورلنك**) قاهر الدنيا / كوثبر أونيل.

٢٧- الإسلام وحضارته / أندريه ميكيل/.

٢٨- قيام دولة **المماليك** الثانية / الدكتور حكيم أمين عبد السَّيِّد/. كتاب ذو أهمية يظهر طوايا وخفايا السلطان برقوق من حبِّه لزعامة العالم الإسلامي وتنافسه مع السلطان بيازيد العثماني على **ذلك**.

٢٩- أعيان الشيعة المجلد الثالث/ السيد محسن الأمين.

٣٠- خطط الشام/ محمد كردعلي.

٣١- موسوعة تاريخ العراق بين احتلالين / عباس الغراوي المحامي.

٣٢- لقاء ابن خلدون وتيمور/ فيشل.

٣٣- **تيمورلنك** ودولة الجراكسة.

